فلسفة التاريخ

تأليف
الدكتور غوستاف لوبون

نقله إلى العربية
عادل زعيتر



ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر
١٩٥٤

فلسفة التاريخ

تأليف
الدكتور غوستاف لوبون

نقله إلى العربية
عادل زعيتر



ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر
١٩٥٤

إهــداء الــكتاب

إلى

صديقى المِفْضال

أَلْبِر دُلاَتُور

العضوِ فى المجمع العلمىِّ

والقاضى السابقِ فى مجلس الدولة

مع الاحترام الودىِّ

غوستاف لوبون

مقدمة المترجم

هذه تَرْجَمَةُ آخرِ كتابٍ للفيلسوف العلامة الفرنسيِّ « غُوسْتاف لوبون » ، فقد أُخْرِج للناس في سنة ۱۹۳۱ ، ومات مؤلِّفُه في سنة ۱۹۳۲ ، وبهذا الكتاب أَكُون ، مع ما قَدَّمتُ من ترجمة كثيرٍ من كتبِ لوبونَ الاجتماعيةِ والتاريخية والفلسفية ، قدأدخلتُ كتبَ لوبونَ المهمةَ ، الآخذَ بعضُها برقاب بعضٍ ، إلى العربية إدخالاً يُخَيَّل إلى الباحث معه أن هذا الحكيم الجليل من العرب ، ولا عَجَب ، فلوبونُ واضعُ سِفْرِ « حضارة العرب » .

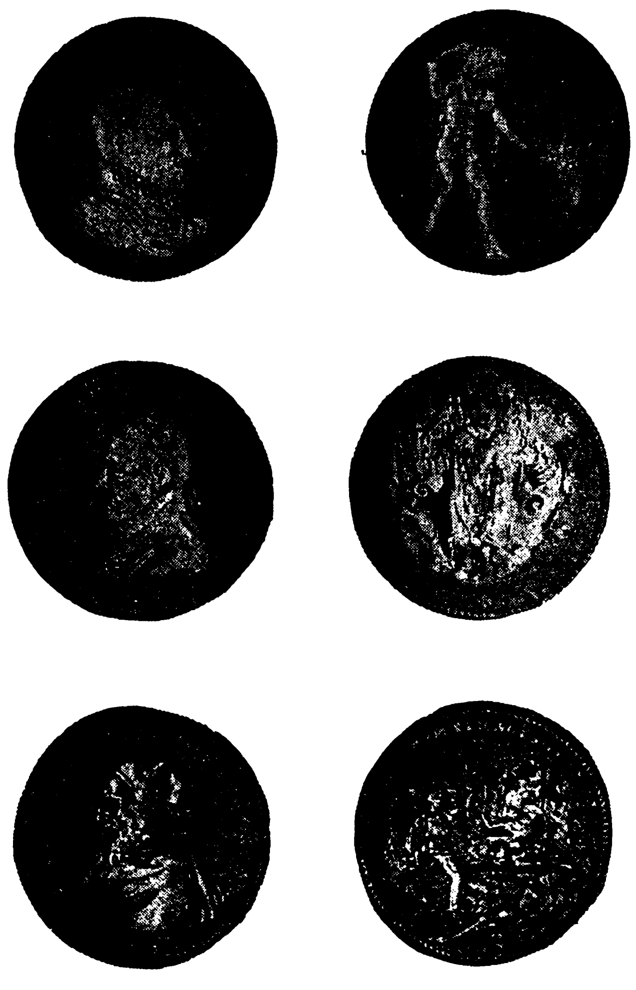
وهذا الكتابُ ، على ما يُرَى من انسجامه مع ما تَرْجمنا من كتب لوبون ، يشتمل على موضوعاتٍ جديدة زاخرةٍ لم تُعالَج في مؤلَّفات لوبونَ الأخرى .

وكتابُ « الأُسُس العلمية لفلسفة التاريخ » هذا ينطوى على مباحثَ علميةٍ مؤديةٍ إلى تغيير الأفكار القديمة حَوْلَ حوادث الحياة وأصل الإنسان وتطورِ العناصر التى تكوّن منها تغييراً تامًّا ، كما ينطوى على مناهجَ تَصْلُح لتَمَثُّل حوادث الماضى وعِللها .

وهذا الكتاب يساعد على وضع فلسفةٍ للطبيعة ، ومن ثَمَّ للتاريخ ، تختلف عن الفلسفات التى سبقتها اختلافاً تامًّا .

فلعلنى أكون قد ملأتُ به فراغاً فى حقلنا العلمىِّ الأدبىِّ الذى لا يزال كثير الثُّغرَات .

« نابلس » عادل زعيتر



الصورة الأولى — مسكوكات قديمة دالة على مشاعر زمنها ، وهى أوسمة ضربها غريغوار الثامن وشارل التاسع تذكاراً لمذبحة السان بارتلمى

المقدمة

الأسس الجديدة لفلسفة التاريخ

تتألَّف فلسفة كلِّ علم من مبادئه العامة ، وإذا تَحَوَّل هذا العلم تحولت فلسفتُه أيضاً .

ويعانى التاريخُ هذه السُّنَّةَ العامة ، وإذْ تزول المبادئُ التى كانت سَنَداً له مناوبةً فإنه يَبْحَث عما يَعْتَاضُ به من أُسُسه السابقة فى التفسير .

وإذْ يقتصر التاريخُ على عَرْضٍ بسيطٍ للوقائع التى كان العالَم مَسْرَحاً لها يلُوحُ كُدْساً من المُلْتَبِساتِ الصادرة عن مصادفاتٍ مفاجئة ، وتُبْسَطُ أهمُّ الحوادث فيه من غير صِلَةٍ بَيِّنَة ، ويؤدِّى أدقُّ العلل وأصغرُها إلى نتائجَ عظيمةٍ جدًّا .

ويُعَدُّ عدمُ وجود صلةٍ منظورة بين تَفَه العِلَل وعِظَم النتائج من أكثر حوادث حياة الأمم وَقْفاً للنظر ، ومن ذلك أن ظَهَرَ فى صميم بلاد العرب سائق إبلٍ اعْتَقَد اتصالَه بالرَّبِّ فأبدع بأخْيِلَته ديناً ، فأُقيمَتْ ، بفعل الإيمان الجديد ، إمبراطوريةٌ عظيمة فى سنينَ قليلةٍ ، وتَمْضِى بضعةُ قرون فيؤدى ما صدر عن مُلْهَمٍ جديدٍ من كلامٍ نارىٍّ إلى انقضاض الغرب على الشرق ، فتُقْلَب بذلك حياةُ الأمم ، وفى أيامنا تصطرع دولةٌ بلقانيةٌ حقيرة وإحدى الدول العظمى فتُخَرَّبُ أوربة بأدْمَى الحروب التى سَجَّلها التاريخ .

ويواصل هذه السلسلةَ للحوادث غيرِ المنتظرة نَفَرٌ من المتهوسين الذين أعمتهم أوهامٌ سياسية مُجَرَّدة ، كذلك ، من الأُسس العقلية تَجَرُّدَ المعتقدات الدينية القديمة ، ويَقْبِضُون على زمام روسية ، ولم تَلْبَث هذه الإمبراطورية العظيمة أن غرِقَت فى بؤس عميق .

ووقائع مثلُ هذه مما يُبَلْبل العقل ، ولا رَيْبَ فى أن لها عللَها (ولعدم السِّيَاق عِلَلُه) ، ولكن تعيين هذه العِلَل هو من البُعْد والتعقيد أحياناً ما يُوضَع معه فوق وسائل التحليل .

* *

تنشأ الحوادث التى يتألَّف منها التاريخ عن عواملَ مختلفة ، ومن هذه العوامل ما هو ثابت كالأرض والإقليم والعِرْق ، ومنها ما هو عارضٌ كالأديان والغَزَوات ، إلخ ...

ومبدأُ العلة هذا هو من أكثر ما يَشْغَل بالَ الفلاسفة ، ويَجِدُ أَرسطو أربعةَ معانٍ مختلفة لكلمة « العلة » ، وإذا ما نُظِرَ إليها من الناحية العملية وُجِدَ أنها تدلُّ على حادثة تؤدى إلى أخرى ، بَيْدَ أن المعلول لا يَعْتَمُّ أن يُصْبِح علةً بدَوْره ، ويُرَى العالَم قد تألَّف من شبكةٍ ضروراتٍ يُمَثِّلُ كلُّ واحدة منها معلولًا وعلةً معاً .

وفى التاريخ تَبْلُغ الحوادث من الانتظام ما يجب أن يُرْجَع معه إلى مَدًى بعيد جدًّا أحياناً ، وذلك لتعيين تعاقب العوامل التى أدت إليها .

ومن أعظم ما فى معرفة التاريخ من مصاعب كونُ الحاضر الذى يكتنفنا ، ونراه جيداً ، صادراً عن ماض بعيد لا نراه ، فيقتضى حُسْنُ

إدراك الحوادث أن يُرْجَع إلى سلسلة طويلة من العلل السابقة .

وقليلٌ من الوقائع ما يمكن إفراده فى التاريخ ، فمن الحوادث التاريخية وما تُشْتَقُّ منه تتألّفُ سلسلةٌ متصلة يتعذّر فصلُ حَلَقَاتِها عنها ، فلولا الحروبُ الأهلية فى رومة لاستحال ظهور القياصرة .

وكان سببَ حرب سنة ١٨٧١ المباشرَ برقيةٌ دِبْلُمِيّة ، وكانت مصادرَها البعيدةَ معركةُ يِنَا التى هى نتيجةُ الثورةِ الفرنسية ، هـذه الثورةَ التى هى نتيجةُ سلسلة طويلة من الحوادث السابقة ، ولولا يِنَا ما كُنَّا لنَعْرِف الوَحدةَ السياسية الألمانية على ما يحتمل ، هذه الوَحدةَ التى أوجبت سِدَان ، وهكذا نَجِدُ أن نابليون الأول أعدَّ الصراع إذا ما رجعنا إلى سلسـلة العلل ، وكان إنذارُ النمسة إلى صربية ، الذى هو حادثٌ أوّلىٌّ للحرب العظمى ، نتيجَةَ سلسلةٍ طويلة من الوقائع لا يُمْكِن إدراكُه بغيرها ، وكانت عِلَلُها المباشرة ، وهى ما حَدَث من جَدَلٍ بين صربية والنمسة ، وما تَبِعَ ذلك من إعلان النفير العامِّ فى روسية إلخ . ، من قلة الأهمية ما كان الدِّبلميون يأمُلُون معه منعَ وقوعِ الصِّراع ، ولم تَكُ جهودُهم مُجْدِية ، وذلك لأنه كان ينتصب خَلْفَ العلل الحاضرة الضعيفة عاملُ القُوَى المتراكمة نحو غَرَضٍ واحد منذ زمن طويل والتى كانت من شِدَّة الوَطْء ما لا تُذَلِّلُه جهودُ التسكين .

وإذا ما اقتصر المؤرخُ فى البحث عن مصادر الحرب الأوربية على المفاوضات الدِّبلمية ، التى أسفرت عن انقضاض بعض الأمم الأوربية الكبرى على بعضٍ ، لم يُدْرِك شيئاً من تكوين هذه الكارثة الهائلة ، وهو يقول

فى نفسه سائلاً لا رَيْبَ : إذا كان جميعُ هؤلاء الأقطاب قد انتهوْا إلى الحرب على الرغم من جهودهم الواضحة التى تَهْدِف إلى حِفْظ السِّلْم أفلا يكونون قد أُصيبوا بجنون ؟ لقد نشأ عن سلسلة من العلل البعيدة وجودُ قُوًى أشدَّ من إرادتهم ، ومن العبث أن تَحَرَّكوا لإبقاء سَلْمٍ كانت تَفِرُّ منهم سريعاً ، ومن العبث أن أَبْدَوْا يأسًا عميقاً عندما ظهرت هُوَّةٌ مُقَدَّرة مفتوحة أمامهم ، فما كانوا ليسيطروا على الحال ما داموا غيرَ مؤثِّرين فى الماضى .

ويَغدُو التاريخُ أمراً مستحيلاً إذا ما وَجَبت دراسةُ تعاقب العلل البعيدة التى تُعَيِّن كلَّ حادثة ، ولذلك يجب أن يُسلَّم بدراسة العلل المباشرة ، ثم ببحثٍ مُوجَزٍ فى العوامل العامة التى كانت ذا أثرٍ فى تكوينها زمناً طويلاً ، أَجَلْ ، تتألف حوادثُ التاريخ من الوقائع غيرِ المنتظرة كقيام أديان عظيمة قادرة على تغيير الحضارة وخضوعِ أوربة لضابط بسيط صار إمبراطوراً ، ولكنه يشاهَدُ بجانب هذه الانقلابات العارضة تسلسلٌ على شىء من الانتظام فى تطور الأمم ، وتَتَبَع العناصرُ الأساسية للحياة الاجتماعية ، كالنُّظم السياسية والتملك والأُسرة إلخ . ، سيراً وثيقاً كالذى تتحول به الخَلِيَّة الدنيا إلى بَلُّوطةٍ خضراء ، فحالُ الأمة الحاضر يُعَيَّن بتعاقب أحوالها السابقة ، ويَخْرُج الحاضر من الماضى كما يَخْرُج الزهرُ من البَذْر .

* * *

وفى دَوْرٍ بعيدٍ قليلاً ، حين لَخَّصَ بُوسُّويه مبادئَ زمنه فى الكَوْن والإنسان فى رسالة مشهورة ، كان يُمْكِن فلسفةَ التاريخِ أن تُصَاغ فى بضعة أسطر

فيقال : إن قدرة صمدانية قاهرة كانت توجّه مجرى الأمور وتُنَظم مصيرَ المعارك فلا تقع أيةُ حادثةٍ خارجَ إرادتها .

وقد عَدَل العلماء عن هذا المبدإ على العموم ، ومع ذلك لا يزال منتشراً ، ومن ذلك أن صَرَّح أحدُ رؤساء الوزارة البريطانية منذ سنينَ قليلةٍ ، من فوق المِنْبَر ، بأن الحكمة الربَّانية قَضَتْ عَلَانيةً بأن تَحْكُمَ إنكلترة فى العالم ، وقَبْلَ ذلك بقليل كانت هذه الحكمة الربانية قد فَوَّضت إلى ألمانية تمثيلَ هذا الدور كما قال إمبراطورها .

ومع أن تأثير العزائمِ الربَّانية الموجِّهةِ لسَيْر العالَم لا يزال حيًّا فى حياة الأمم يزول بالتدريج أمام الجبَرية التى تُبْصِرُ فى الضرورة ما يُسَيِّرُ الأمورَ من روح .

وبما أن التاريخ ليس علماً ، بل مُرَكَّبٌ من علوم مختلفة ، فإن مبدأه يختلف بين جيلٍ وجيل بحكم الضرورة ، وتتضمن فلسفتُه الحاضرة ، بفضل مبتكرات العلوم ، بعضَ المبادئ الجوهرية فى تطور العالَم وطبيعةِ الإنسان ، وهكذا حُمِلْنا على دَرْس موضوعاتٍ لا تُرَى فى كتب التاريخ عادةً وإن كانت أسسَه الحقيقية .

* * *

وإلى دَوْرٍ حديثٍ نسبيًّا ، ما دام لا يفصلنا عنه غيرُ قرنٍ ونصفُ قرن تقريباً ، كانت معارفنا ، فيما خلا مِنْطقةَ الرياضياتِ والفلك ، لا تُجاوز على الإطلاق ما يُعَلِّمُهُ أرسطو تلميذَه المَلَكِيَّ الإسكندرَ منذ ألفى عام ، فكان يُعَدُّ الهواء والنار والتراب والماء ، دائماً ، عناصرَ مُكَوِّنةً للعالَم ، وكان

لا يَخْطُر ببالٍ أمرُ الكهربا والبخارِ وجميعِ القُوَى التى تسيطر على النشاط الحديث ، وكان يَظَلُّ مجهولاً عالَمُ الكمية الصغرى ، وكان يبقى غيرَ معروفٍ أمرُ الموجودات التى ظهرت على الكُرَة الأرضية قبل الإنسان وأُلوفُ ما قبل التاريخ من السنين التى مَضَتْ قبل فجر الحضارات ، وكانت الكتب الدينية تُبَسِّطُ تاريخ كُرَتِنا تبسيطاً عظيماً فتقول مُؤَكِّدَةً إن إلهاً قادراً أخرج الأرض ، منذ ستة آلاف سنة فقط ، من العَدَم بغتةً مع جميع الموجودات التى تَسْكُنها ، وكان الفلاسفة يَجْهَلُون وحشيةَ جيل الكُهُوف فيُعْجَبُون بكمال المجتمعات الفطرية الخيالىِّ ، وكان نظريُّو الثورة الفرنسية يَزْعُمون إعادتَهم العالَم بعنفٍ إلى دَوْر السعادة الوهمية ذلك .

بَدَّد العلم جميعَ هذه الأوهام ، وجَدَّد تجديداً تامًّا أفكارَنا حَوْل أصل الأرض والبشر ، وحَوْلَ حوادث الحياة وتطورها ، وحَوْلَ قرابةِ الإنسان من الحيوان وأَصلِهما المشترك .

* * *

وسرعةُ تَحَوُّل الأفكار العجيبةُ من خصائص الجيل الحاضر ، فَتُولَدُ هذه الأفكارُ وتَنْمُو وتَدُور وتموت بسرعةٍ خارقة للعادة ، وتلاحَظ هذه الدورة فى جميع حقول المعرفة .

وفى علم الحياة تُتْرَكُ مبادئُ تَحَوُّل الموجودات بتطور مستمر بعد أن كانت تؤثِّر فى عالَمَ العلم تأثيراً عميقاً منذ نصف قرن تقريباً ، ويَحُلُّ محلَّها مبدأُ التحولات المفاجئة .

وظَهرت التحولاتُ فى الفيزياء أبعدَ مَدًى ، فقد أصبحت ذَرَّةُ قدماء

الفِزْيويين الجامدةُ نظاماً شمسيًّا مُصَغَّراً ، ويَخْسَر الأثيرُ ، الذى عُدَّ عنصراً جوهريًّا لنقل النُّور ، وجودَه ، وتُستَبْدَل به مؤقتاً معادلاتٌ لا تُظْهِرُ شيئاً من الجوهر الذى يَصْلُح سَنَداً لها .

وتَحَوَّل علمُ الفلك الثابتُ تحولاً عظيماً ، فبعد أن كان يَعْتقد بلوغَه حدودَ الأشياء يُظْهِرُ اليوم خلفَ هذا الكَوْن المحدود ألوفَ العوالم البالغةِ الاتساع .

* *

ومن أهمِّ اكتشافات العلم الحديث إقامةُ مبدإ التقلب مقامَ مبدإ الثبات ، وقد خَسِرَت الأرضُ والموجودات التى تسكنها ثباتَهما الموهوم ، وهما يُمَثِّلان مبانىَ تَخْرَبُ وتتجدّد ، وأُبْدِىَ تَقَلُّبُ العالمِ الدائمُ هذا من سُنَن وجوده الأساسية .

ولم تكن التحولاتُ فى التاريخ بالغةً ذلك العُمْق ، ولكنه إذا ما نُفِذَ فى مِنْطقة الأسباب المُظْلمة ظَهَرَ أن أسباب الحوادث الحقيقيةَ تختلف كثيراً عن التفاسير الوهمية التى عُدَّت عقائدَ قروناً طويلة .

ومع ذلك لا يُمْكن أن يطالَب التاريخُ بضبطٍ كالذى أَخذت العلوم تُحَقِّقُه ، وإذا ما نُظِرَ إلى طبيعة ذكائنا وُجِدَ أننا لا نُبْصِر هذا العلم إلاّ على شكلِ حوادثَ منفردة ، ولا يُمْكِنه أن يُدْرِك على وجهٍ يختلف عن ذلك إلاَّ من قِبَل ذكاء يكون من السُّمُوِّ ما يُبْصِر معه كلَّ حادث تاريخى محاطاً بسلسلةٍ من العلل التى أوجدته ومن النتائج التى عَقَبته ، وبما أن

دماغنا لم يُكوِّن لإدراك مثل هذا المجموع فإنه لا بُدَّ من التسليم بإدراك نُبَذٍ من الأمور .

* * *

وُجِدَ التاريخُ بترجيعاتٍ من الروح البشرية متأثرةٍ بعواملَ شتى ، غير أن طبيعة هذه الروح لا تكاد تكون معروفةً حتى الآن ، ولم يُوَفَّقْ علم النفس ، الذى هو أساسٌ جوهرىٌّ لمعرفة التاريخ ، لغير إيضاح داراتها حتى الآن .

ومن بين النتائج التى أوجبت تحويلَ إدراكنا للتاريخ يجب أن يُذْكَر، على الخصوص ، إدراكُ الحياة الباطنية التى بحَث فيها علم النفس الحديث .

ومع أن هذا العلم لا يزال ابتدائيًّا إلى الغاية فإنه يساعد بالتدريج على تغيير الآراء التى عُدَّت حقائقَ فيما مضى .

ومما كَشَفه هذا العلمُ كونُ اللاشعورىِّ ، الموروثِ أو المكتسب ، يُعَيِّنُ عواملَ السير غالباً ، وكونُ القُوَى الدينية والعاطفية ، التى هى أعلى من القُوَى العقلية ، تهيمن على هذه المِنطقه المظلمة ، وكونُ الوَحدةِ الذاتية ليست غيرَ أمرٍ ظاهر ، فهى تنشأ عن تراكيبَ موقتة تُجَهِّزُنا بذاتيات متعاقبة يسيطر كلٌّ واحد منها تَبَعاً للحوادث ، وهكذا يكون ثباتُ الذاتيات مرتبطاً فى ثبات البِيئة .

ويدلُّ علم النفس ، أيضاً ، على أن خطأَ الحكم فى الحوادث التاريخية ينشأ ، على العموم ، عن كونه يُعْزَى إليها تكوينٌ عقلىٌّ مع أنها تنشأ عن عواملَ عاطفيةٍ ودينية خاصة بكلِّ أمة ، عن هذه العوامل التى يظلُّ العقل

غيرَ مؤثِّرٍ فيها ، وعلى أن المعتقداتِ الدينيةَ ، والمعتقداتِ السياسيةَ ذاتَ الصبغةِ الدينية ، لا تقوم على العقول ، وعلى أن النفسية الجَمْعية تختلف عن الذاتيات التى تتألف منها اختلافاً تامًّا فلا يكون للعوامل المؤثِّرة فى الكائن المنفرد أىُّ تأثير فى عين الفرد عندما يكون جزءًا من زمرةٍ لوقتٍ ما ، وعلى أن الأغاليط التى عُدَّت حقائقَ مَثَّلَتْ فى حياة الشعوب دوراً يجاوز أحياناً دَوْرَ الحقائقِ الأكثرِ استقراراً .

وإذا عَدَوْتَ قصةَ الحقائق التى تؤلِّفُ ناحيةَ الحضاراتِ الماديةَ وجدتَ التاريخ يشتمل ، كذلك ، على دراسة الأوهام الدينية والسياسية التى وَجَّهَتْها ، وما فتئ تأثير هذه الأشباح العظيمة يكون وطيداً فى العالَم الحديث كما فى العالَم القديم ، وقد قُلِبَتْ إمبراطورياتٌ قوية ، وستُقْلَب أخرى لا رَيْب ، إيجاداً لها أو قضاءً عليها .

ولا ينبغى لتقدم العقل أن يَحْمِل على نسيان شأن الأوهام البالغ فى حياة الأمم ، فالأوهامُ قد أوجدت آمالاً مُعَزِّيةً ومنحت الإنسانَ قوةَ سَيْرٍ لم يؤدِّ إليها أىُّ عامل عقلىّ ، وهكذا ظَهَر غيرُ الحقيقىِّ مُوجِباً كبيراً للحقيقىّ .

* * *

وإذْ لم تكن فلسفةُ التاريخ غيرَ آخرِ فصلٍ لفلسفة الكَوْن العامة فإننا انتهينا إلى عَرْضٍ سريع لبعض المبادئ الجديدة التى يَسْمَحُ تقدمُ العلوم بصَوْغها .

وإننا ، بَدَلاً من عزْل الانسان عن الماضى العظيم الذى هو إزهارٌ له ، ربطناه بمجموع الموجودات التى سبقته فى سَيَّارتنا فأظهرنا أن العالَمَ المعدِنىَّ

والعالَم النباتىّ والعالَم الحيوانىّ مراحلُ متعاقبةٌ لمجموعٍ واسع ، فمادةُ الأزمنةِ الأولى الجامدةُ ، التى هى تكاثُفٌ بسيط للطاقة ، تحولت تحولاً بطيئاً ، وبانتقالاتٍ غير محسوسة ، إلى مادة حية ، وإلى مادة مفكرة فى آخر الأمر .

وبيانٌ مثلُ هذا كان ضرورياً لعَرْض التحولات العميقة التى تتمّ فى الفكر البشرىّ حَوْل مبادئَ عُدَّت خالدةً فيما مضى فكانت تَصْلُح أُسُساً لتفسير التاريخ .

وبما أننى لا أستطيع أن أُبيِّن فى هذا الكتاب جميعَ عناصر فلسفة التاريخ فإننى أردُّ دراسته إلى الأقسام الأربعة الآتية ، وهى :

(١) مباحثُ علميةٌ مؤدية إلى تغيير الأفكار القديمة حول حَوْادثِ الحياة وأصلِ الإنسان وتطورِ العناصر التى تَكوَّن منها تغييراً تامًّا .

(٢) مبادئُ متعاقبةٌ للمؤرخين حَوْل مختلف وقائع التاريخ .

(٣) مناهجُ تَصْلُح لتَمَثُّل حوادث الماضى وعللها .

(٤) مباحثُ فى شأن عوامل التاريخ العظيمة ، كالمعتقدات الدينية والسياسية والمؤثِّرات الاقتصادية ، إلخ . ، حَوْل تقلبات الذاتية .

وإنا ، إذ نَدْرُس الفَرْضياتِ التى يُسَوِّغ العلمُ صَوْغَها حَوْل القُوَى المُبْدِعة للكون وحَوْلَ أصل العالم وعدمِ ثباته وطبيعةِ الإنسان وحوادثِ الحياة وأصلِ نشاط الموجودات والحياةِ الغريزية ، إلخ . ، نُبْصِرُ المذاهبَ القديمة التى عاشت الروحُ بها حتى الآن فازدهرت مناوبةً ثم استُبْدِلَتْ بها مبادئُ جديدةٌ تماماً .

والتاريخُ إذْ يَقُوم على هذه الأُسس العلمية ينطوى على فائدةٍ غيرِ

منتظرة ، فهوى يَعْرِض مُرَكَّباً لجميع المعارف حَوْل الكَوْن والإنسان ، وهكذا نساعد على وَضْع فلسفةٍ للطبيعة ، ومن ثَمَّ للتاريخ ، تختلف عن الفلسفات التى سبقتها اختلافاً تامًّا .

البَابُ الأوّل

فلسَفَة الكوْن الحَاضِرَة

تَقَلّبُ العَالمِ وتَطوّرُه



الفصل الأول

القُوَى المُبْدِعة

طبيعةُ الإنسانِ وحدودُ معارفِنا الحاضرةُ

تعانى المبادئُ الأساسية التى تَغَذَّى بها الفكرُ البشرىُّ زمناً طويلاً ، وذلك حَوْلَ أصلِ العالم وطبيعةِ الإنسان وقُوَى الكون المُبْدِعة ، تحولاتٍ تامة ، وإذ كان اكتسابُ معارفَ علميةٍ جديدة حَوْلَ هذه الموضوعات يؤدِّى ، على وجهٍ غير مباشر ، إلى تحوُّلاتٍ مهمة فى مبادئنا التاريخية فإننا نُلَخِّص بعض هذه المبادئ فى بضع كلمات فنقول :

إن أول هذه المبادئ القديمة التى قضى عليها العِلمُ هو ما كان خاصًّا بخَلْق العالَمَ ، والعالَمُ هو ما أخرجه مختلفُ الأديان من العدم طَوْعاً بإرادة خالق .

وعنعناتٌ متماثلةٌ لدى جميع الأمم كانت تقول ، كذلك ، بأن الإنسان خُلِقَ خلقاً خاصًّا فُصِل به عن الموجودات الأخرى فصلاً صريحاً ، وذلك أن خالقاً قادراً أنعم عليه بالعقل مع روح خالدة ، وأن الموجوداتِ الأخرى لم تَحُزْ غيرَ غرائزَ آليةٍ لتَسِيرَ فى الحياة .

والعلمُ ، بعد أن أقصى الأرضَ إلى المرتبة الوضيعة التى تَشْغَلُها فى العالَمَ ، لم يُعَتِّم أن رَبَطَ الإنسان بسلسلة الموجودات الطويلة التى سَبَقَتْه .

وقد عَقَبَتْ نظريةُ التطور بالتحولات المتعاقبة قديمَ الأفكار حَوْلَ التكوين

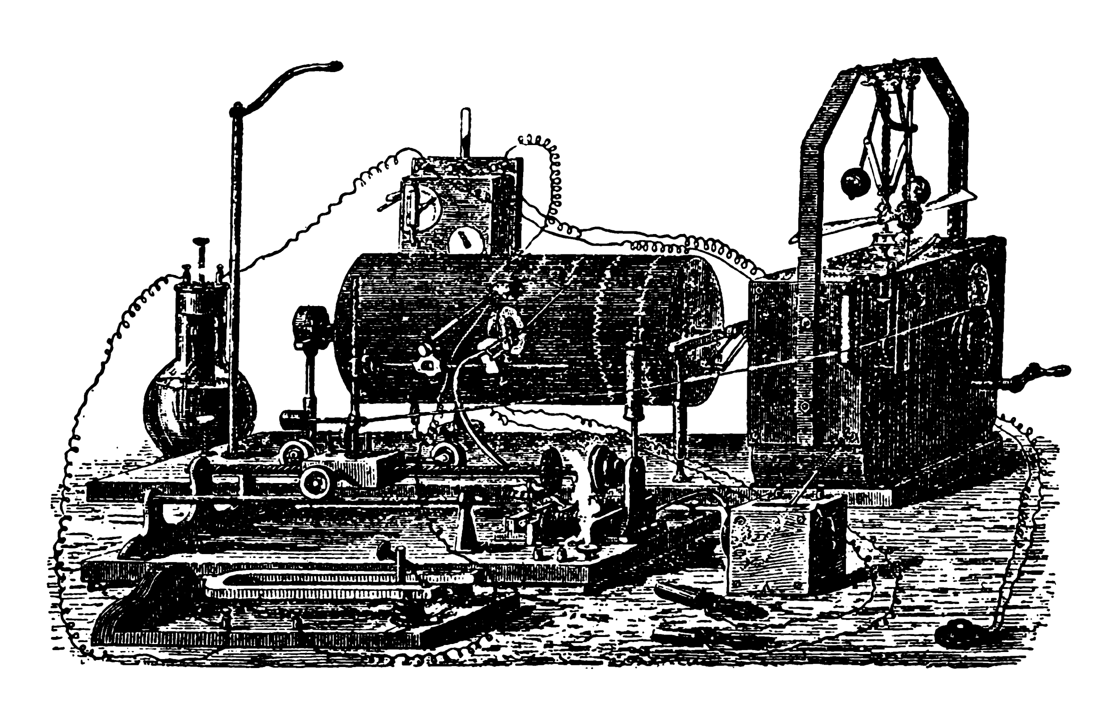
ذاهبةً من مِكْرُوب الأجيال الأولى حتى الإنسان ، وهكذا حَلَّ مبدأُ التقلب محلَّ مبدإِ الثبات القديم بالتدريج .

وكانت الموجوداتُ الأولى قد كُوِّنت من خَلِيَّاتٍ بسيطة صغيرة إلى الغاية مشابهةٍ للمِكْرُوبات الحاضرة ، وهى لم تَلبَثْ أن أدت إلى نباتاتٍ أكثرَ تعقيداً ، ثم إلى حيواناتٍ مختلفةٍ كالزَّحَّافات والأسماك التى كان بعضُها من الضخامة والقوة ما يُبيدُ معه الأخرى ، وكان لملوك الخَلْق المُؤَقَّتين هؤلاء وجودٌ ذو دَيْمُومَةٍ بالغةِ الطُّول أحياناً ، ولكن من غير أن تمتدَّ امتداداً مطلقاً ، وإذا نُظِرَ إلى الأرقام التى قدَّمها مدير المُتْحَف ، مسيو إ . پِيير ، وُجِدَ : « أن العقارب وكلابَ البحر تَثبُتُ نحو اثنى عشرَ مليونَ سنة ، وأن الخنافس البحرية الكبيرة تَرْتَقى فى خمسةَ عشرَ مليونَ سنةٍ ثم تضمحلُّ ، وأن خنافس الدقيق أُبِيدَتْ فى آخر الأمر من قِبَل أصدافٍ أخرى تُعْرَف بالبِلِمْنِيت » .

وتَلُوحُ آلافُ سِنِى الحضارة الثمانيةُ قصيرةَ الأَمَد بجانب مثل تلك الأرقام .

وظَهرَ من المباحث الأخرى أنه يجب أن يُضَافَ ما بين خمسين ألفَ سنة ومئةِ ألف سنة على الأقلِّ ، تُعْرَف بما قبل التاريخ ، إلى ما بين ثمانية آلاف سنة وعشرة آلاف سنة تُعْرَف بسِنِى التاريخ .

وكان لا بُدَّ للإنسان من جميع ذلك الزمن حتى يتَخَلَّص ببطء من العالَم الحيوانىِّ الذى خَرَج منه ، وبما أنه كان يَجْهَل الزراعةَ والمعادن فى ذلك الدَّوْر ، وبما أنه كان لا يَملِك من الأسلحة غيرَ قِطَعٍ من الصَّوَّان منحوتةٍ



الصورة الثانية – آلات المؤلف التى يقاس بها تقلب الذاتيات البيولوجية
المطابقة لتحول الذاتيات النفسية



الصورة الثالثة – مزيج من فن البناء يدل على تأثير العروق الأجنبية ، ميدان بهات غاؤن ، التقط المؤلف صورته فى أثناء زيادة نيبال ، تدل هذه المبانى على المؤثرات الصينية أول وهلة .

نحتاً غليظاً ، وبما أنه لم يكن له من المساكن غيرُ المَغاوِر ، فقد رَسم مبادئ عظمتِه القادمةِ رسماً خفيفاً .

* * *

وعلى الرغم من جميع الاكتشافات لا تزال تُوجَد ، كما يَلوُح ، هُوَّة لا تُملأُ بين الحيوان والإنسان ، ولا بُدَّ من أن تُقْطَع مَسافة جديدة من الفكر لِيُعْرَفَ هل يختلفان ذكاء ، ويقوم هذا التفاوت على مقدار هذا الذكاء ، لا على طبيعته .

وفى العلم الحديث أن الإنسان عاد لا يكون غيرَ آخِر حدٍّ لسلسلةٍ طويلة من الموجودات التى ظهرت قبله ، وهو إذا كان يَفُوقُها فى مِنطقة الحياة العقلية بَقِيَ مساوياً لها فى مِنطقة الحياة العضوية ، وهو لا يمتاز منها إلاَّ قليلاً فى مِنطقة الحياة العاطفية كما نذكر ذلك فى فصلٍ آت .

وتَلُوح الفروق العقلية التى تَفْصِل الإنسان عن الحيوان واسعةً عند مقابلتنا بين المتمدن والحيوانات التى بَقِيَتْ ضِمْنَ دوائر التطور الأدنى ، وتزول الفروق ، أو تَخِفُّ على الأقل ، إذا لم يقابَلْ بين الحيوانات والإنسان الحاضر ، بل بينها وبين أجداده الذين عاشوا فى الكهوف قروناً طويلةً ، وذلك فى وَسط ذوات الثُّدِيّ التى كانوا لا يمتازون منها إلاَّ قليلاً .

ويلوح أن المجتمعاتِ الابتدائيةَ التى تألفت من أجدادنا الفطريين لم تكن حائزةً لبنيةٍ أرقى كثيراً من البنية التى أظهرتها المباحثُ الحديثة فى مختلف مجتمعات الحيوان .

والعلمُ ، بعد أن أهمل دراستَها زمناً طويلاً ، انتهى إلى اكتشافه فيها

بِنْيَاتٍ مُحْكَمَةً جدًّا وسُنَنًا خُلقيةً وثيقةً إلى الغاية وبعضَ القابليات التى تَنِمُّ على أوجهٍ من الذكاء كان الإنسانُ يجهلها فيدعوها بالغريزة عن عدم إيضاحٍ للأمر ، ولا يَبْدُو كثيرٌ من مجتمعات الحيوان أدنى من بعض العشائر الابتدائية كعشائر إفْرِيقية الوسطى مثلاً .

وكانت الهُوَّةُ ، التى افْتُرِضت بين مجتمعات الإنسان ومجتمعات الحيوان ، تنشأُ ، إذَنْ ، عن نَقْصِ الملاحظة فقط .

* * *

كانت المبادئُ القديمة عن خَلْق العالم وطبيعة الإنسان تُشْتَقُّ من المعتقد العامِّ ، لدى جميع الأمم وفى جميع أدوار تاريخها ، القائلِ إن الأرض والبشرية كانتا تُسَيَّران من قِبَلَ موجوداتٍ عُلوية مسيطرة على الكون .

وفى أيامنا انتهى الفكرُ الدينىُّ والفكرُ العلمىُّ إلى اتباع اتجاهين مختلفين اختلافاً بَيِّناً ، ففى المبادئُ التقليدية يُوَجِّه العالَمَ دائماً آلهةٌ مهيمنون مُجيرون ، وفى المبادئُ العلمية استُبْدِل بهؤلاء الآلهةِ الشخصيين قُوًى غيرُ شخصيةٍ يُمْكِن تذليلُها .

وكثيرٌ من المشاهدات يُثْبت أن التقلب والتحول كانا شرطين ضروريين لجميع عناصر الكَوْن بَدْءاً من الصخرة التى كان يَلُوح تَحَدِّيها لسَيْر الأزمان حتى النجوم الساطعة التى تتلألأ ليلاً ، فالطبيعةُ لا تَعرِف السكون ، وما كان الموتُ نفسُه ليَضَع حدًّا لِمَا يعانيه جميعُ الموجودات من تَحَوُّلات مستمرة تُعَدُّ شروطاً أساسية لتطورها ، وكان الموتُ ، إذا ما نُظِرَ إليه علميًّا ، أى إذا ما قُطِعَ النظرُ عن المعتقدات الدينية ، يَلُوحُ فيما مضى فناءً نهائيًّا ،

ويصبح الموت شكلاً جديداً للحياة إذا ما نُظِرَ إلى النظريات الجديدة التى تَعُدُّ الشخصيةَ مجموعةً من الذاتيات الموروثة عن الأجداد .

* * *

والكونُ ، كما يَتَمَثَّله العلم فى الوقت الحاضر ، يَلُوح مؤلَّفاً من سلسلةِ ضروراتٍ تُعَيِّنُ تطورَ الموجودات والحوادث .

وشأنُ الوجوب ، كعنصرٍ مُبْدِع ، يَبْدُو فى جميع حوادث الطبيعة .

ومع ذلك فإن هذا المبدأ الحديث لا يطابق مبدأ القَدَرِ القديمَ مطلقاً ، وإنما يَعْنِى أن كلَّ حادثةٍ مُعَيَّنةٌ ببعض العلل تعييناً وثيقاً فقط .

ويتحول الفحمُ الأسود إلى ألماسٍ ساطع بحكم الضرورة إذا ما ظهر بعضُ شروط البيئة ، ويصبح الماء مائعاً أو جامداً أو بخاراً بفعل بعض العوامل الثابتة .

ومع ذلك فإن مبدأ الوجوب هذا لا يَتَضَمَّنُ تبسيطاً للحوادث ، وفى الحقيقة أن تفسيرها أكثرُ تعقيداً مما فى الزمن الذى كانت الحكمةُ الربانية تُقَدِّم فيه إيضاحاً شاملاً للأشياء .

والعلمُ ، إذْ يَعْجِزُ عن الإبداع ، يستطيع فقط أن يُنَظِّم الضرورات التى تُعَيِّن حدوثَ الموجودات أو الأشياء ، وهكذا يعالِج أمرَ الحرارة والكهربا والحياة من غير أن يَعْرِف شيئاً عن طبيعتها ، وأما عن الإيضاحات فيقتصر العلم على القول :

إن الحرارة قوة مجهولةٌ فى جوهرها قادرةٌ على تمديد الأجسام فتُقَاسُ بدرجة هذا التمدُّد ، وإن الثِّقَلَ قوةٌ مجهولةٌ فى جوهرها قادرةٌ على جَذْب

الأجسام فيقاس بطاقة هذا الجَذْب ، وإن الـكهربا قوةٌ مجهولة فى جوهرها قادرةٌ على إحداث بعض النتائج الضيائية الحارَّة ، إلخ . ، فتُقَاسُ ، أيضاً ، بشدة هذه النتائج ، فهذه المشاهداتُ تدلُّ على حَدٍّ معارفنا ، ولايزال حَقْلُ العلل مُغْلَقاً .

* * *

وكان علمُ الهيئة لا يُحْصِي غيرَ بضعةِ آلافٍ من الكواكب فى الفَلَك ، فاكتشف الملايينَ منها ، ويَزِيدُ هذا العددُ كلَّ يومٍ بزيادة إتقان مناهج الرَّصَد ، وتُدْفَعُ حدودُ الكون إلى الوراء دائماً ، والآن يجب أن يُفْتَرَض الكون بلا حدود ، أى بلا أول ولا آخر .

وهل العالَمُ مُسَيَّرٌ بجَبَريةٍ مطلقةٍ مُلَخَّصةٍ بفَرْضيةِ لَـبْلَاسَ القائلةِ : يستطيع ذكاء كافٍ أن يقرأ فى السَّدِيم جميعَ الحوادث المتعاقبة فى التاريخ ؟ لا مناصَ من السَّيْر كما لو كانت هذه الفَرْضيةُ غيرَ موجودة وإن أُثبتت .

والنجومُ ، إذْ تعانى سُنَّةَ التطور التى تقضى على كلِّ شىء بالتحوُّل ، تواجِه أطواراً من النشوء بحكم الضرورة متفاوتةً إلى الغاية ، ومنذ الآن يلوح ، على ما يحتمل ، كَوْنُ الموجودات التى تَسْكُن سطحَها قد جاوزت ، أيضاً ، أدوارَ نشوء متفاوتةً ، ولارَيْبَ فى أنه يُوجَدُ بينها مَنْ ذكاؤه بالنسبة إلى ذكاء الإنسان كذكاء الإنسان بالنسبة إلى ذكاء الحَشَرة .

وبما أن السلطان المطلق من خصائص العِلْم المطلق فإنه يجب أن تكون قدرةُ تلك الموجودات غيرَ محدودة ، وبما أنها تستطيع أن تَطَّلِع على الماضى

بسهولةٍ كالتى تطلع بها على المستقبل فإنها تَحُوز معارفَ لا نكاد نُبْصِرُ مَدَاها .

فنى سِرٍّ تلك المناطق البعيدة الذى لايُدْرَكُ يُمْكِنُ الإيمانَ الدينىَّ فى أيامنا أن يَضَع الآلهةَ الذين لم تَسْتَغْنِ الروحُ البشرية عنهم قَطُّ .

الفصل الثانى

حوادثُ الحياة

وأشكالُ الذكاء المجهولة

ليس للتاريخ أن يُعْنَى ببِنْية الموجودات التى يُسَجِّل أعمالَها ، ومع ذلك فإن من المفيد أن تُبَيِّن باختصارٍ طبيعةُ معارفنا عن حوادث الحياة والفكر التى يُشْتَقُّ منها جميعُ الأفعال البشرية وتفسيرها .

ومن العادة ألاَّ تُدْرَس ظواهرُ الحيـاة إلاَّ فى الحيوانات والنباتات ، كأنّ المولِدَ المَعْدِنىَّ يَبْقَى خارجَ دائرة الحياة .

وما كان هذا التميز ليَسْتَمِرَّ بفضل تقدم العلم .

أَلِّفَت الحياةُ من جُمْلةِ ترديداتٍ يُعَدُّ بعضُها ، كالحاسِّيَّة ، مشتركًا بين جميع الموجودات من الحجر حتى البَشَر ، على حين لا يشاهَدُ بعضٌ آخرُ منها ، كالفكر ، فى غير الموجودات العليا .

والحاسِّيةُ هى أبسطُ حوادث الحياة وأعمُّها ، فهى موجودةٌ فى كلِّ مادة ، وقد أثبتت الملاحظاتُ الدقيقة أن الأجسامَ البالغةَ الصلابةِ الفاقدةَ الحِسِّ ظاهراً ، كقضيب الفولاذ مثلاً ، تُرَدِّد بفعل ارتفاع الحَرِّ جزءاً من مليون درجة ، أى الحرارةَ التى تُحْدِثها شَمْعَةٌ موضوعة على مَسافة عشرة آلاف متر .

وحاسِّيَّةُ المادة هى نتيجةُ ملاءمةٍ سريعةٍ لتقلبات البِيئة التى تحيط بها ،

فعيْنُ الجسم يكتسب تحتَ مختلفِ تقلباتِ البيئة شكلاً مائعاً أو غازيًّا أو بِلَّوْريًّا أو غَرَوِيًّا ليلائمَ العواملَ الخارجية .

وكذلك يُمْكِن أن تُعَدَّ مَظْهراً حيويًّا للمادة حركةُ الجُزَيْئاتِ المركبةِ منها الذراتُ التى تؤلِّفها ، فكلُّ ذرةٍ تتألفُ ، مع صِغَرِها الذى لا حَدَّ له ، من جُزَيْئاتٍ تدور حَوْل مركزٍ كما تَدُور السَّيَّاراتُ حول الشمس ، وتلوح القطعةُ المؤلَّفةُ من صخرةٍ غيرَ متغيِّرةٍ ، وهى كذلك فى مجموعها لوقتٍ معين فى الحقيقة ، ولكنْ لا من حيث الأجزاء التى تتركب منها ما دامت تتأثَّرُ بأدنى تقلُّبات الجوِّ[1] .

* * *

ويَعْرِض العالَمُ النباتىُّ فى الحال الابتدائيـة ، وهو أعلى من العالَمَ

---

(١) يجد القارئ هذه المسائل التى يمكن أن تجتذبه مفصلة فى كتابى « تطور المادة » ، فقد انتهيت بمباحثى ، التى دامت عشر سنين فنشرت تفاصيلها فى ثمانى عشرة مذكرة ، إلى النتيجة القائلة ، خلافاً لجميع الآراء المسلم بها ، إن المادة مكونة من تكاثف جسيم للطاقة التى عينت درجة اتساعها ، وقد جاءت مباحث كثير من علماء الفيزياء مؤيدة لهذه النتائج التى ألقت حيرة فى البداءة ، وهى تلخص فى مقالة للأستاذ بوتاريك نشرتها الناتور فى ١٥ من أبريل سنة ١٩٢٩ ، وتشتمل هذه المقالة على الأسطر الآتية وهى : « إن تجارب روترفورد جاءت بدليل صريح مؤيد للفرضية التى أتى بها غوستاف لوبون للمرة الأولى والتى تنص على أن الذرات مبان متقلبة مشتملة على ذخيرة عظيمة من الطاقة الكامنة التى يمكن إطلاقها عند تحطيمها » .

وتدل مباحث علماء الفيزياء الحديثة على أن الذرة السابقة المركبة من عناصر بسيطة جامدة هى على العكس معقدة جداً .

ويتألف كل واحد من هذه العناصر من أجزاء كهربية سلبية صغيرة إلى الغاية تعرف بالإلكترونات الدائمة الدوران حول مركز كهربى إيجابى يعرف بالپروتون ، وذلك كالسيارات التى تدور حول الشمس .

ولذلك يكون أعظم جزء من الذرة فارغاً ، وقد حسب أنه إذا ما اقترب من النقطة التى يمكن جميع عناصر الذرات أن تتماس عندها وجد أن حجم الرجل الشاب الذى يزن مئة كيلوغرام يكون دون حجم رأس الدبوس بمراحل ، غير أن رأس الدبوس هذا يزن مئة كيلو غرام دائماً ، ويبدو أن هذا التقريب بين الذرات يتم فى نجوم كثيرة ، ولا سيما رفيق الأبرق .

ولذلك تكون كثافة المادة هنالك أعظم من كثافة الماء بخمسين ألف مرة .

المعدنىّ ببعض الترديدات ، حوادثَ يَتَجَلَّى تركيبُها فى العالَم الحيوانىّ فقط ، وهذا الاختلافُ فى الدرجة هو أصلُ الفرق بين العالَم المعدِنىّ والعالَم الحىّ .

ويَبْدُو عاملا الحركة العظيمان فى الحيوانات ، وهما اللذة والألم ، رسماً ابتدائيًّا فى العالَم النباتىّ .

فالنبات يبتعد عن الألم ويبحث عن اللذة عند ما يضايقه الظلامُ فيتغلَّب على عوائقَ كثيرةٍ ليَجِدَ شُعاعَ الشمس الذى يحتاج إليه والذى تقوم عليه هناءتُه .

وتقترن حوادثُ الحاسِّيَّة هذه بحوادثَ أخرى من ذات المرتبة كتلك المنازعات الابتدائية ، فى سبيل البقاء ، التى تشاهَدُ حَوْل جذور بعض الأشجار ، كالكَسْتَناء مثلاً ، حين تَسيرُ بعيداً لتُنَازِع النباتاتِ الأخرى فى التراب ماهو ضرورىٌّ لها من الموادِّ الغِذائية .

وقد ابْتُدِعَتْ كلمةُ « التَرُوبِيَّة[1] » للدلالة على تحويل هذه الظواهر إلى أفعالٍ آلية فى زمنٍ كان العلمُ يقيم فيه حواجزَ بين المادة والحياة ، غير أن تلك الكلمة تدلُّ على معلولٍ ، لا على علة .

و بين هذه الحواجز التى أقامها العلمُ فى أوائله كانت تَظْهَر الفروقُ التى أوجبها الخيالُ فى البُداءة بين الحيوان والإنسان ، واليومَ تزول شيئاً فشيئاً .

والمساواة بين الإنسان والحيوان تامةٌ من حيث الحياةُ العضوية ، وتتمُّ

---

(١) Tropisme

جميعُ وظائف الحياة الفِزْيُولوجية ، كالدورة الدموية والهضم والتنفس ، إلخ . ، لدى أحقر ذوات الثُّدِيِّ كما تتمُّ لدى الإنسان .

أَجَلْ ، إن الفرق بين الإنسان والحيوان كبيرٌ فى مِنطقة المشاعر والأهواء ، غير أنه ليس بعيدَ المَدَى ، وما يُسَيِّرُ الإنسانَ من غَـيْرَة وحقد وحُبّ وأهواءٍ أخرى يُوَجِّهُ الحيوان أيضاً .

والحياةُ العقليةُ وحدَها هى الفارقُ بين الحيوان والإنسان ، والمسافةُ بينهما فى مِنطقة الحياة العليا هذه هى من الاتساع ما يُفَسَّرُ به اعتقادُ الإنسان أنه مَوْضِـعُ خَلْقٍ خاصّ .

* * *

وتتخذ المادة شكلاً خَلَوِيًّا دائماً لتكون حيةً ، ففى باطن هـذه الخلايا تتحول الحرارة والـكهربا ومختلفُ القُوَى التى يَمِـيرُها الهواء والأغذية إلى طاقاتٍ لا بُدَّ منها لنشر الحياة .

ويَسِيرُ بعضُ القُوَى ، التى تتألَّفُ الحياةُ العضوية منها ، مِثْلَ عواملَ عُمْيٍ كالجاذبية ، وعلى العكس تَبْدُو قُوًى أخرى مُدَبِّرَةً ، ببصيرةٍ عجيبة ، أعمالاً أعلى ، بما لا حَدَّ له ، من التى يُمْـكن أن يُدْرِكها ، لا أن يُحَقِّقها ، أرقى العقول ، وهى إذا ما قيست بمستوى مداركنا البشرية دَلَّتْ على ذكاء مُدَبِّرٍ خارقٍ للعادة .

ويَظْهَرُ أن ذكاءً عالياً يُدِيرُ العملَ الخَلَوِىَّ ، وما كان لعالِمٍ ، ضِمْنَ نِطَاق العلم الحاضر ، أن يَفُكَّ مُعْضِلاتِ الفيزياء والـكيمياء الهائلةَ التى يُوجَدُ لها حَلٌّ بالخلايا الوضيعة فى كلِّ ثانية .

ويُمْكِنُ أن يقاس أيٌّ من ذوات الثُّدِيِّ بمصنعٍ واسع مشتمل على مليارات كثيرة من الخلايا المِكْرُسكوبية يُمَثِّلُ كلٌّ زمرةٍ منها جمعيةً من العمال النُّشَطَاء[1] ، وقد وُضِعَتْ هذه الزُّمَرُ تحت إدارةِ مراكزَ عصبية يُمْكِن أن تُسَمَّى مراكزَ الإدراكِ الحيويِّ .

وتَقُومُ كلٌّ واحدةٍ من هذه الزُّمَر الخَلَوية بوظائفَ مختلفةٍ مُعَينة تماماً ، وتَصْنَع جموعٌ من صغار الكيماويين بينها ، بلا انقطاع ، مُرَكَّباتٍ مُعَقَّدةً فتُوَزِّعُها أخرى حفظاً للأعضاء .

والعملُ داخلَ المصنعِ العادىِّ سهلٌ ، وذلك لأن كلَّ عاملٍ يقوم بذاتِ الأعمال دائماً ، وأما فى المصنع الحَىِّ فعلى العامل أن يُغَيِّر عمله باستمرار تَبَعاً للأحوال ، ومن ذلك أن حيواناً إذا ما حُقِنَ بسُمٍّ ما أَمَرَتْ مراكزُ عصبيةٌ مجهولةٌ بعضَ الخلايا بصُنْعِ مُرَكَّبٍ يُسَمَّى أَنْتِيكُور ويختلف باختلاف طبيعة السموم التى يجب أن تُدْفَع .

وهكذا نفترض فى الخلايا الحية وجوهَ معرفةٍ أسْمى من ذكائنا بمراحل ، ولكن مع الاقتصار على أغراضٍ معينة .

ولا يزال نظام هذه القُوَى مجهولاً لدينا جَهْلَنا لطبيعة القُوَى التى تُفَجِّرُ من الخلايا الدماغية مبانىَ من الفكر خارقةً للعادة .

* * *

---

(١) عدد هؤلاء العمال الصغار يثير العجب ، ومن ذلك أن عدد كريات الدم يترجح بين أربعة ملايين وخمسة ملايين فى كل مليمتر مكعب ، فبعد أن تقطع ما بين القلب ومختلف الأعضاء من مسافة فى مرات تترجح بين ٤٠٠٠٠٠ و ٥٠٠٠٠٠ تكون قد ختمت حياتها فى الطحال وقامت مقامها كريات جديدة .

ويدلُّ علم الأَجِنَّة وعلمُ المُسْتحاثات على أن الأشكال الحاضرة عُيِّنَتْ بحالاتها السابقة ، فوجودُ كلٍّ فرد يَبْدَأُ بخَلِيَّة مماثلة للتى كانت نقطةَ بدء الحياة فى الماضى البعيد ، ولكن مع الفارق القائل إن الطريقَ التى وَجَبَ مرورُ أكداسٍ من القرون لمجاوزتها تُقْطَعُ فى أسابيعَ قليلةٍ فى رَحِمِ الأمِّ ، ولا يَفْعَلُ الموجودُ فى حاله الجَنِينية غيرَ رَسْمِ أشكالٍ متوسطةٍ ثَبَتَ أمرُه بها فى أثناء حياته الموروثة عن الأجداد .

وليست هذه العواملُ الخفية المسيطرةُ ، التى تَحْكُم على العالمَ بأن يتحول دائماً ، غيرَ مظاهرَ منظورةٍ لضروراتٍ غيرِ منظورة ، لطبقةٍ مجهولةٍ من الأمور تَجْمَعُها كلمةُ الطبيعة .

ومع أن جميع الملاحظات التى يشتمل عليها هذا الفصلُ تبتعد عن فلسفة التاريخ ظاهراً فإنها ترتبط فيه ارتباطاً وثيقاً ، وهى تدلنا على مقدار ماوجب تراكمُه من الأزمان حتى انتقلت ذراتُ السديمِ الابتدائىِّ ، الذى يُشْتَقُّ منه عالَمنا ، من الحياة المعدِنية إلى الحياة المفكرة مقداراً فمقداراً .

الفصل الثالث

أصلُ نشاط الموجودات
حياةُ الحيوان والإنسان غيرُ الشاعرة

يُمكِن أن تُرَدَّ عِلَلُ نشاطِ الموجودات إلى واحدة ، وهى الرَّغبةُ فى بلوغ اللذة واجتناب الألم ، وليس من العَبَث ، إذَنْ ، أن يُدْرس تأثيرُ العناصر النفسية المُحَرِّكة لأفعالنا فى كتابٍ خاصٍّ بالتاريخ .

وقد يَبْدُو هذا الزعمُ حَوْلَ المبدإِ الأوَّلِيِّ لكلِّ نشاطٍ ثقيلاً أولَ وهلة ، وذلك لمختلفِ المعانى التى تُعْزَى إلى كلمتى اللذة والألم .

حَقًّا ، يُمْكِن أن يعارَض ذلك بأن الإنسان لا يُعْنَى بالمرض المُعْدِى ، وبأنه لا يُلقِى نَفسَه فى الماء أو النار إنقاذاً لصِنْوِه ، عن لذةٍ ، غير أن كلمة اللذة تدلُّ فى هذه الحال ، كما فى سواها مما يماثلها ، على راحة يُشْعَرُ بها ، فى الحقيقة ، عند تلبية أحدِ الواجبات ، وعلى العكس يكون الألمُ عند الامتناعِ عن القيام بذلك .

وكذلك لا يُرَى ، أولَ وهلةٍ ، أىُّ دَوْرٍ يُمْكِن أن تُمَثِّلَه اللذةُ فى عملِ احتضان البَيْض الذى يُكلِّف الطيرُ نفسَه به ، ولا يُرَى أكثر من ذلك فيما تحتمله الحَشَرَة من مشقةٍ لإعداد غِذاء الدُّودة التى تَخْرُج من بَيْضةٍ لا تراها تُنْقَف[1] .

---

(١) نقف الفرخ البيضة : نقبها وخرج منها .

والحقُّ أن الغريزة التى تدْفَع إلى مثل هذه الأفعال هى رغبةٌ ثَبَت أمرُها بالوِراثة ، فيقوم الألم على عدم الخضوع لها .

فاللذةُ والألم ، إذَنْ ، أصلُ جميع التلقينات التى تُشْتَقُّ منها أفعالُ العالَم الحىِّ ، ويتوقف طَبْعُ هذه التلقيناتِ الحتمىُّ على درجة تطور الموجودات ، وهى ما يَخْضَعُ لها الفطرىُّ من فَوْره ، أى من غير تفكير ، وذلك كما صَنَع عِيسُو حين باع حَقَّ البِكْرِيَّة بطبقٍ مُجَهَّزٍ من العدس ، وتُعَلِّمُ الحضارةُ ترويضَ الاندفاعات الضارة معارِضةً قضاءَ رغبةٍ حاضرة بصورة نتيجةٍ بعيدة .

وإذا قَضى إلهٌ قادرٌ على اللذة والألم زالت الحياة عن وجه الأرض بسرعة ، فلا يَقْدِر أىُّ داعٍ ، ولو كان عقليًّا ، على إخراج الموجود الحىِّ من جمودٍ خَلِىّ يَكُون الموتُ نتيجتَه المقدَّرة إذا عاد لا يَعْرِف الجوعَ ولا العطشَ ولا الحُبَّ ولا أىَّ دافعٍ إلى العمل .

* * *

ومع أن القياساتِ بين حياة الموجودات العضوية وحياةِ المادة على شىء من التباعد فإنه يُمْكِن أن يقال ، عند النظر إلى أن الرغبة جَذْبٌ والألمَ دفعٌ ، إن هذين الحادثين يشاهَدان فى العالَم المادىِّ ، والواقعُ أن القُوَى الفِزْيَوِيَّة ، كالثِّقَل والحرارة والكهربا ، تتجلَّى بالجَذْب والدفع فى باطن المادة ، وبالجَذْب والدفع يُمْكِن أن يُعَبَّر كذلك عن قِوَامَىِ العالَم ، وهما : الحركةُ ، أى القوة ، ومقاومةُ الحركة ، أى السكون .

ومع ذلك لا ينبغى أن تُدْفَع هذه القياساتُ إلى مَدًى بعيد .

ومع ذلك فإن من قلة المعرفة بحياة الموجودات أن يُقْتَصَرَ على دراسة عناصر نشاطها الأساسية ، فاللذةُ والألم يُمْكِن أن يَصْدُرا عن طائفةٍ من العلل ، وهذه هى العللُ المختلفة : الاحتياجاتُ والأهواء والمشاعر التى يَجْدُر أن تُعْرَف إذا ما أريد تعيين أصول الحوادث التى تتألف منها لُحْمةُ التاريخ .

* * *

كان علمُ النفس القديمُ يقتصر على دراسة العقل الواعى فلم يبالِ بالعواملِ غيرِ الشاعرة التى هى ، بالحقيقة ، مصدرُ جميع أفعال الحيوان حتى الإنسان ، وكان ذلك العلم يَفْصِلُ الغريزة عن العقل فصلاً تامًّا ، وكانت قد ابْتُدِعت إحدى النظريات الدينية التى لا يزال العلم مملوءاً بها تفسيراً لسَيْر الحيوانات ، وذلك أن الطبيعة العَطُوفَ أنعمت عليها بقابلية خاصة ، أى بالغريزة التى تَسِيرُ بها من غير عقل ، وكان يُفرَّق بين الغريزة والعقل مع القول بأن الغريزة تنطوى على نظامٍ يَحْمِل الحيواناتِ ، دائماً ، على القيام بالأمور نفسِها على وجهٍ ثابت لا يتغير ، وكان كثيرٌ من العلماء ، ولا سيما دِيكارْتُ ، يَعُدُّون الحيوانَ آلةً بسيطة تُكرِّرُ الأفعال نفسَها بلا بصيرة ومن غير أن تستطيع تبديلها .

ونظريةٌ مثلُ تلك مما لا يُمْكِن الدفاعُ عنه فى الوقت الحاضر ، فإذا ما نُظِرَ جيِّداً إلى الحيوانات المترجحة بين أرقى ذوات الثُّدِىِّ وأحقر الحَشَرات وُجِدَ أنها تُغيِّرُ أفعالَها وَفْقَ ما تَهْدِف إليه من غَرَض ، وهذه هى صفةُ العقل البارزة التى تناقِضُ الغريزةَ الآلية .

واعتقد كثيرٌ من علماء الطبيعة أن من الممكن عَدَّ الغرائز متراكماتٍ

بسيطةً ورِاثية ، ومن الأحوال كثيرٌ لا يستطيع هذا التفسير أن يُنيرَه ، ومنها تلك البصيرةُ البارعة التى تُصِيبُ بها بعضُ الزنابير حَشَرَاتٍ أخرى بالفالج فلا تُبْدِي حَراكاً ، وتَظَلُّ هكذا حتى تَبْلُغَ دودُ الزنابير من النموِّ ما تغتذى معه بها .

أَجَلْ ، يُمكِن أن تُوصَف أفعال هذه الطبيعة بالغريزية تماماً ، بيد أنه يوجد من هذه الأفعال ما يختلف سَيْرُه وَفْقَ الأحوال فيُبْدِي من الصفات الأساسية ما هو خاصٌّ بالعقل من حيث النتيجةُ ، وهذا ما جَعلَ بعضَ علماء الطبيعة ، ولا سيما الأستاذُ بُوفْيِه ، يقول إن الحشراتِ تَعقِلُ كالإنسان ، وأصحُّ من ذلك أن يُفْتَرَض ، بالحقيقة ، كونُ الحيوان لا يَعقِل كالإنسان ، ولكنه يَمْلِك من طُرُز المعرفة ما يختلف عن طُرُزنا ، وتلك هى التى تُعَيِّن سلوكَ بعضِ البَعُوض ، ولا سيما بعوضُ البلاد الشمالية ، فأُنثاه تحْفَظ بَيْضَها أسابيعَ كثيرةً ، عن تَوْرِيصٍ[1] ، إذا لم تتصرف بماء كاف تَضْمَن به حياةَ صِغَارِها ، ولذا يكون وَضْعُ البَيْض لديها أمراً اختياريًّا ، وهكذا يُنْظَرُ إلى مصلحة النوع البعيـــدة فقط ، وكذلك طبائعُ النحلِ لا تَدْخُل ضِمْنَ نطاق التعاريف القديمة ، وذلك لأن النحل لا يُغَيِّرُ مناهجَ بنائه وادِّخارِ غذائه على حسب الإقليم فقط ، بل يتصف ، أيضاً ، باستعدادٍ عجيب لتغيير جنس دُوده كما يريد بتغييره تركيبَ غذائه كيماويًّا ، وإذا حَدَث ما تُحْرَم به خَلِيَّةُ النحل مَلِكتها قَدَّم النحلُ من الغِذاء ما يُحَوِّل به دُودَةً إلى مَلِكة جديدة .

والملاحظاتُ التى هى من هذا القَبِيـل كثيرةٌ ، ومنها يُعْلَم أن الغريزة عادت لا تُعَدُّ ضَرْباً من الخصائص الثابتة التى تُنْعِمُ الطبيعةُ بها على الحيوانات

---

(١) ورصت الدجاجة : وضعت البيض بمرة .

عند خَلْقِها ، فهى قِسمٌ من تلك القُوَى غيرِ الشاعرة التى يُمكِن أن تشاهَد عند الحيوان وعند الإنسان ، قسمٌ من تلك الخصائص التى أخذ العِلْم يَتَمَثَّلُ أهميتَها فقط .

* * *

ويَظْهَر أنه يمكن تقسيمُ الحيــاةِ غيرِ الشاعرة إلى لاشعورٍ عضوىّ ولاشعورٍ فِزْيوىّ .

ويُبْدِى اللاشعورُ العضوىُّ نشاطاً فائقاً ذا طبيعةٍ مجهولةٍ تماماً ، ويقوم بوظائفَ حيويةٍ كالدورة الدموية والتنفس والهضم ونشوء الأعضاء ، إلخ . ، ومايؤدى إليه من أفعالٍ هو من التعقيد ، كما ذكرنا ، مالم يَرَ العالَمُ معه ، بَعْدُ ، ظهورَ عِفْريتٍ قادر على إدراكه .

ويَبْدُو اللاشعورُ الفِزْيَوىُّ ، المجهولُ فى جوهره كالسابق أيضاً ، أساساً للوظائف الذهنية ويَدَّخر عملَها ، وتُشْتَقُّ كلُّ تربيةٍ من الانتفاع به ، وهو ، لِماَ يتصف به من جَمْعِ الانطباعات وحفظِها ، يُزَاوَل به كثيرٌ من الأمور بلا جُهْدٍ بَعْد تَعلُّمها بجُهْد ، ولذلك تكون التربيةُ فَنَّ إدخال الشعورىِّ إلى اللاشعورىِّ كما حاولتُ بيانَ ذلك فى كتابٍ آخرَ .

ومع أن العلم لم يَتَقَدَّم كثيراً فى دراسة اللاشعور فإنه يُقرِّر بالتدريج أنه يَنْضَج فى هذا الحقل عواملُ كثيرٍ من الأفعال التى كانت تُعْزَى إلى العقل وحدَه ، وفى كتابٍ آخرَ شَبَّهْتُ الحيــاةَ العقلية الخالصة بتلك الجُزَيِّراتِ البارزةِ على سطح البحار المحيطة ، فلا تكون فى الغالب غيرَ ذُرًى لجبالٍ عظيمة مغمورةٍ بالبحار ، فالجبــالُ العالية غيرُ المنظورة تُمَثِّلُ اللاشعورَ ،

وتُمَثِّلُ الذُّرَى الصغيرةُ التى لا تكادُ تُرَى تلك الحياةَ الشاعرة .

وتَتَجَلَّى أفضليةُ الإنسان البالغةُ على الحيوان فى كونه استطاع أن يَخْرُجَ قليلاً من الحياة الغريزية اللاشاعرة التى ظَلَّ هذا الأخيرُ غارقاً فيها ، وهو إذا ماخَرَجَ منها كان ذلك ناقصاً ، وليس لزمنٍ طويل مطلقاً .

والحضارةُ تَنْفَعُ فى زَجْر التلقينات اللاشعورية التى تَضُرُّ الفردَ والمجتمع ، والدساتيرُ ، ولا سيما الدينيُّ منها ، تُجَهِّزُ برسومٍ باطنية رادعة ، أى بتلقيناتٍ ثابتة قادرة على زَجْر التلقينات المتقلبة التى تُحَرِّكها الشَّهَوات .

* * *

ويسيطر على تاريخ الأمم ما بين اندفاعات الحياة العاطفية اللاشعورية ومؤثِّرات الحياة العقلية الشعورية من صراع ، فمن الحياة العقلية تَتَفَجَّر عجائبُ العِلْم التى تُعَيِّن تقدمَ الحضارة ، ومن الحياة الغريزية تولَد الشهواتُ وجميعُ المنازعات التى تُزْعِج حياةَ الأمم ، وسَيَبْقى الأمرُ ، لا رَيْبَ ، هكذا حتى اليوم الذى تَتَخَلَّصُ الإنسانيةُ فيه من الحياة اللاشاعرة الوِراثية فتَبْلُغ من التطور الكافى ما يكون العقلُ معه مسيطراً ، ولم تُبْلَغْ هذه المرحلة بَعْدُ ، ولذلك يشتمل التاريخ على قليلٍ من الحوادث التى أوحى بها العقل المَحْض ، أَجَلْ ، إن الإنسان أقام مَبانىَ وعَيَّن سيرَ النجوم ، غير أن تأثير المنطق العقلىّ ظلَّ ضعيفاً دائماً فى الأعمال التى تتألَّف منها حياةُ الأمم .

وها نحن أولاء بعيدون جدًّا من المبدإ القائل إن الحياة اللاشاعرة وَقْفٌ على الحيوانات ، ويكفى أن يُنْعَمَ النظرُ ليُرَى أنه يتألف منها أساسُ حياتنا الفردية والاجتماعية ، فمن العادات اللاشعورية تُشْتَقُّ أخلاقٌ حقيقية ،

ويقوم ثباتُ الحضارة على عاداتٍ أصبحت لاشعورية .

وتُمَثِّلُ هذه العاداتُ دوراً عظيماً فى حياة المجتمعات ، وهى تُوجِدُ وَحدةَ الفكر والعمل اللذين لا يُمْكِن أن تدوم بغيرهما حضارة ، فمتى خَسِرَتْ أمةٌ ما يوجِّهُ نشاطَها من عاداتٍ ارْتَجَّتْ وَفْقَ المصادفة وسقطتْ فى الفوضى ، ولولا العاداتُ اللاشعورية التى وَجَّهت حياة البشرية ما كان لها تاريخ .

الفصل الرابع

تقلب الذاتيات الفردية والجماعية

يُعَدُّ ثباتُ الذاتية من المبادئ النفسية التى توشك أن تزول .

وكانت تُفْتَرَضُ هذه الذاتيةُ وحيدةً ، فأخذت تَبْدُو بالتدريج مُنَوَّعةً مركبةً من عناصرَ يَمْنَحُها ثباتُ البِيئة وحدَهُ وَحْدةً ظاهرةً .

وكان يَبْدُو مبدأُ ثبات الذاتية القديمُ سائغاً بإظهار كلِّ فردٍ عدداً من الترديدات التى تُكَرَّر فى الحياة العادية من غيرِ كبيرِ تغييرٍ ، ومما لاريب فيه أنه كان يلاحَظُ ما يطرأ على طبع الفرد عينه من تَقَلُّبٍ ، ولكن جهلَ طبيعةِ هذا التقلبِ وما يَصْدُر عنه هذا التقلبُ من عواملَ حقيقيةٍ كان يوجب وصفَه بكلمة « الأهواء » الغامضة .

وكان الوَهْم حول الذاتية الثابتة يقوم ، أيضاً ، على الوَهْم حَوْل ثبات الجسم ظاهراً ، والواقعُ أن الذاتية الفِزْيَوِية التى تَصْلُح أن تكون إطاراً للذاتية الخُلُقية تتحول بشىء من البطء لتوحِيَ بطابع الثبات .

وفى الحقيقة أن الذاتية البدنية تتحول دائماً ، وينشأ ثباتُها الوهمىُّ عن نَقْصٍ فى وسائل ملاحظتنا فقط ، فلا بُدَّ من انقضاء سنين على العين البشرية لتحقيق ماتدلُّ عليه آلةٌ دقيقةٌ فى بضع دقائق .

وسواء علينا أنظرنا إلى الذاتية الفِزْيَوِيَّة أم إلى الذاتية الخُلُقية لا

نُبْصِر الموجودَ عينه مرتين ، ومانَعْرِفه عن الناس الذين يحيطون بنا وما يَعْرِفه هؤلاء الناسُ أنفسُهم يَنِمُّ على ذاتياتهم الممكنة فقط .

ومع ذلك فإن من المحقَّق كونَ هذه التقلبات لا تزيل تأثيرَ الوِراثةِ الثابتَ ، فكلُّ خَلِيَّةٍ جديدة وارثةٌ لخليةٍ سابقة ، وهى تحتفظ بعددٍ من خصائصها كَرْهاً ، وهذه العناصرُ الموروثة تَمْنَح الفردَ خصائصَ جِبِلِّيَّةً يَكُون بعضُها مشتركاً بين جميع الموجودات فى الفصيلة عينِها أو العِرْقِ عينهِ .

وتكون تقلُّباتُ الذات محدودةً لدى الأمم التى ثَبَت أمرُها منذ زمن طويل بمصالحَ ومعتقداتٍ مشتركة ، ومن ثَمَّ يَحُوز الإنكليزُ أو الألمان أو الفرنسيون ، إلخ . ، فى بعض المسائل ، مجموعةً من المشاعر والأفكار المشابهةِ لِماَ عند مواطنيهم ، ولكن مع اختلافها اختلافاً بَيِّناً بين أمةٍ وأخرى ، وتتحوَّل الذاتيةُ باستمرارٍ لدى الأمم التى لم يَثْبُتْ أمرُها ، كالصّقالبة مثلاً .

وإذا عَدَوْتَ هذا الثباتَ العميقَ فى بعض عناصر العِرْق وجدتَ كثيراً من تحوُّلات الذاتية يقَعُ بلا انقطاعٍ فى أثناء الحياة اليومية ، حتى إنه يُمْكِن أن يقال إن الفردية اليومية تختلف باختلاف الحوادث وعلى حسب الموجودات التى نعاشرها ، وتُعَيِّن نفسيةُ هذه الموجودات نَفْسِيَّتَنا كما تؤدى تقلباتُ الجَوِّ إلى تقلبات مقياس الحرارة .

وتُعِينُ هذه الملاحظاتُ على إيضاح حوادثَ تَظَلُّ مُبْهمةً بغيرها ، ومن ذلك أننا إذا ما أبصرنا فى ذاتِ النهار ذاتَ الشخص يأتى باقتراحاتٍ متفاوتةِ القيمة أيقنَّا ، على الرغم من الظواهر ، بأننا كنا بالتتابع أمام

موجودينْ مختلفينْ لا يشتركان فى غير الصورة .

* * *

وتَتَوقَّفُ علةُ تقلباتِنا الرئيسةُ على تَحَوُّل صُوَرِنا النفسية ، فعنها تصدر آراؤنا ومَسَرَّاتُنا وآلامنا ، ويكون أعظمُ محسنى الإنسانية ملائـكةً قادرين على منح الناس قوةً يبتدعون بها ، كما يشتهون ، صورَ سعادةٍ نفسيةً بالغةَ التأثير كالتى توجبها الحقائق ، وإذا ما أُقْنِعَت الموجوداتُ بذلك على هذا الوجه غَدَتْ تامةَ السعادة لِمَا يَلُوحُ من تحقيق أحلامها ، فهى تصير مساويةً لأقوى الملوك من فوْرها وتَسْكُن أزهى القصور كما تشاء .

ولم يُحَوِّلْ جميعُ مؤسِّسِى الأديان ، كبُدَّهَه (بوذا) وعيسى ومحمد ، إلخ . ، العالَمَ إلا لأنهم أنعموا على الناس بقدرةٍ يبتدعون بها صوراً نفسية قريبةً من التى تَصْدُر عن الحقيقة ، غير أن هذه الصور كانت موصوفة ، ومن ثَمَّ حتمية ، ما جَعَلت النفسَ مذبذبةً بين شقاء دائم ونعيم جازم ، وكثيرٌ من الناس لَبَّوْا صُوَراً نفسية فَضَحَّوْا بحياتهم نَصْراً لأوهام كانت تسيطر عليهم .

يُمْـكِن أن يُسْتَنْتَجَ مما تقدم كونُ الصورة النفسية لها من التأثير ما للحقيقة وأنها تستطيع إبداعَ ذاتيةٍ جديدةٍ فجأةً .

* * *

يوجد لذاتياتنا المُنَوَّعة مصادرُ مختلفةٌ ، وهى : (١) عناصرُ الأجداد المنتقلةُ بالوِراثة ، (٢) العناصرُ المكتسبة أو المفروضة من البِيئة والتربية ، إلخ .

وتُشْتَقُّ من العوامل الإرثية المُقَدَّرة صفاتُ الخُلُق البالغةُ الثبات كَرْهاً والتى تُوجب قوةَ الأفراد أوضعفَهم كما توجب قوةَ الأمم أو ضعفَها ، وتَبْقَى

ذاتيةُ الأجداد مجهولةً من قِبَل الذاتية المكتسبة وإن أمكنها أن تنازعها ، ويُعَدُّ كلُّ موجود حَيٍّ مقبرةً يرْقُد فيها أجدادٌ كثيرٌ ليُفيقُوا أحياناً ويُبْدُوا عزائمَ متجبرةً .

وبما أن نفسيتَنا المكتسبةَ ، التى ثَبَتَ أمرها بالتربية والبِيئة والمعتقدات الدينية ، إلخ . ، ما استطاعت ، لم تَحُزْ صلابةَ الروح الموروثة عن الأجداد فإنها تكون عرضةً لتقلبات عظيمة ، والواقعُ أن الذاتية الخُلُقية ، وهى تُمَثِّلُ ترديداً لمُرَكَّبَاتٍ من ذاتيتنا وذاتية الأشخاص الذين تَقَعُ معهم علاقاتٌ ، تَبْدُو متحولةً ، على الخصوص ، من الحين الذى تُضْطَرُّ فيه إلى ملاءمةِ حوادثَ مفاجئةٍ .

ويكون التاريخ ، فى أثناء الأَزَمات الاجتماعية الشديدة ، مملوءاً بتلك التحولات المفاجئة ، ومن ذلك أن أبطال الثورة الفرنسية السَّفَّاحين الذين سَلَبُوا ضرائحَ الملوك وقطعوا رؤوسَ المئات كانوا فى الأوقات العادية من البُرْجوازية المسالمين ، كانوا من القضاة والمُوَثِّقِين والمحامين إلخ . ، فلما سكنت الزَّوْبعة لم يَفْقَهُوا شيئاً من الأعمال التى اقترفوها ، وكيف كان يُمْكِنُهم أن يُدْرِكوا أمرها بعد أن عادت الذاتيهُ المؤقتة ، التى حملتهم على إتيان تلك المُنْكَراتِ غيرَ موجودة ؟

وتحولاتٌ نفسيةٌ عظيمةٌ كتلك لا تُلَاحَظُ فى أثناء الانقلابات التاريخية كالحروب أو الثَّوْرات فقط ، بل يُمْكِن أن تَظْهَرَ ، أيضاً ، بفعل معتقَدٍ دينيٍّ قويٍّ جدًّا أو بفعل أهواءٍ شديدةٍ كالحبِّ مثلاً ، وليست الأقوالُ ، بل الأفعالُ ، هى التى تَكْشِفُ ، إذ ذاك ، عن ذاتية الساعة .

وتَنشأُ عن مُعظَم الأديان تحولاتٌ مفاجئةٌ فى الذاتية بالغةٌ من الشِّدَّة ما يكفى لحَمْلِ المؤمنين على التضحية بحياتهم نَصْرًا لمثلهم الدينىِّ الأعلى .

وتملأُ الذاتياتُ المفاجئة ، التى تَظْهَر بفعل الحُبِّ ، حياةَ مجتمعاتنا أيضاً ، فيُنْتَفَعُ بها من قِبَل واضعى المآسى فى جميع الأزمنة ، ويَصْدُرُ عن كثيرٍ من المؤلفين أمثلةٌ بارزة عن نظرية تعدد الذاتيات مع جهلهم إياها ، ومن ذلك ، على الخصوص ، قصةُ سيدةِ أَفَسُوس المُخَلَّفَةُ عن العالَمَ اليونانى الرومانى القديم والمُفَسَّرَةُ فى الغالب من قِبَل پِتْرُون حتى لا فُونْتِن ، ومن ذلك ، أيضاً ، روايةُ ريشَارْد الثالثِ لشكسبير التى تُرَى فيها سيدةٌ شريفة تَنْسَى فى بضعِ دقائقَ مشاعرَ حقدها على قاتل زوجها المعبود الذى لم يَزَلْ تابوتُه قائماً حواليْها .

* * *

وتقلُّباتُ الذاتيةِ تلازمها تقلباتٌ فِزْيُولوجية دائماً .

وكنتُ ، منذ حينٍ ، قد صنعتُ عِدَّةَ آلاتٍ ، أنْشُرُ صورةَ بعضها هنا ، لقياسِ هذه الأخيرة ، والمناهجُ التى تُسْتَعْملُ هى من التفصيل ما لا نرى معه بيانَها هنا ، فبها يَتَّضِحُ تَحَوُّلُ الذاتية البالغ[1] .

والذاتيةُ ، فضلاً عن هذه التقلبات العادية ، تتحول فى جميع الأحوال

(١) يعرض بعض ترديدات النظام العصبى (التى قيست بالشوكة المرنة المسجلة للجزء الواحد من المئة) حالا من التقلب ما يسفر معه القياسان المتتابعان عن أرقام يمكن أن تتحول من البسيط إلى المركب تقريباً ، وقد قدم عن ذلك مثال بدوام الزمن الضرورى للنظام العصبى حتى يقاوم أحد المهيجات ، ويعرض قياس المعادلة الشخصية ذات التقلبات ، ومع ذلك فقد شاهدت ثباتاً عظيما فى معدل الملاحظات المتعاقبة ، وذلك على أن يقوم هذا المعدل على نحو خمسة عشر من الأرقام .

ويؤدى أقل اضطراب إلى تقلبات كبيرة فى الذاتية البيولوجية ، ولا سيما الضغط الشريانى ، ومع ذلك فإن هذا الموضوع هو من الاتساع العظيم ما لا يمكن حتى الإلمام القليل به هنا .

المَرَضية نتيجةً لبعض الانحرافات فى العناصر العصبية ، فهذه الحادثاتُ الناشئةُ عن أصلٍ مَرَضيّ تشَاهَدُ فى أدوار التاريخ المضطربة على الخصوص ، وذلك لدى التَبَعة المجاورين لحدود الحماقة ، فهم يَضْرِبون الرُّصَّادَ الذين يبالغون فى تأثيرها غالباً ٠

ويجب أن يُنْتَفَع بنتائج هذا النَّهْج ، ولـكن بتحفظٍ ، فى تفسير الحوادث وفى دراسة رجال التاريخ دراسةً نفسية .

ومن المؤرخين ، مِثْل مِيشْلِه ، من أسهبوا كثيراً فى بيان هذا النَّهْج ، وقد بالغ پَسْكالُ بعضَ الشيء حينما قال مؤكِّداً إن العالَمَ كان يتغيَّر لوكان أنفُ كليُوپَاترةَ أقصرَ مما هو عليه ، وإن النصرانية كانت تُخَرَّب لولا حَبُّ الرمل فى مثانة كرُومْويل ، ومع ذلك فإن مما لا يُنْكَرُ كونَ تغَيُّراتِ الذاتية تَغَيُّراً مَرَضيًّا قد مَثَّلَتْ دوراً عظيماً فى سلوك كثيرٍ من الملوك ، فاذْهَبْ من قياصرة الرومان إلى شارْلـكِن فإلى فليپ الثانى الإسپانىّ تجِدْ أمثلةً كثيرة على ذلك ، وذلك إلى أن من الممكن جِدًّا أن يكون مِثْلُ هذه الانحطاطات قد أدى إلى مشاريعَ زَيَّنَتْ تلك العهود ، وفى أيامنا اتَّفَقَ لبعض الحركات الشعبية ، كالبُلْشِفية فى روسية والشيوعية فى فرنسة ، على الخصوص ، دُعَاةٌ ممن تَغَيَّرت ذاتيتُهم تغيراً عميقاً بعواملَ مَرَضيةٍ .

وتكون تقلباتُ الذات ، التى تلاحَظ لدى الأفراد وهم منعزلون ، أبرزَ من ذلك كثيراً فى الجموع ، كالاجتماعات الشعبية والبرلمانات ومجالس الحرب ، إلخ . ، فهنالك تتَكَوَّن فى كلِّ زمرةٍ روحٌ عابرة كنتُ قد بَيَّنْتُ أوصافَها عند ما درستُ روحَ الجماعات .

وبَيْنَ أظْهَرِ ما تتصف به هذه الذاتيات الجَمْعية الموقتة نَعُدُّ سرعةَ التصديق وعدمَ التسامح والعنفَ وتعذرَ السَّيْر بلا نفوذِ زعيم ، وما للجماعة من حالٍ نفسية يُعَبِّدُ ذاتيةَ كلِّ عضوٍ فى هذه الجماعة تعبيداً تتحوّل به تماماً ؛ فيُمْكِنُ المُسَالِمَ ، حينئذٍ ، أن يصبح مفترساً والبخيلَ مبذراً ، إلخ .

وتُمَثِّلُ الذاتيةُ القومية ذاتيةً جَمْعيةً ثَبَتَ أمرُها بعواملَ شَتَّى ، وهى : المعتقداتُ الدينية والأخلاقُ والعادات ، إلخ . ، ومن بين مختلف العناصر التى تُعَيِّن تاريخَ إحدى الأمم تَجِدُ ذاتيتَها القومية ، التى تنطوى على ذاتية قادتها وذاتية مَقُوديها ، تُعَيِّن مجرى مصيرها تعييناً وثيقاً .

البَابُ الثّانى

تفَاسِيرُالتّاريخ المختَلفَة

الفصل الأول

مبادئ التاريخ الروائية واللاهوتية والفلسفية

كان قدماء المؤرخين ، كهيرُودُتُس ، قليلى الاكتراث لصحة الحوادث ، وكان شأنهم مقتصراً على استنساخ ما يَسْمَعون من أقاصيص ، وكانت هذه الأقاصيص تتألَّف حَصْراً من ذِكْرَياتٍ باقيةٍ فى ذاكرة الناس ، والتاريخُ ، إلى وقتٍ حديث ، تألَّف من شهادة المعاصرين فقط .

ولم تَبْدُ أُولَى الكتب عن تاريخ رومة وأثينة ، ولا سيما تآليفُ بلُوتارك وتِيطُس لِيڤيُوس ، أكثرَ دقةً ، وإن وُضِعَت بعد يسوع ، فمن هذه المؤلَّفات يُعْلَمَ ، على الخصوص ، أن إينه ، بنَ أَنْشِيزَ وڤِينُوس ، الفارَّ من خرائب تِرْوَادة زار لَسْيُوم وتَزَوَّجَ ابنةَ ملك لاَتِينُوس ، وأن هِرْكُول هَجَم عَلَى أَڤِنْتِن ليقتل اللصَّ كاكُوس ، وأن رُومُولوس ورِيمُوس أُرْضِعَا ذِئبةً ، وأن أَرَاسْيُوس كُوكْلِس دافع وحدَه عن جسر سُبْلِسْيُوس تجاه جيشٍ كامل من الإتْرُوسْك ، فجميعُ هذه الأقاصيص لها من القيمة كما لقصة مفاسد الغُول المعروف بالمِينُوتُور والمولودِ من اقتران پازِيفَايِه بثَوْرٍ فقتله تِيزِه بالسيف السِّحْرِىِّ المأخوذِ من أرْيَانِه بنتِ مِينُوس .

وليست الأحاديثُ عن الأزمنة التى عَقَبَت تلك أكثرَ صحةً فى الغالب ، وإذا كنا لا نجادل فيها فذلك لأنها تَلُوح أقلَّ بُعْداً من الصواب ، ويَعُدُّ

أصلحُ مؤرخى الرومان ، مِثْلُ تاسِيتَ ، التاريخَ فنًّا يجب أن يُزَيِّنَ الكاتبَ ، والتاريخُ ، خاصةً ، هو عند هذا الأخير « عَمَلُ الخطيب » ، وهؤلاء المؤرخون كانوا يعالجونه كخطباء إِذَنْ ، فيرتِّبون الوقائعَ ترتيباً يُسَوِّغون به رأيَهم ، أو يُزَوِّدون الأعقابَ بأمثلة حسنة ، وكذلك لم يتردَّدوا ، قَطُّ ، أن يَنْسِبُوا إلى المحاربين والأبطال والأباطرة أقوالاً ، وأن يَضَعُوا فى فمهم خُطَباً رائعة ، ومُنَاجَيَاتٍ نفسيةً أيضاً ، كالتى جُعِلَت على لسان أُوتُون وفِسْپَازْيان ، إلخ . ، وكانت هذه الأقاصيصُ الوهمية تؤلَّفُ استناداً إلى بِضْعِ قطعٍ من الحقيقة تُجْمَعُ مصادفةً وإلى كثير من الخيال ، فتَعُدُّها الأجيالُ صحيحةً بقوة التكرار .

ولم يَنْقَضِ مبدأُ التاريخِ الروائىّ بانقضاء قدماء المؤرخين ، فقد عاش بعد جميع الانتقادات ، وقد ظَلَّ باقياً قويًّا حتى فى أيامنا ، ومن السهل إيرادُ أمثلةٍ مشهورةٍ على ذلك ، فإذا عَدَوْت وصفَ المنظر لم تَجِدْ سطوراً كثيرةً صحيحةً فى « حياة يسوع » لرِينَانَ على ما يحتمل ، ولكن يالها من قصة مقبولة !

ومع ذلك فإن نجاح مثل هذه الكتب لا يقوم إلاَّ على روائيتها ، وفى التاريخ يَبْحَث القارئُ العادىُّ ، على الخصوص ، عن المغامرات العجيبة المَرْوِيَّة بشاعرية الدعاء والغضب والتفاؤل ، أى بموسيقا الكلمات المُسْكِرة ، ولرِينَانَ الباعُ الطويل فى هــذا المضمار ، فليس لهُيامه حَدٌّ فى « دعاء الأَكْرُوپُول » ، حتى إنه يَهْذِى فيه بعض الهَذَيان ، « فيا كُورا : أنتِ وحدَكِ فتاةٌ ، أيتها العذراء : أنت وحدَكِ طاهرة ، أىْ إيجِى : أنتِ

وحدَكِ قِدِّيسة ، أيا نَصْرَة : أنت وحدَكِ قوة ! » ، ومن الواضح أنه لا يوجد لهذه الكلمات غيرُ معنًى مُبْهم ، ولكن القارئَ يَجِدُ هذا الجَمْعَ من الأوصاف الرفيعة ، وتساعد هذه الغِنائية على بيان قدرة الخيال المُبْدعة ، ولم تكن أثينة حينما زارها رينانُ غيرَ قريةٍ عَفْراءَ قَذِرة ، وقد رآها من خِلاَل ذكرياته الكلاَسية مع ذلك ، فكتب يقول : « إن ما أَلقَته أثينة من أثرٍ فيَّ يفوق جميعَ ما أحسستُه فى حياتى بدرجات ، فمكانٌ واحدٌ ، لا مكانان ، هو ما يتجلّى فيه الكمال ، ذلك هو المكان ، ولم يَحْدُثْ قَطُّ أن تَمَثَّلْتُ نظيراً له » ، فياله من شاعر ! سَيُقْرَأُ زمناً طويلاً ، ولكن كما تُواصَلُ قراءةُ « ألف ليلة وليلة » ، أى من غير أن يُصَدَّق كثيراً ، وذلك مع الاحتراز إلى الغاية من تصويراته وتصنيفاته ، والواقع أنه ليس من تصوير الأمور تصويراً صحيحاً أن يُوصَف نِيرُونُ بالمشعوذ ، وأن يقال مع التوكيد إن مَرْك أُورِيل رمزٌ لنهاية العالَم القديم الذى ظَلَّ باقياً قروناً كثيرة بعده فى الحقيقة ، ومن المُمْتِع على وجهٍ آخر ، ولكنْ مع الصعوبة ، أن يُبَيَّن كيف تَحَوَّل هذا العالَم بدلاً من بيان نهايته .

وبالتشويهات الحماسية والمسرحية ننالُ وَهْمَ حقيقةٍ يَعْرِف المؤرخُ الفيلسوفُ جيداً أنه لا يستطيع بلوغَها .

ثم إن من الواضح أن المؤرخ كلما كان متفنناً قَلَّ تدقيقُه ، فالواقعُ أن عِيانَه الشخصىَّ البالغَ الشدة يقوم مقام الحقائق ، ويكفى عددٌ قليل من المبادئ غيرِ الثابتة لتزويد خياله .

ويدلُّ هـــذا الدورُ الخصيب ، الذى يمارسه الخيال فى الأقاصيص التاريخية ، على السبب فى كون إدراك الحادث عينه يختلف باختلاف المؤرخين تَبَعاً لمبادئ كلِّ زمن .

* * *

كان الأغارقةُ ، فى عصور البُطُولة على الأقل ، يجعلون الآلهة تتدخل فى الأعمال البشرية بلا انقطاع ، ففى كلِّ صفحة من قِصَص أُومِيرُس تُبْصِر عملَ أهلِ الأُلِنْپ ، وليس أقلَّ من هذا ظهورُ الربِّ فى الكتب اليهودية ، وكان الرومان يَخْلِطُون الآلهة بحوادث البشر .

ويُسْفِرُ انتصار النصرانية عن مبدأٍ لاهوتىّ خالص فى التاريخ ، ويتحرك هذا المبدأ قرناً بعد قرن .

قال غِيزُو : « تَصَفَّحُوا تاريخ ما بين القرن الخامسِ والقرنِ الثامنَ عشرَ تَجِدُوا أن علم اللاهوت هو الذى يسيطر على الروح البشرية ويوجِّهها فتُطْبَعُ جميعُ الآراء بطابِـع عـــلم اللاهوت ، ويُنْظَرُ إلى المسائل الفلسفية والسياسية والتاريخية من الوجهة اللاهوتية دائماً . . . والروحُ اللاهوتية من بعض الوجوه هى الدَّمُ الذى جرى فى عروق العالَمَ الأوربىّ حتى بِيكُن ودِيكارت » .

وتَدُلُّ الكتبُ التاريخية التى أُلِّفت فى ذلك الزمن الطويل على درجة ما يُمْكِنُ العواملَ الدينية أن تؤثِّرَ به فى أفكار الناس وعلى مقدار بساطة المبدإ العامِّ عن الكَوْن فى ذلك الحين .

وكانت تسيطر على مجرى التاريخ قدرةٌ ربَّانيةٌ عاطفةٌ أو ساخطة ،

فكان لا بُدَّ من خشيتها أو التَّضَرُّعِ إليها بلا انقطاع ، وكان أقوى الملوك يرتجفون أمامها ، ومن ذلك أن كان لويس الحادى عشرَ يُنْفِقُ لُبَّ ماله محاولاً أن ينال ، بأثمن التَّقْدِمات ، حمايةَ العذراء وأبرارِ الفِرْدوس ، قانعاً، على رواية مؤرخٍ له ، بأنهم يَتَدَخَّلُونَ فى أعمال الإنسان دائماً قادرين وحدَهم على ضمان الانتصارات الحربية أو الدِّبْلُمِية .

وإلى وقتٍ قريب نِسْبيًّا كان على هذا الاعتقاد الصبيانىّ فلاسفةٌ فُضَلاء ، وقد ساق هذا الاعتقاد لِبْنِتْزَ إلى أفكارٍ كثيرةِ التفاؤل ، فكان يقول إن العالَمَ بالغُ الصلاح بحكم الضرورة ، وذلك لأنه لا حَدَّ لحكمة الربِّ وكرَمه .

ولم تأخذ مبادئُ التاريخ اللاهوتيةُ فى الزوال إلاَّ بعد أن أثبت تقدمُ العلم كونَ جميعِ حوادث العالَمِ خاضعةً لسُنَنٍ وثيقة لا تَعْرِف الهوَى .

* * *

وبما أن المبادئَ الروائية واللاهوتية تُرِكَت وَجَب اكتشاف مبادئَ أخرى لإيضاح مجرى الحوادث ، وقد نشأ عن هذا الواجب ما يُمْكِن تسميتُه مبدأَ التاريخِ الفلسفىّ .

ويقول لنا هذا المبدأُ إن الحوادث تابعةٌ لضروراتٍ غريبةٍ عن المصادفة أو عن عزائمَ عُلْوِيةٍ ، ويَجِدُّ العلْم فى تعيين هذه الضرورات ، ولكنها من التعقيد مالا يُرْجَى معه تعيينُها فى كلِّ وقت .

وكلُّ حادثةٍ تاريخيةٍ عقليةٌ ضِمْنَ المعنى القائل بصدورها عن علةٍ ، ولكن هذا لا يَعْنِي أنها ملائمةٌ لِخِطَّةٍ ما ، وإنما يَدُلُّ على وجودِ بعضِ العِلل العامةِ دلالةً واضحةً تأثيرُ العوامل الكبرى المتجبِّرة كوجوب القيصرية

فى الحياة الرومانية حيناً من الزمن ، وكسَيْرِ بلدانِ أوربة المختلفةِ نحوَ الوَحدة فى زمنٍ معين ، وكالإصلاحات التى تَعْقُبُ الثَّورات ، إلخ . ، ومع ذلك فالتاريخ مملوء بالحوادث التى أمكن أن تكون بالغةَ الاختلاف عن التى وَقَعت ، وذلك لأنه لم يُوجِبْ ضرورتَها أىُّ سُنَّةٍ ثابتة .

ومن المحتمل أن كان تطورُ إنكلترة يقع على وجهٍ آخر لو خَسِرَ النُّورمان معركةَ هَسْتِنْغس ، والواقعُ أنهم كادوا يَخْسَرُونها لولا أن تَصَوَّر الدوك وِلْيَم فى الدقيقة الأخيرة فقط خُدعةً حربية حال بها دون نكبةٍ كانت تؤدى ، لا رَيْبَ ، إلى القضاء على فكرة النورمان فى تجديد غزوهم ، ولو وُفِّقَ أنيبال فى تجرِبته حين حاول الاستيلاء على رومة تحويلاً لها إلى مستعمرةٍ قرطاجية لتغير جميعُ مجرى التاريخ القديم وشكل الحضارة تغيراً عميقاً .

وفى زماننا كان مصيرُ أوربة يتمُّ على خلاف ما وَقَع لو لم يُكْرِه الإمبراطور غليومُ بسفرائه أمريكة على الاشتراك فى الصِّراع العالمىِّ .

* * *

ويَظْهَرُ أمراً حقيقياً ، إذَنْ ، كونُ التاريخ ينطوى على عللٍ عامة ، ثم على ما لا يُحْصيه عَدٌّ من العلل الصغيرة الاستثنائية التى يُمْكِن أن تُشْتَقَّ من الأولى ، ولكن من غير أن تنشأ عنها فى كلٍّ وقت .

ومن العلل العامة ، ولا سيما ثِقَلُ الماضى البالغُ ، ما أدى بعد انقلابات الثورة الفرنسية ، بحكم الضرورة ، إلى عَوْدٍ مَلَكىٍّ سبقته دِكتاتورية ، ولو لم يكن ذلك الطاغيةُ بونابارتَ لكان مُورُو أو غيرَه ، ولكنه إذْ يكون وقتئذٍ

أقلَّ عبقريةً ، ومن ثَمَّ أقلّ نفوذاً ، فإنه يكون أقلَّ دواماً ويُرْجَع إلى الملَكية بما هو أسرعُ من ذلك .

ومن المحتمل ، أيضاً ، ألاَّ يُفَكِّر القائد العاديُّ ، الذى يكون قد ظهر ، فى تأسيس آلٍ ، فلا يظهَرُ فى فرنسة نابليونُ الثالث ولا تَقَعُ معركةُ سِدَان ولا الغَزْوُ ولا الكُومُونُ ولا الوَحدةُ الألمانية ، فهذه الحوادثُ قد نشأتْ قِسْماً ، إذَنْ ، عن تلك العلة الاستثنائية المستقلة عن كلِّ سُنَّة منظَّمة ، أى عن تَفَوُّقِ قائدٍ ظافرٍ كان قد مات منذ نصف قرن ، وفَرْضياتٌ مثلُ هذه تدلُّ دلالةً واضحة على شأن العَرَضِيِّ فى التاريخ .

الفصل الثانى

التعميمات فى التاريخ

يَصْعُب جِدًّا أن تُعْرَفَ العللُ الحقيقية لحوادث التاريخ ، حتى أكثرُها وقفاً للنظر ، وسَنُبَيِّن فى فصلٍ آخرَ أن الشهادة ، التى هى أكثرُ مناهج الماضى استعمالاً ، أقلُّ هذه المناهج صِدْقاً ، والواقعُ أن قيمتها ضعيفةٌ إلى الغاية ، لا لمصاعبِ حُسْن المشاهدة فقط ، بل لأن المشاهداتِ التى تقع تؤدى إلى تعميمات خادعة أيضاً .

وقد أدّى التعميمُ ، كنهجٍ تاريخىٍّ ، إلى أحكامٍ متناقضةٍ تناقضاً يَجْعَلُ الحقيقةَ أمراً يَصْعُب تمييزه ، وذلك فى موضوعاتٍ أساسية كحال فرنسة قبل الثورة .

وكيف يُكَوَّنُ رأىٌ صحيح حَوْل حال الفَلَّاحين استناداً إلى شهاداتٍ بالغةِ التناقض كالشهادات الآتية التى قَيَّدها مسيو شُومِه ، وهى :

« إن لابْرُوِير يُشَبِّهُ الفَلّاحين الفرنسيين بالحيوان الوحشىِّ المنتشر فى الحقل ذكراً كان أو أنثى » .

ويؤيِّد سان سيمون هذا التقديرَ فيقول : « يُقْتَاتُ بعُشْب الحقول فى نُورْماندية فى أثناء تبذيرات شانْتِيِّ » ، ومِثْلُ هذا حُكْمُ ماسِّيُّونَ القائل : « يعيش أهل أريافنا بائسين أشدَّ البؤس » . ويقول دارْجِنْسُون من ناحيته : « حَدَّثَنى سِنْيُوراتُ تُورين أنهم يريدون إلهاء الأهلين بأعمالٍ فى

الأرياف مياوَمةً فيجدونهم من الهُزال وقلة العَدَد ما لا يستطيعون معه العملَ بذُرْعانهم » .

وفى الوقت نَفْسِه كان يوجد من الشهود من يَصُوغُون أحكاماً فى ذلك مختلفةً اختلافاً تامًّا ، ومن ذلك ما قاله رَحَّالةٌ فى سنة ١٧٢٨ : « لا يُمْكِن أن يُتَصَوَّرَ مقدارُ سعادة الفلاحين ، فالقرى زاخرةٌ بفلاحين أقوياءَ سِمَانٍ لابسين ثياباً حسنةً و بيَاضاتٍ نظيفةً . . . » ، وقالت اللِّيدى مُنْتاغْيُو : « لا يُمْكِن أن يُتَصَوَّر مقدارُ ما هو منتشرٌ فى المملكة من رَخاء وسرور » ، ومثلُ هذا قَوْلُ وَلْپُولَ : « أَجِدُ هذا البلد غَنِيًّا غِنًى عجيباً ، ويَبْدُو على أحقر القُرَى طابَعُ البَرَكة » ، وقال ڤُولْتِير : « وكيف يُمْكِن أن يقال إن ولاياتِ فرنسة الجميلةَ بُورٌ ؟ يحْسَبُ الإنسانُ نفسَه فى الفِرْدَوْس ! » ، وأما أَرْثُور يانْغ ، الذى استَشْهد تِينُ به كثيراً ، فمن يُكَلِّف نفسه بقراءته يَعْلَم ، بعد أن يستخرج من « سياحاته » ما يُمْكِن من النُّصوص عن بؤس الأرياف الفرنسية عَشِيّةَ الثورة ، إمكانَ استنباطه رخاءَها أيضاً من النصوص البالغةِ مِثْلَ هذا المقدار على الأقل .

ويُمْكِن أن يُزَاد عددُ هذه الاختلافات فى الرأى إلى ما لا حَدَّ له ، وتجِدُ مثلَ هذه الاختلافاتِ أيضاً لدى المؤلفين الذين عَرَضُوا نتائج الإدارة النابُليُونية فى إيطالية .

فإليك كيف يُعَبِّرُ شاتُوبْرِيان عما فى نفسه :

« إن نابليون عظيمٌ لِمَا كان من سُمُوِّ بَعْثِهِ وتنويره إيطالية » .

ويختلف عن هذا حُكْمُ فاغِيه حيث قال :

« مُنِيَ حُكمُ الإمبراطورية الأولى فى إيطالية بحبوطٍ ذَرِيع ، فقد أُصيبت فى ست سنين بالإفلاس والفوضى والبؤس والجوع والإقفار ، وبَلَغ ما اعترى جميعَ الثَّرَوات الكبرى من إفلاسٍ ثمانين فى المئة ، وأَصبح عدد السائلين ثلاثةَ أَضعاف ، وزاد عددُ قُطّاع الطُّرُق فى الأرياف عشرةَ أَضعاف ، ومات السُّوقَةُ جوعاً ، ونَقَص عددُ سكان رومة بمُعــــدَّل الخمس فى خَمْس سنين » .

ومع ذلك فإن هذه التقديراتِ المتناقضةَ تُفَسَّرُ بشىء من السهولة لدى النظر إلى أن ذينك المؤلِّفَيْن التزما زمنين مختلفين ، فلما دَرَس شاتُوبريان حالَ إيطالية كانت الإدارةُ الإمبراطورية صالحةً تقريباً على الرغم من قَسْوتها ، ومن ثَمَّ كانت أفضلَ من عِصابة النهب التى أرسلتها حكومة الدِّيرِكْتوار .

والأمرُ كما قال فاغِيه : « كانت إيطالية تقاسى فى عهد الديركتوار فجوراً مستمرًّا ، وكانت رومة تشاهِدُ ، باسم الجمهورية الرومانية ، قناصلَ ومحامين عن الشعب وأَعضاء سِنَاتٍ يَسْرِقون ويغتنون ويَقْصِفُون ويَكيدون ويرتكبون المُنْكَر ويَسْفِكون دماً كثيراً فى الرِّيف الرومانىّ ويَسْلُبون القصورَ والمتاحف والمكتبات ويُفرِطون فى فَرْض الضرائب فيأخذون نصف أموال الأغنياء ورقيقى الحال عَلَى السواء ، والخلاصةُ أنهم كانوا مَزْبَلَةً كريهة من اللصوص والقراصين والأشرار » .

* * *

وإذا عَدَوْتَ عِلَلَ الأغاليط الناشئة عن تعميماتٍ خاطئة فاذْكُر الأغاليطَ الناشئة عن تكرارها من قِبَل كتابٍ ذوى نفوذ ، كما هى حال الآراء العامة

التى صِيغَتْ زمناً طويلا حَوْل ماافْتُرِضَ من قَضَاء البرابرة على الإمبراطورية الرومانية .

ولم يَحْتَجِ المؤرخُ العالم فُوسْتِل دُو كُولَنْج إلى غير قليلٍ من البحث فى أُسُس هذا الاعتقاد حتى يَعْرِف مقدارَ ما كان يَشُوبه من خطأ ، فقد بَيَّن أن الغاراتِ التى قَرَعت خيال المؤرخين كثيراً لم تكن غيرَ أعمالٍ منفردة من قَطْع السابلة لا غَدَ لها ، وأنه لم يَحْدُث قَطُّ أن حَدَّثَتِ البرابرةَ نفسُهم بهَدْم الإمبراطورية الرومانية التى كانوا يَبْدُون مُبَجِّلِين إياها تبجيلَ إعجابٍ ومحاولين انتحالَ لغتِها ونُظُمِها وفنونها ، فإذا وَقَعَ فى نهاية قرونٍ كثيرة أن قَضَوْا ببطء على الحضارة الرومانية لم يَكُنْ هذا قَطُّ نتيجةَ غاراتٍ عنيفة دُفِعَ مُعْظمها بسهولةٍ من قِبَل برابرة مرتزقين لدى الرومان ، بل كان بوسائلَ سَلْميةٍ ، وبما أن هؤلاء الأهلين المتأخرين الذين أُدخلوا إلى العالَم الرومانىّ كانوا عاجزين عن ملاءمة حضارةٍ تَعْلُوهم عُلُوًّا كبيراً فإنهم خَفَضُوها إلى مستواهم بحكم الضرورة ، ولذلك لم يُقْضَ على الحضارة الرومانية بغتةً ، بل أُخِذَ مكانُها شيئاً فشيئاً .

ثم إن الرومان أنفسَهم هم الذين أوجبوا هذه الغَزَواتِ السِّلْميةَ حينما أصبحوا بالغى الغِنَى متمرِّدين على الزواج فأدخلوا أجانبَ إلى جيوشهم وإداراتهم بالتدريج ، ولما صار المرتزقةُ جنودَ رومة حَصْراً وصارت رومة تُدِير ولاياتِها من قِبَل رؤساءَ من البرابرة أصبح هؤلاء الرؤساء مستقلين شيئاً فشيئاً ، ومع ذلك كان نفوذُ عظمةِ الرومانِ من القوة ما عَدَّ هؤلاء الرؤساء أنفسَهم معه من موظفى رومة دائماً وإن غَدَوْا أصحابَ سيادة ، ومن

ذلك أن بَدَا كلُوڤِيسُ فَخُوراً بلقب القنصل الرومانيّ الذى أنعم به عليه الإمبراطورُ المقيمُ بالقسطنطينية فى ذلك الحين ، وتَمْضِى ثلاثون سنةً على موت كلُوڤيسَ فيتلَقَّى خلفاؤه ما يُمْليه الأباطرة من قوانينَ ويراعونها ، وكان لا بُدَّ من حلول القرن السابع حتى يَجْرُؤ رؤساء الغُول من البرابرة على إحلال صُوَرِهم عَلَى النقود محلَّ صور أباطرة الرومان .

ولم يَشْعُرِ المعاصرون بزوال سلطان الرومان لوقوعه بطيئاً تدريجيًّا إلى الغاية ، ولذلك يكون المؤرخون قد بدءوا تاريخَ فرنسة قبل الزمن الحقيقيِّ بقرنين واختلقوا لنا اثنى عشرَ ملكاً .

* * *

ولم تكن غَزَواتُ البرابرة السِّلمية وحدَها كافيةً لتحويل الحضارة الرومانية لو لم تنحَلَّ هذه الحضارةُ بفعل الروح الجديدة التى جاءت النصرانية بها ، فقد تحوَّلت هذه الحضارة من عسكريةٍ إلى لاهوتيةٍ بالتدريج ، وقد تقدَّم الفنُّ فى بِزَنْطةَ التى نُقِلَت إليها ، ولكن مع انقباض آفاق الفكر الإنسانيِّ ، ويستفيد التُّرْكُ من المناقشات اللاهوتية التى كانت تستغرق جميعَ نشاط البِزَنطيين فيستولون عَلَى تلك المدينة العظيمة .

ومما يلاحَظُ ، مع ذلك ، كونُ التاريخِ يُعْوِزه ما يَكْفِى من الوثائق عن أعظم الحوادث .

ومن ذلك كونُ التاريخ يَضْطرب فى بيانِ السببِ فى اعتناق العالَم الرومانىّ للنصرانية فى قرنين أو ثلاثة قرون ، ومن الواضح أن كان هذا الدين يستهوى العبيدَ لجعله إياهم مساوين لسادتهم ، ولكن ألَمْ يكن من الضرورىِّ أن يَبْدُوَ

بغيضاً بُغْضًا مطلقاً لدى هؤلاء السادة الذين يَقْلِبُ أحوالَ حياتهم الاجتماعية رأساً على عَقِب ؟ إن جميعَ الإيضاحاتِ حَوْل حادثٍ عظيمٍ كهذا ظلَّت فاقدةَ القيمة حتى الآن ، فوَجَب أن يُلْجأ إلى مبادئ علم النفس الحديث ليُدْرَك أمرُها .

* * *

يُرَى مقدارُ عدم الصحة فى الأفكار التى استقرت وَفْقَ تعميماتٍ تقليدية عن بعض أدوار التاريخ ، ويلاحَظُ هذا ، أيضًا ، فى مسائلَ أكثرَ جِدَّةً من تلك بمراحل ، ومن ذلك أن عُدَّ لويسُ الثالثَ عشرَ ، لزمنٍ طويل ، صاحبَ نَفْسٍ ضعيفة يسيطر عليها رِيشِلْيُو سيطرةً تامة .

وعَلَى العكس يُظْهِرُه نَشْرُ رسائِله مشتملاً على نفسٍ صافية حازمة مشيرةٍ عَلَى رِيشِلْيُو أكثر من أن تُوَجَّه بهذا الأخير ، مُدَبِّرٍ بها مملكتَه تدبيراً صحيحاً بين حروبٍ كثيرة ودسائسَ ومؤامراتٍ يومية كان يشترك فيها أخوه والأُمُّ المِلكة والبرلمان ، وأخيراً تَرَكَ هذا الملك لوارثه لويسَ الرابعَ عشرَ فرنسة قويةً مُوَحَّدةً بفضل صَرَامته ، وكان قد تلَقّاها غارقةً فى الفوضى .

ومن السهل أن يُطَّلعَ عَلَى أمثلة أخرى عن التعميمات التاريخية غيرِ الصحيحة ، حتى إنه يُمْكِن أن يُسْأَل عما يَبْقى من التاريخ الكلاسىِّ إذا ما وُضِعَ عَلَى مِحَكِّ النقد بأسْرِه ، فمن المحتمل حينئذ أن يَتَحَوَّل تحولاً تامًّا ما يَدُور من مبادئَ حَوْلَ الأزمنة ، حتى الحديثةِ ، التى يَلُوح أنها دُرِست درساً خيراً من غيرها كدَوْرِ الثورة الفرنسية .

ولا يكتسب التاريخ صحةً ظاهرةً إلا بارتداده إلى الماضى مقداراً فمقداراً،

وبما أن مُفَسِّرى الوقائع القديمة قليلو العدد فيه إلى الغاية فإنه لا مناصَ من قبول ما يَقُصُّون ، ولا يُمْكِن أن يجادَل فى بعض الأحاديث ، كالتى دارتْ حَوْل البِلُوبُونيز مثلاً ، ما كان لهذا الدَّوْر مؤرخٌ واحد فقط : تُوسِيدِيد .

ويجب ، لتفسير الحوادث التى يتألف منها التاريخ ، ولا سيما تكوينُ الأحوال التى تنشأ عنها ، أن يُسْتَعان بمناهج الاستقصاء التى تختلف اختلافاً كبيراً عن المناهج التى اقتصر عليها المؤرخون زمناً طويلاً ، وقد خَصَّصنا فصولاً كثيرةً من هذا الكتاب للبحث فى هذه المناهج .

الفصل الثالث

مصادر الخطأ فى التاريخ

ما يُمكِن تبَصُّره وما لا يُمكِن

اليومَ يعترف المؤرخون ، على العموم ، بما لمناهج البحث القديمة من قيمةٍ ضعيفة ، ومن ذلك ما قاله مسيو سِنْيُوبُوسُ فى كتابٍ لَخَّصَ فيه دروسَه التى ألقاها فى السُّرْبُون :

« تقوم مبادئُ التاريخ على ما لم نشاهد من وقائعَ موصوفةٍ بعباراتٍ لا تَدَعُ لنا عَرْضَها عَرْضاً دقيقاً » .

وما كان الأمرُ ليَظْهَرَ غيرَ هذا ، فبما أن الملاحظاتِ التى انْتُفِع بها فى الماضى مجردةٌ من قواعدَ قويمةٍ فإنها لا تدلُّ على غير آراء مؤلفيها .

ويجب أن تَنْمُوَ روحُ النقد فى التاريخ قَبْل أن تُقوَّم الأغاليطُ القديمة ، ولا سيما تعيينُ ما يكون عامًّا فى الأحوال الخاصة .

والأمرُ كما لاحظ فُسْتِل دُوكُولَنْجُ القائلُ : « ولكن روح النقد منذ ١٥٠ سنة كانت تقوم ، فى الغالب ، على عادة الحكم فى الأمور القديمة من حيث احتمالُ وقوعها ، أى من حيث مطابقتُها لِمَا نراه ممكناً أو قريباً من الصدق ، وإذا أُدْرِكت روح النقد على هذا الوجه لم تكن أمراً غيرَ الرأى الشخصىِّ أو العصرىِّ القائم مقام رأى الماضى الحقيقىِّ ، فحُكِمَ وَفْقَ الشعور ومنطق الأشياء اللذين لم يُوضَعا قطُّ وَفْقَ المنطق المُطْلَق ، ولا وَفْقَ عادات الشعور العصرىّ » .

ولا يوجد غير عددٍ قليل جِدًّا من ذوى النفوس النَّفَّاذةِ بعضَ الشىء من يستطيع أن يُفسِّر الوقائع ، أى أن يَميزَ الأفكارَ تحت الكلمات والمشاعرَ تحت النصوص ، وأن يُفرِّق بين العوامل الحقيقية للحوادث التى يَقُصُّها كثيرٌ من المؤلفين من غير أن يُدْرِكوها ، وقد جَدَّد فُسْتِل دُوكُولَنْجُ الذى استشهدتُ به جميعَ تاريخ العصر المِيرُوفَنْجِىِّ مع بعض الخلاصات القصيرة التى لم يُبْصِرْ أسلافُه شيئاً منها على الإطلاق .

* * *

وبدأ المؤرخون المعاصرون يُدْرِكون ضعفَ قيمةِ الوثائق التى كُتِبَ التاريخُ استناداً إليها .

أجل ، ظلَّت سذاجتُهم عظيمةً ، ولكنْ من غير أن تُساوىَ سذاجةَ أسلافهم فى القرون الوسطى حين كانوا يَعُدُّون من الحقائق جميعَ الأوهام التى يَرْوونها ، وقد كان عندهم من الاستعداد العجيب ما يستخرجون به من أىِّ نَصٍّ أبعدَ التفاسير من الحقيقة وما يُبَيِّنُون به أدعى المستحيلات إلى الدَّهَش .

وقد كان ، حتى القرنِ السادسَ عشرَ ، يُعَلَّمُ ، كحقيقةٍ لا جِدالَ فيها ، كَوْنُ الفرنسيين من نَسْل فرَنْكُوس بن هِكْتُور الذى فَرَّ من حصار تِرْوَادة ، وكونُ اسم عاصمةِ فرنسة من اسم پارِيس بن پِرْيام ، وكونُ التِّرْواديين بَنَوا المدينةَ الفرنسية تِرْوَا ، وأن محمداً كان كَرْديناﻻً فَغَضِب لعدم انتخابه بابا فصار مُلْحِداً وأقام ديناً جديداً ، وأن يهوذا كان قد قتل أباه ليتزوج أمَّه ، إلخ .

ومن الواضح أننا أقلُّ سذاجةً فى الوقت الحاضر ، ولكن مع بقاء العِلْم

التاريخيِّ سلبيًّا على الخصوص ، ويُدْرِك هذا العِلمُ ، تقريباً ، أن من المتعذر حدوثَ بعض الأمور كما كان يُقَصُّ خبرُها ، وذلك من غير أن يُحْسِن معرفةَ الوجه الذى وَقَعت به

* * *

ومهما تكن درجةُ المؤرخ من اللَّقَانَة فإنه يَصْعُب عليه أن يتخلص من العوامل الناشئة عن عقائده السياسية والدينية ، ولا سيما المشاعرُ الصادرة عن البِيئة التى يعيش فيها ، فالمؤرخُ يختار من الوقائع ، غالباً ، ما يَلُوح أنه يُسَوِّغ به أفكارَه وأهواءَه وعقائدَه حاذفاً غيرَه .

قال سِنْيُوبوسُ أيضاً : « والواقعُ أنه يقوم بين النَّصِّ والنَّفْسِ المَيَّالةِ التى تَقرؤه صِراعٌ فظيع ، وتأبى النفسُ إدراكَ ما يناقض رأيَها ، والنتيجةُ العاديةُ لهذا الصراع أن تَخْضَع النفسُ لصراحة النصِّ ، ولكن الذى يقعُ هو أن النَّص يُذعِن ويَنْثَنِى ويَرْضَى بالرأى المُبْتَسَر الذى يساور النَّفْس . . . » .

حتى إن الوقائعَ المُودَعةَ فى الوثائق لو كانت صحيحةً جدًّا لم يتألف منها غيرُ موادَّ لبناء يَجِبُ أن يُقام فيما بعد ، وتَكون الاستعلاماتُ الكثيرة عن الحوادث التاريخية ، الحديثة نسبيًّا، متناقضةً ، ومن المحتمل أن يُكْتَشَف فيها دائماً تسويغٌ لرأيٍ ما ، ولا شيء فى التاريخ أسهلُ من تأييدِ رأيٍ مخالف لذلك ، وهذا ما يكاد يتعذَّر فى العلوم حيث لا قيمةَ لقضيةٍ إلا عند تسويغها بالملاحظة أو التجربة .

قال مسيو بوَاسْيه : « لا يَرْغَبُ علماؤنا الشُّبَّانُ أن يُزْعِجُوا أنفسهم كثيراً بتكرار ما قيل قَبْلَهم بعد أن يَقْضُوا أياماً كثيرة فى المكتبات ومخازن

المستندات مطالعين الأوراقَ القديمة ، وهم يَرَوْن أن طُرْفة الآراء شاهدةٌ على عُمْق الأبحاث فيحاولون إعادة الاعتبار إلى من حُكِم عليهم من الأعيان جاعلين فخرهم فى تبديل الآراء الدارجة » .

وهكذا أمكن أن يُقرَّرَ كونُ نيرُونَ خيرَ الأبناء وأكثرَ الأباطرة إنسانيةً ، وكونُ رُوبِسْپِيرَ رجلاً كثيرَ الحِلْم نَزُوعاً إلى جَعْلِ الناس يعتنقون أفكارَه بالإقناع ، وهكذا يحاول أساتذةٌ شُبَّانٌ ، أيضاً ، أن يُثْبِتُوا لنا كَوْنَ جان دَرْك ولويسَ الرابعَ عشرَ لم يتصفا بأية مزية كانت ، وأن دُپْلِكْس لم يَكُن غيرَ دَنِيسٍ خسيس ، إلخ ، ويسعى آخرون أن يثبتوا لنا كونَ شكسپيرَ وكُرْنِيْ ولا رُشْفوكُلْد قد اقتبسوا أفكارَ كتّابٍ سابقين فقط .

* * *

واليومَ نَرَى ببطء ، ولكن مع اطمئنانٍ ، كَوْنَ دراسة التاريخ تُصْبِح من عمل العلماء مع أنها كانت من عمل الأدباء فقط ، ويقوم التدقيقُ التاريخىُّ مقامَ أهواء الخيال .

والعلمُ هو الذى يُسَوِّغُ ، على الخصوص ، تركَ الأفكار الغريبة المنتشرة فى زمن رُوسُّو عن صلاح الإنسان صلاحاً أصليًّا وعن كمال المجتمعات الفطرية ، أى تَرْكَ هذه الأفكار التى وجَّهتْ مُحَرِّكِى الثورة الفرنسية .

وقد استطاع علمُ المستحاثات وعلمُ وصف الإنسان برسمهما تطورَ الإنسان جسماً وذهناً أن يستبدلا بالمباحث الأدبية وثائقَ صادقةً يتلاشى أمامها جميع تفصيلات رجال البيان .

وعاد لا يبقى للمؤرخين حَصْراً غيرُ حَلِّ النصوص والمخطوطات ، وليس هذا عملاً غير نافع تماماً لا ريب ، ولكن ما أشدَّ شحوبَه بجانب النتائج التى تُسْفِرُ عنها استقصاءاتُ العلم الحديث !

وفى التاريخ حلَّ مبدأُ التطور التدريجىِّ محلَّ التحولات المتقطعة والمفاجئة.

والأمرُ كما لاحظه مسيو سِنْيُوبُوس حَوْل الزمن المعروف بعصر النهضة، فقد قال :

« إذا كانت قد وُجدت نهضةٌ فى الفنون لم يُمْكِن وقوعُها فى غير عَهْد شارلمان فى القرن التاسع ، لا فى القرن السادسَ عشرَ ، فقد جُدِّدَ المأثورُ فى القرن التاسع ، وعاد غيرَ مُنْقطع ، ولا تُبْعَثُ الفنونُ والآداب، ولكنها تُواصِلُ تطورَها ، حتى إن فَنّ البناء بَلَغ أعلى مراتب إبداعه وقوته فى فرنسة فى أوائل القرن الثالثَ عشرَ مع الفنِّ القوطىّ » .

* *

وتسيطر على الحادثات العلميـة سُنَنٌ وثيقة تَجْعَل إدراكَ الأمور قبل وقوعها أمراً سهلاً ، وهكذا يُمْكِن أن تُعَيَّن حركة السّيَّارات ومحلُّها فى زمنٍ ما ، وأن يُعَيَّن تاريخُ الـكسوف الصحيحُ ، إلخ .

ولا يَعْرِف التاريخ مثلَ هذا الإحكام ، فالعللُ التى توجب الحوادث هى من الكثرة ، ومن البُعْدِ أحياناً ، ما يُحْظَر عليهــا معه مثلُ تلك البصائر حَوْل علم الفلك .

ومعرفةُ المستقبل ، وإن كانت تتعذر فى الأحوال الخاصة التى تتكرر على وجهٍ واحد نادراً ، تصبح سهلةً نسبيًّا حَوْل الأحوال الجَمْعية ، ومن

ذلك أن علم الإحصاء وُلِدَ من تطبيق هذا المبدإ ، وتَبْدُو نبوءاتُه من الصحة كنبوءات علم الفلك ، أَجَلْ ، لا يُمْكِن تعيين الوقت الذى يموت فيه فردٌ من جيلٍ ما ، غير أن وضعَ جداولَ عن الوَفَيات يؤدى إلى تحديد عدد مَنْ يموتون من أفراد ذلك الجيل فى كلٍّ سنة ، وفى الغالب يَسْمَحُ انتظامُ بعض الحوادث الاجتماعية بأن يُنَبَّأ بها منذ إحلال البصائر عن الجَمْعِ محلَّ البصائر عن الفرد .

وإذا عَدَوْتَ تلك البصائرَ عن الجَمْعِ وَجَدْتَ من البصائر ما يُمْكِن وصفُه بالبصائر النفسية ، فلم تكن هنالك ضرورةٌ ، مثلاً ، إلى أن يكون الإنسان ذا نظر ثاقب ليَرَى نُمُوَّ شبحِ بوناپارتَ وراء الاضطرابات الثورية ، ولا ليُحِسَّ أن وعيدَ الاشتراكيين فى سنة ١٨٤٨ أدى إلى ظهور دِكْتَاتورٍ جديد اسْتُقْبِل مِثْلَ منقذ .

وهذه التقديراتُ النفسيـة سهلةٌ نسبيًّا ، ومنها ما صُغْتُه بنفسى قَبْل الحرب عندما قلتُ مؤكِّداً فى كتابى « روح السياسة » إن حَرْبنا القادمة مع ألمانية هى ، خلافاً لجميع ما ينادى به دُعَاة الإنسانية ، « ستكون صراعاً فاقدَ الرحمة فتُخَرَّب به ولاياتٌ بأسْرِها فلا يبقى قائماً فيها شجرٌ ولا حجرٌ ولا بشر » ، وفى كتابٍ آخرَ أبديتُ الأسبابَ التى استندتُ إليها فى هذه النبوءة .

* * *

وفى بعض الأحيان يُمْكِن أن تُبْصَر الحوادثُ الخاصة قبل وقوعها إذا ما كانت نتيجةً محتملة لحوادثَ سابقة ، فلو كان لدى قَتَلَةِ قيصرَ حِسٌّ

تاريخيٌّ أدقُّ مما عندهم لأدركوا أن القيصرية لم تكن من صُنْع قيصر ، بل نتيجةُ منازعاتٍ اجتماعية وحروبٍ أهلية ومَقَاتِلَ أمرَ بها سيلّا ومارْيُوس وسلسلةٍ من الاضطرابات كانت تَحْمِل كلَّ مواطنٍ أن يَرْجُوَ ضمانَ حياةٍ هادئة له .

وإذْ أَعْمت رجالَ السياسة أوهامُهم السياسية فإنهم يَبدون على العموم مُجَرَّدين كثيراً من مزية البَصَر فى الأمور ، ولو كان ذلك حَوْل أقرب الحوادث ، وإذْ لم يُدْرِك المُعْتَقِدُ العالَمَ إلا من خِلال رُوح معتقَده السياسىِّ أو الدينىِّ المُشَوِّه فإنه يعيش ضِمْنَ دائرةٍ خيالية ويظلُّ غريباً عن الحقائق .

وأربعةٌ من خمسة ملوك حَكَمُوا فى فرنسة فى غضون القرن التاسعَ عشرَ ذهبوا ضحيةَ عدم التبصر الناشئ عن أغاليطَ نفسيةٍ .

ويتألف من مُعْظَمَ الحوادث العظيمة فى غُضون الحرب الأخيرة ، كمعركة المارْن والتدخُّل الأمريكىِّ والخيانةِ الروسية والانكسارِ الألمانىِّ وزعامةِ الولايات المتحدة ، سلسلةُ أمورٍ لم تَخْطُرْ ببال إنسان ، فغيرُ المنتظَر فى هذا الدور هو الذى سَيْطَرَ على التاريخ .

الفصل الرابع

روح النقد فى التاريخ

رأينا فى الفصول السابقة مقدارَ الارتياب فى تفسير الوقائع التاريخية القديم ، حتى التى تُعَدُّ أكثرَها شهرةً .

وكان يجب للحكم فيها فى بدء الأمر أن تُحْذَف العواملُ القومية والدينية والسياسية ، التى تُعَيِّنُ مُعْظَمَ الأحكام ، حَذْفاً تامًّا ، وما كُتِبَ فى مختلف البلدان من مؤلَّفاتٍ حَوْلَ الحوادث نفسِها يشتمل ، بفعل سلطان تلك العوامل ، على تقديراتٍ مختلفةٍ أشدَّ الاختلاف .

وفى المؤلفين تؤثِّر المُبْتَسَرات[1] الدينية على الخصوص وإن اعتقدوا تخلصَهم منها ، وهكذا انتهى كثيرٌ من المؤرخين ، مثلاً ، إلى آراء شديدةِ الخطأ حَوْلَ قيمة الحضارة الإسلامية ، ويظلُّ التحاملُ على العالَم الإسلامىِّ السابق مستعصياً حتى الوقت الحاضر ، فيحتاج تاريخ القرون الوسطى إلى تجديدٍ فى جميع أجزائه الخاصة بانتقال الحضارة القديمة إلى الأزمنة الحديثة .

ويَهْدِفُ مؤرخون كثيرٌ إلى التخلُّص من التفاسير الشخصية فيريدون تأليفَ حوادثِ زَمَنٍ ما تأليفاً مجدَّداً بسلسلةٍ من البِطاقات مشتملةٍ على مقتطفاتٍ من الوثائق ، أى الشهاداتِ ، وسنبيِّن فى فصلٍ آتٍ نقصَ هذه الوسيلة فى الاستقصاء .

---

(١) Préjugés

* * *

وكلما كَمَلَتْ مناهجُ دراسة التاريخ شُوهِدَ تعيين معظمِ الحوادث بسلسلةٍ من العلل الخفية ، ولا يُحَدِّث التاريخُ عنها مطلقاً مع أنها هى التى توجِدُ التاريخ .

وينشأ أحدُ مصادر الخطأ الكبرى فى تفسير الحوادث الماضية عن محاولة المؤلفين إيضاحَ الوقائع بأفكار الحاضر بدلاً من تقديرها وَفْقَ أهواء كلِّ زمن ومشاعرِه المتقابلة .

وليس العملُ سهلاً ، فيجب ، مثلاً ، أن يُوصَل إلى إدراك روح المؤمن المسيطر عليه اعتقادُه ، وإدراكِ كون روح البارون الإقطاعىِّ المهددةِ حياتُه دائماً غيرَ مشابهةٍ لروحنا ، وإدراكِ روح الثَّوْرِىِّ المنوَّم بأحلامه ، إلخ . ، وكيف يكونِ تأثُّر الرجل فى أيامنا بالمناقشات حَوْلَ العناية الربَّانية التى هَزَّت الفرنسيين المثقفين هزًّا عنيفاً فى زمن اليَنْسِنْيُوسية ؟ وكيف تُنْتَحَلُ حالُ رجالِ القرون الوسطى ورجالِ الهَوْلِ النفسيةُ ؟ لا ريبَ فى كون العالِم المحقق يَشْعُرُ فى مكتبه بكثير من المشقة حتى يُبْصِرَ الضروراتِ التى حَمَلَتْ سِيلاَّ ومارْيُوس على إهلاك ألوف المواطنين من الرومان ، وحَمَلت قيصرَ على عُبُور نهر الرُّوبِيكُون وشارلَ التاسعَ على معاناة إرادة الشعب التى تُعَدُّ سبباً حقيقيًّا لمذبحة السَّان بَرْتِلْمِى .

ويجب لحُسْنِ إدراك معنى هذا الحادثِ التاريخىِّ أو ذاك أن يُوصَلَ إلى إحياء ما يُمْكِن أن يُدْعَى « روحَ الزمن » ، هذه الحسَّاسيةَ المتقلبةَ إلى الغاية والمؤثِّرةَ حيناً ثم الدارسةَ المخلوعةَ حيناً آخر .

وتتحول فرنسة فى الدور القصير الممتدّ بين آخر عهد لويسَ السادسَ عشرَ وإعادةِ الملكية تحوُّلاً أعظمَ مما فى عهدَىْ لويسَ الرابعَ عشرَ ولويسَ الخامسَ عشرَ .

* * *

واليومَ يُمْكِن أن تُبيَّن ، على الرغم من كلِّ تقدمٍ علمىّ حديث ، درجةُ تجَرُّد المناهجِ المُتَّخَذَةِ لتعيين الحقائق التاريخية من روح النقد ، وذلك بالاستقصاء الطويل الغالى الذى أمر به الريشتاغ وُصُولاً إلى معرفة عِلَل هَزيمة الألمان ، وكانت اللَّجنة التى فُوِّض إليها هذا الاستقصاء مؤلَّفةً من رجالٍ فُضَلاءَ ، وقد عَمِلَ هؤلاء ثمانيةَ أعوام وأنفقوا مبالغَ طائلة ، فكانت النتيجة التى وُصِلَ إليها هى : « انه يجب أن تُعْزَى عِلَلُ الهزيمة إلى تَفَوُّق الحلفاء الحربىّ والاقتصادىّ ، وانه لا يُمْكِن أن يُنْسَب أىُّ خطأٍ إلى قادة الألمان » .

إن هذه النتيجةَ مختلفٌ فيها ، وذلك لأنه إذا كان من الصعوبة الشديدة أن يُصَاغَ رأىٌ قاطع عن عِلَل هزيمة الألمان فإن من الممكن أن يلاحَظ صدورُها عن عاملٍ نفسىٍّ أساسىٍّ ، لا رَيْب ، غَفَلَتْ عنه اللَّجنة ، وهو ضَيَاعُ الثقة بالنصر النهائىّ ، وكان ضَيَاعُ الثقة هذا ينشأ عن نَقْصِ بصيرة إمبراطور ألمانية الذى أدت أغاليطُه النفسية إلى تدخُّل جيشٍ أمريكىٍّ يزيد كلَّ يوم ، وكان الشأنُ الحربىُّ لهذا الجيش الذى ارتُجِلَ على عَجَلٍ فى حُكْمِ المعدوم ، ولكنه كان بالغَ النفوذ ، فلم يَلْبَثْ أن قُطِعَ أملُ مَدَنيي الألمان والجيشِ الألمانىِّ من نَيْلِ نَصْرٍ على مِثْل هذا الجَمْع ، فغُلِبت

ألمانية فى آخر الأمر بعواملَ نفسيةٍ أكثرَ تأثيراً من الدافع .

* * *

ومهما يَبْقَ من نقصٍ فى المناهج التاريخية التى تُشْتَقُّ منها أحكامُنا فإنها حَقَّقَتْ تقدُّماً جديراً بالذكر مع ذلك ، ويشاهَدُ هذا التقدمُ عند المقابلة بين الآراء الحاضرة فى بعض النُّظُم ، كالإقطاع مثلاً ، وما كان يُصَاغُ فى موضوعه من آراءٍ منذ نحو نصف قرنٍ من قِبَل كتابٍ كثيرين ، ولا سيما المؤرخُ المشهور غيزو ، فقد قال :

« لم تَشْعُر الشعوب بغير الحبِّ والشكر حينما كانت تقام الحُصُون الإقطاعية ، فهى لم تُبْنَ ضِدَّها ، بل من أجْلِها ، وكانت هذه الحصونُ مركزاً عالياً يقوم بالحراسة فيه حُمَاةٌ يترقبون العدوَّ ، وكانت مستودَعاً أميناً لمحصولاتها وأموالها ، وكانت ، إذا ما وقعت غاراتٌ ، ملجأً لنسائها وأولادها ولأنفسها ، والحقُّ أن كلَّ حِصْنٍ قوىٍّ كان ينطوى على سلامة كُورَةٍ .

« وعادت الأجيالُ الحديثة لا تَدْرِى ما الخَطَرُ ولا الحاجةُ إلى النجاة » .

إذَنْ ، كان النظامُ الإقطاعىُّ ضرورةً فى زمن ظهوره ، أى فى زمن الغَزَوات ، وكانت الخِدَم التى يقوم بها تُسَوِّغ التكاليفَ المفروضةَ مبادلةً ، ولم يُمْقَت هذا النظامُ إلاَّ بعد أن صار غيرَ نافعٍ فزَعَم أنه يحافِظُ على امتيازاتٍ لم يَبْقَ مايُسَوِّغها ، وقد جاء زمنٌ أنقَذَ الإقطاعُ فيه فرنسة التى تخلَّت عنها السلطةُ المركزية ، ثم جاء زمنٌ عاد الإقطاعُ لا يَنفَعُ فيه لغير البَغْىِ على البلد ، وهذا الذى جعله ممقوتاً .

* * *

والتاريخُ ، فيما عدا الحوادث الصغيرة التي يختلف تفسيرها بكلٍّ اتجاه جديد ، يتألفُ من آراء عامة لا تلبث أن تستقرَّ حَوْلَ كلٍّ دَوْر ، فهذه الآراء العامة هي التي تُعَرِّفُنا الكتبُ بها .

وقد تَنَوَّعت هذه الآراء العامة كثيراً لِفقْدان روح النقد ، حتى إنه يُرَى ، عند عدم النظر إلى غير الحوادث التي وقعت منذ ١٥٠ سنة ، أن هذه الحوادثَ أدت إلى أكثر التفاسير تناقضاً حَوْلَ تكوينها ونتائجها ، ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما جاء في تاريخ الثورة الفرنسية التي عُدَّت في ثلاثة أرباع قرنٍ حادثاً عجيباً لإصلاحها جميعَ شؤون الحياة ، فقد حَرَّرت فرنسة من نِير الطُّغاة ، وألغت الامتيازات ، ووضعت من المبادئ الجديدة ما يكون به مختلِفُ الشعوب سعيداً باعتناقها ، وصارت المذاهبُ الثورية دُستورَ العالَم بفضل حربٍ دامت عشرين عاماً في طول أوربة وعرضها .

وقد بَقِيَ هذا المبدأ ، الدينيُّ حَقًّا ، عن دَوْرٍ من أكثر أدوار التاريخ شؤماً ، ثابتاً لا يتزعزع إلى أن أوجبت مناهجُ النقد الدقيق ، التي حَمَل لواءها مؤرخون كثيرٌ ، ولا سيما تِينُ ، استبدالَ الحقيقةِ بالأوهام ، وهنالك رُئِيَ أن الامتيازاتِ التي ألغتها الثورة الفرنسية كانت سائرةً نحو الزوال قبل حدوثها ، وأن المساواةَ أمام القانون كانت تُوشِكُ أن تُفرَض في كلِّ مكان ، وهناك رُئِي أيضاً مقدارُ الوهم في الإكليل المَجيد الذي كان المؤرخون الروائيون يتوِّجون به هذا الدَّوْر ، فقد رُدَّ « غيلانُ العهد » إلى نِسَب عادلة وظَهَر المستوى وَضيعاً جِدًّا ، بعد أن ثَبَتَ أن أوهامهم كانت كبيرة وأن أحكامهم كانت حقيرة .

أَجَلْ ، إن الثورة الفرنسية أوجدت مساواةً في حقوق المواطنين لا عهد للماضى بمثلها ، غير أنها قضت على كلٍّ استقلال في الحياة الإقليمية البالغةِ النشاط فيما سَلَف ، فصار لا يُتَصَوَّرُ اليومَ وجودُ مجلسٍ للمديرية ، أو وجودُ مجلس عامٍّ مَثَلاً ، يقاوِم الأوامرَ الصادرةَ عن وزارة الداخلية ، وكانت مقاومة مُخْتلِف البرلمانات للأوامر المَلَكية ، ولا سيما رفضُ الموافقة على ضرائبَ جديدةٍ ، من عادات العهد السابق اليومية ، ويكفى للدلالة على ذلك أن يُذْكَرَ من بين ألف مثالٍ وَضْعُ بَرْلمانِ غِرِينُوبْل الذى رَفَض الخضوعَ للمراسيم المَلَكية ، وإليك العبارةَ التى ذكرت بها إحدى الصحف هذا الحادثَ منذ عهدٍ قريب :

« حَدَث فى سنة ١٧٦٠ أن حَمَل محافظُ دُوفينه ، الكُونت مَرْسيُو ، بالقوة على تسجيل مرسومٍ مَلَكىٍّ يَفْرِض ضرائبَ جديدةٍ ، وحَدَث فى سنة ١٧٦٣ أن جَرُؤَ بَرْلمان دُوفِينه على إقامة تظاهرات تجاه السلطة المَلَكية ، وحَدَث فى سنة ١٧٨٦ أن رَفَض مُجَدَّداً تسجيلَ مرسوم ، وحَدَث فى سنة ١٧٨٧ أن دعت الحكومة أعيان الولاية إلى اجتماعٍ لإحباط عمل البَرْلمان ، فأعلن هذا البرلمانُ للملك وللأمة خيانةَ من يشترك فى ذلك الاجتماع ، فأُبْعِدَ القضاةُ فى سنة ١٧٨٨ ، وكان سَفَرُهم سبباً لعصيان الأهلين ، ويجتمع الأعيان فى دار بلدية غرِينُوبل ، ويقررون الاحتجاجَ على تَعَدِّى البَلاَط ، ويطالبون بحفظ امتيازات البرلمان الدُّوفينىّ .

« ويُذْعَر البَلاطُ فيرسل كتائبَ ، وهنالك يقيم ممثلو الطبقات الثلاث بقلعة ڤِيزِيل التى تَدْخُل فى التاريخ » .

ثم إن استقلال القضاء كان في العهد السابق أوسعَ بمراحلَ مما في الوقت الحاضر ، ويُمْـكِن أن يُحْكم في هذا بالأمر الآتي الذي جاء في إحدى الصحف الكبرى والقائلِ ، على حسب تقرير وزير العدل مسيو راوُول پيرِه ، إنه تلقى في بضعة أشهر ٨٠٠٠ رسالة من رجال البرلمان يلتمسون فيها أوسمةً أو ترقِّياً للقضاة .

ويُذْكَرُ تحريرُ الفلاحين كإحدى النتائج الكبرى التي أسفرت عنها الثورة الفرنسية ، ولكن مثلَ هذا التحرير قد تَمَّ من قِبَل حكوماتٍ ملَكية في البلدان الأخرى ، ومن ذلك أن لُوحِظَ بحقٍّ كونُ حكومةِ ڤينه الإمبراطوريةِ قد حققت تحريرَ الفلاحين هذا ، وكونُها جعلت التجارةَ والمواصلاتِ عصريةً في هُنْغَارية ، وفي أيامنا أتت رومانية مِثْلَ هذا التطور من غير أن تَقَع أيةُ حركةٍ ثورية .

وهل يكون للأمة عِوَضٌ في تعجيل إصلاحٍ ، كان يُحَقَّق مع الزمن تحقيقاً غريزياً ، مما تكون قد عانَتْه من عنفٍ وتخريبٍ نتيجةً لثورةٍ تَهْدِفُ إلى إنجاز ذلك الإصلاح بسرعة ؟ يتوقف على الجواب عن هذا السؤال ما يمكننا أن نُصْدِرَ من أحكامٍ حَوْلَ الثورة الفرنسية وحَوْلَ عصر الانقلابات التي تُعَدُّ أصلاً لها .

أجَل ، إن الحماسة العمياء السابقة حَوْلَ ذلك الدَّوْر دامت زمناً طويلاً ، ولكنها ضَعُفَتْ في أيامنا كما يَلُوح ، وتُسَوِّغُ روحُ النقد استنباطَ معارفَ كثيرةٍ من هذه الأزمة الكبرى ، ولاسيما ما يجب على الأممِ الراغبةِ في اجتناب الثوراتِ ، من أن تلائم بالتدريج مقتضياتِ الزمنِ

الجديدةَ التى تنشأُ عن تحولات العالمَ المتصلةِ .

* * *

وتساعدُ الملاحظاتُ السابقة على بيان مقدار ما تتحول به مبادئُ التاريخ القديمة بظهور روح النقد .

فبَيْنَا كان مؤرخو الماضى يُفَسِّرُون الحوادث على حسب مشاعرهم الشخصية ومعتقداتِ زمانهم يعتنق مؤرخو الوقت الحاضر بالتدريج مبدأَ الضرورات التى تُقَيِّدُ العالم ، وسواءٌ أكانت هذه الضروراتُ حربيةً أم دينية أم اقتصاديةً فإنها تختلف باختلاف الزمان ، فيقومُ عمل المؤرخ على تعيين الضرورات التى تؤثِّر فى الأمم فى مختلف مراحل تطورها .

وتُمَهِّدُ مصاعبُ تلك التفسيرات بعضَ التمهيد بفضل الوثائق التى تُلْقِى شيئاً من اليقين على حوادث الماضى ، فالكتبُ الحجرية كالمبانى والتماثيل والخطوط ، وكذلك المؤلَّفاتُ التى يُفْتَرَض أنها وليدةُ الخيال الخالص كالأقاصيص والروايات والأحاديث ، زاخرةٌ بالمعارف الدقيقة ، فقد صدر التاريخ الصحيح عن وثائقَ لم يُبْحَثْ عنه فيها .

البَابُ الثالث

اصْلَاحَاتُ التّاريخ العلميّة

الفصل الأول

أشكالُ التطورِ الاجتماعيِّ العامةُ

تاريخُ الأمم حافلٌ بالأحوال العَرَضية التى لا يستطيع عقلٌ أن يُبْصِرَها ، ولكن نُظُمَهَا وعاداتِها تعانى تطوراً منتظماً انتظاماً كافياً ، وبما أننى كنت قد درستُه فى كتابٍ آخر[1] فإننى أكتفى بإحالة القارئ عليه ، ففيه يَرَى كيف ظَهرَ ونَمَا التملكُ والأسرةُ والحقُّ والأخلاقُ ومختلفُ عناصر الحياة الاجتماعية .

ومعرفةُ ماضى البشرية حديثة ، وبَلَغ من جهله فى زمن الثورة الفرنسية ما كان يُقْتَرَح معه اتخاذُ المجتمعاتِ الابتدائية قُدْوَةً .

وقد صُحِّحَت مراحلُ التطور الاجتماعىِّ ، التى قُطِعَت بالتتابع ، وَفْقَ مناهجَ متنوعةٍ ، ومن أكثر هذه المناهج فعلاً دِراسةُ الأممِ الوحشية التى بَلَغَتْ وجوهاً من التطور مختلفةً .

ومع ذلك فإنه يُمْكِن أن يُبْصَرَ بعضُ أشكالٍ ابتدائية للبشرية بدراسة الولد فى السنين الأولى من حياته ، فهذا المتمدنُ المُقْبِل ، إذ يُكَرِّرُ متعاقبَ المراحل لحياة الأجداد الطويلة ، لا يكون فى البُداءة سوى موجودٍ مندفع يَجْهل الرحمةَ والحَذَر ومحبةَ الآخرين ولا يَعْرِف غيرَ قانون الأقوى ، ولا يَعْلَمُ جميعَ الصفات المفروضة على الإنسان بتكديسٍ من الجهود المكرَّرة

---

(١) « الإنسان والمجتمعات ، مصدرهما وتاريخهما » ، ويقع فى مجلدين .

فى قرون كثيرة ، وهو يَسِيرُ بقَسْوة الهمجىِّ ، وضعفُه وحدَه هو الذى يَحُول دون ظهوره خَطِراً .

وإذا نُظِرَ إلى الولد من الناحية الذهنية وُجِدَ أقربَ إلى الأجداد فى العصر الحجرىِّ منه إلى آبائه الأَدْنَيْنَ ، ويظَلُّ ذكاؤه ابتدائيًّا زمناً طويلاً ، ولاتقوم معارفه فى بدء الأمر على غيرِ تسلسلٍ غليظ ، شأنُ معارف الفطرىِّ .

* * *

ولا يتمُّ تقدم البشرية فى غُضُون الأجيال إلاَّ بتكديسٍ بطىء من التحولات المختلفة باختلاف شروط الحياة ، ومن ذلك أن الأهلين الذين يجهلون الزراعة ولايعيشون بغير ما يُنتِجهُ صَيْدُهم كانوا يرَوْن من الواجب الطبيعىِّ أن يَقْتُلوا ، وأن يأكلوا أحياناً ، من يَهْرَم من أقربائهم اتباعاً لسَيْرِ العشيرة غيرِ المنقطع .

ومن بين مناهج تصحيح الماضي تَبْرُز الأحاديثُ والأقاصيصُ أيضاً ، أى تَبْرُز أولى رسوم التاريخ ، فهى تَكْشِفُ عن الضرورات التى عيَّنَت العاداتِ والنُّظُمَ ، ولاسيما الأمومةُ وتعددُ الأزواج من الذكور ، وإذا ماقرأنا فى إحدى الحماسيات الهندية كونَ دَرُوپَدِى الحسناء قد تزوجت أبناءَ الملك پانْدُو الخمسةَ أمكننا أن نستخرج من هذا أن عدد النساء فى البلد الذى تَمَّت فيه هذه الاقترانات أصبح أقلَّ من عدد الرجال ، كما يُلاَحَظُ هذا حتى الآن فى بقاعٍ كثيرة منعزلة ككَشْميرَ مثلاً .

ومن الطبيعىِّ أن يختلف الزمنُ اللازمُ لتحقيق أحد التحولات الاجتماعية بالتطور باختلاف نفسية كلِّ أمة ، فعند بعضها تجِدُ دَوْرَ الحجر المنحوت ،

الذى هو صفةُ أوائلِ ماقبل التاريخ ، قد امتدَّ حتى أيامنا ، وقد لَقِيتُ بعضَ بقايا هذا الدَّوْر فى أثناء رِحْلاتى فى الهند على الخصوص ، فالإنسانُ إذا طاف فى شِبْه الجزيرة الكبْرَى هذه أمْكَنَه أن يَرَى انتشارَ أدوارِ الإنسانية المتعاقبة المترجّحة بين عَصْرِ الكهوف وعَصْرِ الهاتف .

وكانت مراحلُ التطور المَدَنىِّ الأولى بعيدةَ المَدَى إلى الغاية فلم تُجاوَزْ إلا فى زمنٍ طويل جدًّا ، وكان لا بُدَّ للإنسان الابتدائىِّ أن يُكدِّس جهوداً قَبْلَ أن يُحَقِّق تقدماً كثيرَ البساطة ظاهراً كصُنْع النار وحَرْث الأرض وزرعها وجَمْعِ بِضْعِ كلماتٍ يتألفُ منها رسمُ لغةٍ ، إلخ . ، فلما تَمَّت الخُطُواتُ الأولى سار التقدمُ سيراً ثابتاً سريعاً ، ومع ذلك فإن الزمن الضرورىَّ لبلوغ الإنسان الابتدائىِّ درجةَ أبسط الحضارات يُقَدَّرُ بمدةٍ تترجَّحُ بين خمسين ألفَ سنة ومئةِ ألفِ سنة .

وصار التقدمُ بالغَ السرعةِ فى زمنٍ بالغِ الجِدَّةِ فقط ، فقد كان القرنُ الأخير شاهداً ، فى مختلف فروع المعرفة ، على اكتشافاتٍ أعلى بمراحلَ من جميع الاكتشافات التى تَمَّت فى أثناء تعاقب الأجيال التى سَبَقَتْه ببطء[1] .

وما وقَعَ من تحقيقٍ عن تطور الأمم ظَلَّ مجهولاً زمناً طويلاً ، فلم

(١) قدر بسبعمئة مليون سنة(؟) مامر من زمن بين ظهور المستحاثات التى تدل على حياة الموجودات الأولى ، والتى وجب أن تكون الموجودات الحاضرة قد خرجت منها بعد ما لا يحصيه عد من التحولات ، وقدرت بخمسين ألف سنة على العموم مدة ما قبل التاريخ ، أى الزمن الذى اقتضاه أجدادنا الأولون ليخرجوا من الحيوانية الأولى ، وقدر الزمن الذى مر بين أوائل الحضارات الأولى والزمن الحاضر بما بين سبعة آلاف سنة وثمانية آلاف سنة على الأكثر ، ويعد دور الاكتشافات الكبرى ، كالبخار والكهربا ، إلخ . ، التى قلبت حياة الأمم حديثاً جداً ، فهو لا يكاد يبلغ ١٥٠ سنة ، فهذه الأرقام تدل على بطء التقدم الأول المتناهى وسرعة التقدم الذى ظهر تتويجاً له .

يَزَلْ مؤرخون من ذوى الفضل ، كرِينَانَ ، يتصورون إلى وقتٍ قريب كونَ الأغارقة ظهروا فى التاريخ حائزين بغتةً حضارةً رفيعة ، واليومَ نَعْلَمُ أن أمم كَلْدَةَ ومصرَ كانت قَبْلَ الأغارقة بزمنٍ طويلٍ قد أَنْضَجَت على مَهْلٍ كلَّ تقدمٍ ظَهَرت الحضارةُ الإغريقية إزهاراً له ، والحقُّ أنه كان لابُدَّ لإعدادِ هذه الحضارة من جهودِ أربعة آلاف سنة ، أوخمسةِ آلاف سنة ، موزعةٍ بين سهول كَلْدة وضفافِ النيل ، وكانت الثَّقافة اليونانية فى الأزمنة القريبة من پِرِكْلِس تُمَثِّلُ حاصلَ حضاراتٍ كثيرة صُهِرتَ فى واحدة ، ففى آسية وشمال إفريقية ، لافى بلاد اليونان ، كان أصلُ الحضارة الإغريقية إذَنْ .

ويصبح تطور إحدى الأمم رَجْعياً بعد أن كان تقدمياً ، فبهذا الرجوع تُبْصِرُ جميعُ الحضاراتِ ختامَ دَوْرتِها .

وتتجلَّى معلولاتُ مثلِ ذلك الانحطاط لدى مختلف الأمم ، ولا سيما المعاصرون ، بالعَوْدِ من الحياة الفردية إلى الحياة الجَمْعية ، والواقعُ أن الانتقال من حال الهمج الفطريين إلى الحياة الفردية كان من تقدم البشرية ، فالحضارةُ تميل إلى الزوال إذا ما عاد الإنسان إلى الحال الأَلْبية ، أى إذا ما خَضَع لعوامل العدد مقداراً فمقداراً ، وتُعَدُّ الاشتراكيةُ ، والشيوعيةُ التى هى طَوْرُها الأخير ، مَظْهرَيْن خالصيْن لهذا الميل الرَّجعىّ .

* * *

وعلى العموم تَتَطوَّرُ الأممُ تطوراً يلائم الضرورات التى توجبها الأحوال ، وعندما يصبح مزاجُها شديدَ المحافظة فيَحُول دون تطورها بسرعةٍ كافية

لا تتمُّ الملاءمةُ الضروريةُ إلاَّ بثورة عنيفة ، ومن ذلك حالُ الثورة الفرنسية التى ألْغَتْ آخِرَ امتيازات الأشراف بعد أن عادت لاتُسَوِّغها أيةُ خدمة خاصة .

أجَلْ ، إن الثورات تُغَيِّر حالَ الشعب الحاضرة ، ولكن بما أنها لا تستطيع مَسَّ الحال الماضية فإن هذا الماضى لا يَلْبَثُ أن يستردَّ نفوذَه ، ويدلُّ تاريخ الانقلابات المتنوعة التى وقعت فى فرنسة فى القرن الذى عَقَب الثورةَ الكُبْرَى على سلطان هذا النفوذ ، أى وطأةِ القُوَى الموروثة اللاشعورية التى تُوَجِّهُ المشاعرَ ، ومن ثَمَّ توجِّه السَّيْرَ .

وتدلُّ الثورة الروسية مرةً أخرى على أن المبادئ ، التى يتمُّ الانقلابُ الاجتماعىُّ باسمها ، تَعُودُ غيرَ مَرْعِيَّةٍ من قِبَل الثوريين الظافرين ، وهكذا انتهى الشيوعيون ، الذين كانوا يريدون جعلَ المِلْك جَمْعِيًّا ، إلى إعادة المِلك الفردىّ ، وقد انتهوْا ، أيضاً ، إلى الحكم بأساليب الشُّرْطة الإرهابية التى كان يُطبِّقها القياصرة السابقون .

* * *

ومن الطبيعىِّ أن تَبْدُوَ شروطُ العيشِ الماديةُ ، التى تَخْضَعُ لها المجتمعاتُ ، بين العوامل التى تُعَيِّن تَطَوُّر هذه المجتمعات ، ومن الطبيعىِّ أن تختلف أساليبُ العيش باختلاف الأمم الصائدة والزارعة والتاجرة ، إلخ .

وكان يَلُوح عدمُ استحقاق هـذا الأمرِ الجَلِىِّ ، الذى لا جدال فيه ، لأىِّ إثباتٍ ، ومع ذلك فقد انْتُفِع به فى وَضْع المذهب المنعوت بالمادية التاريخية لقيامه على تفسير التاريخ تفسيراً اقتصادياً حَصْراً ، فبعد أن

قَرَّر واضعو هذا المذهب ، كما صُنِعَ غيرَ مرة ، أن الحوادث الاقتصادية تُقَيِّدُ الوقائعَ كثيراً قالوا مؤكِّدين إن جميع حوادث التاريخ المهمة تُشْتَقُّ من النظام الاقتصاديِّ لحينه ، فالحياةُ الاقتصاديةُ تُفَسِّر الحياةَ السياسية ، حتى الأفكارَ والمعتقدات .

وقد أدت هذه المبادئُ المُبَسِّطَةُ ، التي كان كارْل مارْكس رسولَها الأكبر ، إلى دِيانةٍ جديدة ، إلى الشيوعية ، وبما أن المذهب الشيوعيَّ يُقِيمُ الإدارةَ الحكومية مقام الجُهْد الفرديِّ فإنه يُعَطِّل كلَّ تقدم ، وما تتمتع به الولاياتُ المتحدة ، التي يقوم الجهدُ الفرديُّ فيها مقامَ الإدارة الحكومية خلافاً لذلك ، من رَخاء يدلُّ على ما لتطبيق هذين المبدأيْن من نتائجَ مختلفة .

ومن الطبيعيِّ أن تَظْهَر الأحوالُ الاقتصادية ، التي يُعَلِّق مذهبُ الماديَّةِ التاريخيةِ أهميةً كبيرة عليها ، بين عِلَلِ تطور الأمم ، ولكن من المُسْتَبْعَد أن تكونَ أهمَّها .

وكثيرٌ من العوامل الأخرى ما يُمَثِّلُ دوراً أساسيًّا فى بعض الأزمنة ، كمبدإِ القوميات الذى قام عليه إصلاحُ أوربة بعد الحرب الأخيرة ، ومبدإِ الوحدة الذى حَفَزَ كثيراً من الدول الصغيرة إلى إقامة إمبراطوريات كبيرة .

ولو وَجَبَ أن تُعْزَى الحوادثُ التاريخية إلى عِلَّةٍ واحدة ، كما يَصْنَعُ أنصارُ المارْكسية اليوم ، لأمكن أن يقال إن بُنْيَانَ الأمم الفِزْيُولوجيَّ ، أى العِرْقَ ، أهمُّ من العامل الاقتصاديِّ ، ويكفى لاعتقاد ذلك أن يُرَى أن العواملَ الاقتصادية عينَها تؤثِّرُ تأثيراً مختلفاً فى عروقٍ متباينة ، كالبِيض والزنوج ، إلخ .

وفى النظريات الشيوعية تُطْرَحُ أوضحُ الوقائع عندما يَلُوح أنها مناقضةٌ للمذهب ، ومن ذلك أنَّ كارْل مارْكس لايؤمن بغير سلطان الجماعات مع أن العالَمَ لايتقدم إلاَّ بالأخيار ، فالبخارُ والكهربا وجميعُ الاكتشافات التى حَوَّلت حياةَ الأمم أمورٌ تَمَّتْ بعمل أفرادٍ أقوياء ، لابعمل الجماعات على الإطلاق .

وبما أنه لايُمْكِن أن يُدْرَس فى هذا الكتاب مختلفُ المناهج التى يُصَحَّحُ بها الماضى تصحيحاً صادقاً فإننا نقتصر على درس المناهج التى تُزَوِّدُ فلسفةَ التاريخ بأسسٍ علمية حقيقية .

الفصل الثانى

تعيينُ الحوادث بالشهادة

يقوم التاريخ والعدلُ على ما تُمْنَحُه الشهادةُ من أهمية .

وإلى هذه السنوات الأخيرة ، أى إلى أن أتت المباحثُ النفسية الخاصة لتُلْقِيَ نوراً غيرَ منتظر على هذا الموضوع ، لم تكن قيمةُ الشهادات ليُجَادَلَ فيها مطلقاً عند افتراض صدورها عن حسن نية ، وكان من القاعدة أن يُعْتَقَدَ كلامُ الشاهد السليم القلب الذى يَقُصُّ أموراً رآها أو يَرْوِى أموراً عن أناسٍ كانوا قد رأَوْها ، ولِمَ لا يُصَدَّقُ الراوى إذا كان خالياً من الغَرَض ولم يستحوذ عليه هَوًى دينىٌّ أو سياسىٌّ ؟ ولِمَ لا يَرْوِى الرجلُ الأمينُ ، الذى يَقُصُّ حادثةً شاهَدَها ، خبرَها بإخلاص ؟ أَفَلَا ينطوى الشَّكُّ فى مثل هذه المعارف ذاتَ مرةٍ على عدولٍ عن كتابة التاريخ ؟

جاءت مباحثُ علمِ النفس التجرِبىِّ الحديثةُ لتَقْضِيَ قضاءً تامًّا على هذه الثقة المتأصلة حَوْل قيمة الشهادة ، وقد أثبتت هذه المباحثُ أن من المتعذر تقريباً نَيْلَ روايةٍ غيرِ زاخرة بالخطإِ عن أبسط الوقائع التى لا يمازجها أىُّ هَوًى أو غَرَض ، فالخطأُ ، لا الصوابُ ، هو الذى يؤلِّفُ القاعدة ، ويكون هذا الخطأُ خَطِراً بنسبة اقترافه فى الغالب عن حسنِ نيةٍ تامة ، وقام الدكتوران ، إ . بِرْنْهَيْمُ و بُورْت ، وغيرُهما بتجارِبَ بارزةٍ حَوْل هذا الموضوع، فرأى الدكتور بِرْنْهَيمُ أن من الصعب إلى الغاية نَيْلَ روايةٍ صادقةٍ تقريباً عن حادث مشهود .

وليست الشهاداتُ الإجماعية أصلحَ من تلك ، فهى تدلُّ ، عموماً ، على نتيجةِ تلقينٍ جَمَاعِيٍّ صادرٍ عن أحد الناظرين .

وأكثرُ التجارِب إمتاعاً حَوْل هـذا الموضوع هو ما أتاه الأستاذُ فى جامعة جنيف : كلاَپارِيد ، فلم يكن الأشخاصُ الذين خضعوا للتجارِب فى هذه المرة أفراداً أيًّا كانوا ، بل تلاميذُ أذكياء جِدًّا ، ومع ذلك فإن الشهاداتِ التى حُصِلَ عليها تُثِيرُ الأسَى تماماً ، وكان من أبرز الأسئلة التى طُرِحَتْ على الطلبة ما يأتى :

أَتُوجَدُ نافذةٌ داخليةٌ مُطِلّةٌ على مجاز الجامعة واقعةٌ على الشمال حين الدخول ومواجهةٌ لنافذةِ غرفة البواب ؟

أُنْكِرَت معرفةُ هذه النافذة ، التى كان التلاميذ يَمُرُّون أمامها كلَّ يوم ، من قِبَل أربعة وأربعين طالباً بين أربعة وخمسين .

وإلى ذلك أضاف المؤلِّف قولَه : « توجِبُ الشهادةُ الجَماعية التى هى من هـذا النوع شيئاً من القلق واليأس ، وذلك أنه إذا كان احتمالُ الصدق حَوْلَ أمرٍ مشهودٍ غيرَ متناسبٍ مع عدد الشهود الذين يُؤَكِّدون وقوعه ، هؤلاء الشهودَ الاعتياديين الذين سُئلُوا فى أحوال عادية عن وجود شىء اعتيادىّ ، هؤلاء الشهودَ الذين وُجِدُوا فى مكانٍ مألوفٍ لديهم ، فأىُّ مقياسٍ للصدق يبقى ؟

« ونتيجةٌ مثلُ تلك تثبت إثباتاً ساطعاً إمكانَ وجودِ الحقِّ بجانب فئةٍ قليلة تِجاه فئةٍ كثيرة فى بعض الأحوال ، لا من حيث كونُ قيمةِ الشهادة غيرَ متناسبةٍ مع عدد الشهود فقط .

« وهنا يُسْأَل : هل القاعدةُ ألاَّ تُعْرَفَ الأشياء الفاقدةُ النفع المحيطةُ بنا ، وهل من المصادفة وحدَها ، وعلى استثناء ، أن تَتْرُكَ هـذه الأشياء أثراً على لَوْح ذاكرتنا الحَسَّاس ؟ . . » .

ولهذا المؤلِّف ملاحظاتٌ أخرى تدلُّ على أن الأمرَ الاستثنائىَّ لا يُحْفَظُ أحسنَ ممـا تُحْفَظُ الأمور اليومية ، ومن الواضح أن من غـير الاعتيادىِّ تماماً أن يُوغِلَ رجلٌ مُقَنَّعٌ لابسٌ ثوباً غريباً ويَقْفِزَ فى المُدَرَّج حيث يُلْقِى أستاذٌ درسَه ، فالدكتور كلاَپَارِيدُ ، الذى نَظَّمَ هـذا المنظر من غير أن يُخْبِرَ به أحداً ، طلب من التلاميذ أن يُقَدِّموا خطيًّا سلسلةً من الأجوبة فى وصفِ ذاك الرجل ، وكان الخطأُ الذى اقْتُرِف فى ذلك عظيماً ، ومن ذلك أن أشار الشهود إلى جزئياتٍ فى الثوب غـيرِ موجودةٍ كالجَزْمَة[1] الـكبيرة والسِّرْوال ذى الترابيع ، إلخ .

ثم أُدْخِل بعضُ التلاميذ إلى بَهْوٍ حيث كان عددٌ من المُنَكَّرِين الشديدى التباين بلِحًى وغيرِ لِحًى وأنوفٍ قُنْوٍ وأنوفٍ قُعْوٍ[2] ، إلخ . ، فكان يَظْهَرُ بينهم ذلك الرجل الذى بَرَزَ بغتةً فى ذلك المُدَرَّج ، فلم يَعْرِفْه غيرُ ستة نُظَّار ، ولـكن بتردُّدٍ ، من بين ثلاثةٍ وعشرين .

ومما لا رَيْبَ فيـه أنه كان يُجْتَنَبُ فى جميع المسائل المطروحة ، وهو ما يَصْنَعُه قُضَاة التحقيق على قِلَّةٍ ، تلك التى يُمْـكِن أن يُلَقَّنَ بها الشاهد ، فالسؤالُ عن أن شَعْرَ المتهم لم يكن أشقرَ هو غـيرُ السؤال عن لوْن شعره فقط .

---

(١) Botte (٢) جمع أقعى ، وهو من الأنوف ما أشرفت أرنبته ثم مالت نحو القصبة .

* * *

ومن المباحث السابقة استخلص مسيو كلاپاريدُ نتائجَ كثيرةً ، وإليك خلاصتَها :

« كُلَّما قَلَّ تذَكُّرُ حادثٍ عَظُم المَيْلُ الجَماعىُّ إلى الشهادة حَوْلَه .

« والذى يَحْفِزُ الشاهدَ على الجواب هو احتمالُ وجودِ الشىء أكثرَ من جَلاَء تذكُّره .

« وبجانب الميل إلى إنكار ما هو موجودٌ يُوجَدُ ميلٌ إلى توكيد ما هو غيرُ موجود ، وهل فُصِّلَ هذا كذلك أيضاً ؟ » .

ودقةُ الشاهد فى مسئلةٍ لا تدلُّ على صِدْقه فى مسائلَ أخرى ، والعكسُ هو الواقع .

قال كلاَپَارِيدُ أيضاً : « إذا ثَبَتَ أن شاهداً أَدَّى جواباً صائباً كان احتمالُ صواب الأجوبة الأخرى ضعيفاً جدًّا ، ولكن هذا الاحتمال يكون أضعف من ذلك أيضاً إذا ما أَدَّى جوابيْن صائبين ، ويَظْهَرُ أنه يوجد للقدرة على الشهادة حَدٌّ طبيعىٌّ لا يستطيعُ متوسِّطُ الأفراد أن يُجَاوزه ، شأن القدرةِ على القَفْزِ عالياً مثلاً . . . وبثلاثة أجوبةٍ صائبةٍ من سبعةٍ يَلُوح بُلُوغُ شاهدٍ متوسطٍ حَدَّ قدرته على الشهادة الصحيحة .

« وفى الشهادة الجماعية ليس الجوابُ الصائبُ هو ما يَبْلُغُه ، دائماً ، مُعْظَمُ الأصوات النسبىّ .

« ويُسَلِّمُ المؤرخون بأن اتفاقَ كثير من الشهود المستقلين دليلٌ على الصدق ، وعلى العكس تدلُّ تجارِب علم النفس على أن الاختلاف الفردىَّ

كلما عَظُم وُجِـدَ ، مع ذلك ، بعضُ المناحى التى تسيطر على روح جميع الأفراد ، فيمكن أن يَحْدُث اتفاقٌ على الخطإ ، حتى لدى الشهود الذين يسير كلٌّ واحدٍ منهم مستقلاً عن الآخرين » .

* *

وسيُحْمَلُ أكثرُ من قارئٍ ، مختاراً ، على عَدِّ تجارِب المُخْتَبَر ، التى قامت عليها التجارِبُ السابقة ، خاصَّةً ، فيَزْعُم أن الأمور فى مَجْرَى الحياة تَسِيرُ على وجهٍ آخر .

والأمرُ غيرُ ذلك ، فمن غيرِ احتياجٍ إلى البحث التجرِبىّ يُمْكِنُ أن يُشَارَ ، عند العَوْدِ من رِحلةٍ ، إلى مقدار الشُّرُودِ والخطإ فى ذكرياتنا عندما نكتبها من ذاكرتنا فنقابل بينها وبين ما فى كتب الدليل من أوصاف ، أو نقابل بينها وبين الصور الفُوتُغْرافية .

قال الدكتور تُولُوز : « إذا ما بَيَّن سائحٌ ما يَذْكُره بعد جَوَلانٍ دُهِشَ واغتمَّ وخَجِل من الأشكال المضحكة المُشَوَّهَة المُغَلَّطة التى احتفظ بها فى أثناء نُزَهه ، ومن ذلك أننى أَحببتُ أَن أَقوم ببعض تجارِبَ حَوْلَ ذلك ، فسألتُ بعض الطَّوَّافين عما شاهدوه قَبْلَ قليلٍ من المناظر والمبانى فأَتَوْنى بأوصافٍ يُرْثَى لها ، ولشَدَّ ما ذَهِلُوا حينما عَرَضتُ عليهم صُوَرَ تلك الأمكنةِ الفُوتُغْرافيةَ » .

وفى جميع هذه الملاحظات السابقة لم يَدُرِ البحثُ فى غير الوقائع التى لا يُمْكِن أَن تتدخل فيها أهواءُ المُشاهِد الدينيةُ أو السياسية ، فإذا ما تحرَّكت هذه الأهواء جاوزت التشويهاتُ الحَدَّ ، ويُمْكِن أن يُسْتنتجَ

من هذا كونُ الحوادث تُمْسَخُ فى الأدمغة كلما تَمَّت ، وكونُ شهادة الأشخاص الذين يَرَوْنها لا تَصْلُح لغير تشويهها تشويهاً تامًّا .

وقد أتى جُول سيمُون بمثالٍ بارز عن فتنةٍ وقعت أمامه حيث قال :

«كنت قد قصصتُ غيرَ مرةٍ خبرَ يوم ٣١ من أكتوبر سنة ١٨٧٠ ، وكلٌّ قَصَّه على شاكلته ، ولا يُمكِن إلاَّ أن يُحَارَ كثيراً من تناقض أناسٍ كثير من ذوى الصلاح فيما بينهم عند ما يَقُصُّون وقائعَ كانوا قد شاهدوها ، وأَجِدُ فى كلِّ خُطوةٍ هذا المنظرَ الهائل ، وهو أن أَقلَّ ما يطمئنُّ إليه الإنسان هو نفسُه ، وهو لا يَثِقُ بعينيه ، لِمَا بين عينيه وذاكرته من ناحيةٍ وخيالِه من ناحيةٍ أخرى من صراعٍ مستمرّ ، هو يعتقد أنه يرى وأنه يَذْكُر ، فيَخْتَرِع » .

والتشويهُ أشدُّ ما يَبْدُو عميقاً فى الحوادث الدينية ، وهو يشاهَدُ فى قِصص الخوارق والظُّهورات الزاخرةِ بها الكتب ، ففى عشرة قرونٍ رأى الشيطانَ أُلوفُ الناس ، فلو عُدَّت الشهادةُ الإجماعية التى أَتاها هؤلاء الناظرون الكُثْرُ دليلًا لقيل إن الشيطان هو الشخص الذى يكون وجودُه قد أُثْبِتَ خيراً من غيره ، ومما لاحظه لانغلْوَا فى هذا الأمر وجودُ وقائعَ تاريخيةٍ قليلة قامت على مثل هذا العدد من الشهادات المستقلة .

* * *

وكان المؤلِّفون السابقون يُفَسِّرون هذا الاختلافَ فى الشهادات بقولهم إن بعض الشهود كان حسنَ النية وبعضاً آخرَ منهم كان سيِّئَ النية ، ويدلُّ علم النفس الحديث على أنه أُتِىَ بهذه الشهادات المتناقضة بأمانةٍ تامة فى

الغالب ، فكلُّ ما يشاهده الناظر يُمَثِّلُ صوراً استدعتها حادثةٌ فى خياله ، لا الحادثةَ نفسَها ، والناظرُ يستكمل سلسلةً من الخواطر والإنابات لم تَلْبَثْ نتائجها أن تبدوَ له من الحقائق .

وفى الشهادة يُمْكِن أن يقال ، على العموم ، إن الخَطَر فى حسن النية ، لا فى سوئها ، فيَسْهُل كَشْفُ سوء النية بتناقض الشاهد عند ما يُكَرِّر قصةً كاذبة ، ولكن كيف تُشَخَّصُ الضَّلالاتُ النفسية التى ذهب الشخصُ المُخْلِص ضحيتَها ؟ ثم إن سوء النية يتحول إلى حسن النية بتلقين ذاتىّ ، والواقعُ أنه يكاد يتعذَّر على الإنسان أن يُكَرِّر الكَذِبَ عينَه لزمنٍ طويل من غير أن يُصَدِّقه فى آخر الأمر .

وإذا كان من الصعب أن تُرْوَى الوقائع بدقةٍ فذلك لأن القدرة على الملاحظة تَظَلُّ قليلةَ النشوءِ حتى فى أبسط الأحوال ، كالنظر إلى بناء أو إلى ما يَحْدُث فى الشارع مثلًا ، ولا رَيْبَ فى أن رجال الجامعة عندنا ، فى كلِّ وقت ، عَدُّوا هذا الفَنَّ غيرَ نافع ما داموا لا يُعَلِّمُونه ، وهذا يُوضِح السبب فى كون تلاميذهم يَجُوزون الحياةَ من غير أن يَرَوْا شيئاً فيها .

ومع ذلك يُمْكِن أن تُكْتَسب صفةُ الملاحظة عمليًّا بمناهجَ سهلةٍ بعضَ السهولة قد عَرَضْتُها فى مكانٍ آخر .

وتَضْمَنُ الملاحظةُ الصحيحة للإنسان أفضليةً فى الحياة لا جِدالَ فيها .

وتدلُّ التجارِبُ ، التى أُدْرِجت فى هذا الفصل ، دلالةً واضحةً على كون الشهادة ، التى عُدَّت من أضمن مصادر التاريخ فيما مضى ، لا تنطوى على غير قيمة ضعيفة .

وجَمْعُ شهاداتٍ حَوْلَ حادثةٍ ، كما يُصْنَعُ اليوم عن الحرب ، عملٌ لا نَفْعَ فيه ، فليس بتكديس الخطأِ ما يمكن استخراجُ حقيقةٍ .

والآن نَدْرُس مناهجَ أُخرى أضمنَ بمراحلَ من المناهج التى ذُكِرَ نقصُها ، وذلك وصولًا إلى تصحيح حياة أحد الأدوار .

الفصل الثالث

تعيين حوادث التاريخ بدراسة المبانى والكتابات والأَوْسِمة

لا يُعَلِّقُ المؤرخون ، على العموم ، غيرَ أهمية ضعيفة على المبانى ومختلفِ آثار الفنِّ ، ولا سيما الأوسمةُ ، ومع ذلك فإن هذه الآثار تَظْهَر بين أضمن مصادر التاريخ ، فهى كُتُبٌ لا تَكْذِب أبداً ، وهى تشتمل على لغةٍ بالغةِ الوضوح ، بَيْدَ أنه لم يُبْدَأْ بإدراكها فى غير أيامنا .

والمبانى ، من حيث بعضُ الحضارات ، هى المصدرُ الوحيد الذى يُصَحَّحُ به الماضى تقريباً ، فبفضل هذه الآثار الحجرية يُعَدُّ اطلاعنا على المصريين والآشوريين والهندوس ، مثلاً ، أفضلَ من اطلاعنا على أمم ظهرت على مَسْرح العالَم بعد هؤلاء بزمن طويل جدًّا ، كالغوليين مثلاً .

ويَكْشِفُ فنُّ البناء ، أحياناً ، عن عناصر التاريخ التى لا تُحَدِّث عنها الكتب ، وهكذا دَرَسْتُ مبانىَ الهند حيث هى فاستطعتُ أن أقرأ على النقوش البارزة عِلَلَ زوال البُدَّهية فى شبه الجزيرة الكبرى ، والبُدَّهيةُ ما اعْتُقِدَ حتى ذلك الحين أنها زالت بفعل الاضطهادات العنيفة مع أنها توارت بانصهارها فى الديانات السابقة .

وَتؤدِّى دراسةُ الآثار الفنية إلى تصحيح الآراء الكلاسية ، وإذا ما اعْتُقِدَتْ أقاصيصُ المؤرخين المُجْمَعُ عليها تقريباً عُدَّت القرونُ الوسطى

دَوْرَ وحشيةٍ سوداء ، وإذا كانت هذه الوحشيةُ حقيقيةً من الناحية الذهنية لم تكن كذلك من حيث الحياةُ الفنية ، فإذا نُظِرَ إلى روائع البَنَّائين والمصوِّرين والنحاتين والصُّوَّاغ فى ذلك الدور رُئِىَ أن الفنَّ القومىَّ لم يَبْلُغ من النشوء ما بلغه فى القرون الوسطى ، حتى إنه يُمْكِن أن يقال ، على الرغم من رأى كثير من المؤرخين ، إن تطور عصر النهضة كان رَجعيًا أكثرَ من أن يكون تقدُّمياً من بعض الوجوه .

وبِضْعُ دقائقَ تُقْضَى فى فِنَاء قصرِ بِلْوَا مثلاً تَكْفِى لمشاهدة نَمُوذَج مُمْتِعٍ عن تأثير تلك الرَّجعة فى فن البناء ، فمن ناحيةٍ من الفِناء يُرَى جَناحُ لويسَ الثانى عشرَ العجيبُ ، وفى الجانب الأمامىِّ يُرَى المُقَدَّمُ اليونانىُّ اللاتينىُّ لغَسْتُونَ الأورْليانىِّ ، ولأىٍّ سبب ؟ ذلك لأن دراسة المبانى اللاتينية القديمة كانت قد أوجبت عَدَّ الفنِّ القوطىِّ القديم من عمل البرابرة ، ولو سَمَح الزمن لغَسْتُونَ الأرليانىِّ لأقدمَ ، كما قِيلَ ، على هدم جميع الجَناح الذى يُعَدُّ من روائع الفنِّ الفرنسىّ .

وتُقَدِّم الآثارُ الفنيةُ لنا شهاداتٍ صادقةً عن جميع الموضوعات التى تنطوى على دراسة إحدى الحضارات ، ويُمْكِن أن يقال ، على العموم ، إنها تَنِمُّ على ما ظهرت فى زمنه من الأفكار والمعتقدات والرَّغَبات ، حتى الأزياء ، ويشتمل جميعُ البدائع الفنية ، من نحتٍ وألواحٍ وأوسمة ، إلخ . ، على لغة جليةٍ أيضًا ، فالمتفننون يؤلِّفون ، على شكلٍ منظورٍ ، بين احتياجات الزمن الذى يعيشون فيه ومشاعرِه ومعتقداته .

ومن آثارهم نَعْلَم ، أيضاً ، كيف تتطوَّر الفنون وكيف تُحَوِّل الأممُ ،

على عجلٍ ، ما يلوح أنها اعتنقته منها لتتمثَّلها وَفْقَ مزاجها النفسىّ ، ولا تَلْبَثُ نُسَخُ آثار الفنِّ الأجنبية أن تكسِب شكلاً قوميًّا ، فما كان المتفننُ الهندوسىُّ ، ليقدِر ، مثلاً ، عَلَى استنساخ أثرٍ أوربىٍّ من غير تحويله ، ويَعْرِف الإيطاليون جيداً فنَّ القُوط الذى كانوا ينتفعون فى الوقت المناسب بعناصره المهمة الثلاثة وهى : الحَنِيَّة المكسورة والقبةُ المُضَلَّعَة والقوسُ المُنَطَّقَة ، ومع ذلك فإنهم لم يستطيعوا قَطُّ أن يقيموا فى إيطالية بناءً قوطيًّا حقيقيًّا مذكِّراً بكنائسنا الجليلة ولو من بعيد ، وقد كان هذا عندهم فنًّا مستعاراً خالياً من كل صبغةٍ قومية ، وما انفكت كنائسُ تُسْكانة الجميلةُ ، ولا سيما كنائسُ فلورَنسة ، تحافظ عَلَى رسم الكنائس اللاتينية القديمة ، ولا تَجِدُ فى أكثر مبانى إيطالية قوطيةً ، أى فى مبانى سيان ، من القوطية غيرَ الحَنِيَّة المكسورة فى الأروقة ، أَجَلْ ، جاء فى الكتب أن كنيسةَ مِنِرْڤا فى رومة نموذجٌ للفنِّ القوطىِّ ، غيرَ أن منظرها العامَّ لا يَمُتُّ إلى القرون الوسطى بصلة ، وكلُّ ما فى الأمر هو أن بعض العناصر القوطية قُرِن فيها بعناصرَ أخرى فقط .

وإذا ما أقيمت مبانٍ من قِبَل متفننين لا ينتسبون إلى الأمة التى تؤويهم عانى هؤلاء المتفننون ، عن ضرورةٍ ، تأثيرَ البيئة التى نُقلوا إليها ، ومما لُوحِظَ بحقٍّ كونُ كثيرٍ من مبانى بُروجَ القوطيةِ من صُنْع الأجانب ، بَيْدَ أن روح المدينة اشتملت عَلَى هؤلاء الأجانب فاقْتَبسوا الروحَ البرُوجية فى برُوج ، ولم يَصْنَع الإيطاليون ، الذين شادوا بِيَعاً فى روسية ، كنائسَ إيطاليةً ، بل أقاموا كنائسَ عَلَى الطراز البِزَنطىِّ الذى كان ، ولا يزال ، طرازَ روسية ، هذا البلدَ الذى بلغ من البربرية ما لم يُبْدِعْ معه طرازاً قوميًّا فى الحقيقة .

والواقع أن المتفنن يعانى طابعَ بيئته تماماً ، وهذا ما تقوم عليه قيمةُ أثرِه التاريخيةُ ، وهو يَبْلُغُ من إشباعه بذلك ما تُبْصِرُ معه جميعَ مظاهر الزمن الفنية مشتملةً ، بلا استثناء ، على طابع الفصيلة التى يُمْكِن أن تؤرَّخ بها .

* * *

ودراسةُ الكتابات تُجَهِّزُ المؤرخين ، أحياناً ، بوثائقَ نافعةٍ لهم كدراسة المبانى ، ومن ذلك أن كلماتٍ قليلةً منقوشةً على حجر دِمْياطَ (؟) الشهيرِ أعانت شَنْپُلْيُونَ على اكتشاف معنى الخطِّ الهِيرُغْليفىّ ، فقد كانت الكتابة الهيرُغليفية منسيةً تماماً مع أنه كان يُتكَلَّم باللغة مدةَ خمسة آلاف سنةً و ستة آلاف سنة .

وهكذا ، أيضاً ، ساعد فَكُّ كتابات أشُوكَا الشهيرةِ ، القريبةِ من أوائل التاريخ النصرانىِّ ، على كون حضارة الهند ، التى كان يُعْزَى إليها قِدَمٌ أسطورىٌّ ، من أحدث حضارات التاريخ .

وكذلك الأوسمةُ مفيدةٌ كالمبانى والكتابات للكشف عن حياة دَوْرٍ ما ، فإذا ما اقْتُصِرَ ، مثلاً ، على قراءة الكتب الكثيرة التى نُشِرَت عن إحدى وقائع تاريخنا البالغة الخِصْب من حيث النتائجُ ، أى مذبحةِ السان بارْتِلْمِى ، ظُفِرَ ، على حسب دِيانة المؤلف ، بمعارفَ متناقضةٍ جدًّا حَوْلَ الوجه الذى نُظِرَ به إلى هذا الحادث من قِبَل معاصريه ، وعلى العكس حُصِلَ على معارفَ قاطعةٍ عنه بدراسة الأوسمة الثلاثة التى نشرنا صورةً لها فى أول هذا الكتاب ، فقد ضُرِبَ اثنان منها بأمرٍ من ملك فرنسة ، وضُرِب الثالث بأمرٍ من البابا ، تبجيلاً للمذبحة ، وما نُقِشَ على هذه الأوسمة من كتاباتٍ لا يَدَعُ شكاً حَوْلَ مشاعر صانعيها ، وتُكْمَلُ المعارف التى

ظُفِرَ بها على هذا الوجه بدراسة الصور الفُوتغْرافية المأخوذةِ عن الصُّوَر التى لا تزال ظاهرةً فى الڤاتيكان ، والتى حَمَل البابا على رسمها من قِبَل ڤِيزارِى ، عَرْضاً لجزئيات مَقَاتِل الهُغْنُوت فى أثناء مذبحة السان بارْتلْمِى ، وهكذا تؤدِّى ثلاثةُ أوسمةٍ وبعضُ الصور إلى استقصاء مسئلة من أهمِّ مسائل التاريخ .

* * *

وليست دراسة الفنون ، من خِلال الحضارات ، جزءًا من التربية الكلاسية ، ومع ذلك فإنها تنطوى على معرفة تاريخية من الطِّراز الأول كما يُرَى بما تقدَّم .

وإذا وُضِعَتْ أمام عيونِ الطَّلَبة صُوَرٌ عن المبانى التى أقامتها أممٌ حائزةٌ لدينٍ واحد ولغة واحدةٍ ، ولكن مع الإقامة ببلدان مختلفة ، كالمسلمين فى الأندلس ومصرَ والهند ، أطْلَعهم الأستاذُ على ما اعْتَوَرَ فنَّ البناء من تحويلاتٍ سريعة بفعل مختلفِ العروق ، وهو ، لكى يُثْبِتَ أن هذه التحولاتِ لا تنشأ عن فروقٍ بين البقاع ، يَدُلُّ على تأثير العِرْق بدلالته على كَوْن طُرُزِ البناء فى البلد عينِه ، كالهند مثلاً ، قد اختلفت إلى الغاية بين ولايةٍ وولايةٍ فى قرونٍ كثيرة من العهد الإسلامىّ ، وذلك عن تباين العروق التى أبدعت هذه المبانى .

وسنُفَصِّلُ المسئلةَ فيما بعدُ فندلُّ على أن جميع مظاهر حضارة الأمة كالنُّظُم والآداب والفنون تُعبِّر عن روح العرق ، فلم يعتنقْ شعبٌ ديانةَ شعوبٍ أخرى ونُظُمَها وفنونَها من غير أن يحوِّلها خلافاً لِمَا عُلِّم زمناً طويلاً ، فالتاريخُ لا يقول هذا ، وآثارُ الفنِّ تُظهِرُه جَلِيًّا .

الفصل الرابع

تعيينُ بعض الحوادث الاجتماعية بالإحصاء

يستند مبدأُ الجَبَرية ، الذى يسيطر على الفكر العلمىِّ بالتدريج ، إلى ثبات بعض الحوادث ، على الخصوص ، عندما تصبح جماعية .

وتثبتُ الملاحظةُ ، فى الحقيقة ، أن الأحوال الفردية إذا كان يتعذَّر البصرُ بها تَنِمُّ الأحوال الجَماعية ، كالمواليد والزواجات والوَفَيات ، إلخ . ، على انتظامٍ عظيم جدًّا .

ولم تلبث المناهجُ الإحصائية فى الاقتصاد السياسىِّ والاجتماعىِّ أن صارت لها أهميةٌ فائقة ، ومن الصواب أن قِيلَ « إن السُّنَن الاقتصادية الحقيقيةَ وحدَها هى التى أمضاها الإحصاء » ، ولا تتمُّ معرفةُ الوقائع مطلقاً من غير تحليلها العددىِّ .

والوثائقُ الإحصائيةُ تَظْهر ، إذَنْ ، بين أثمن ما يُمكِن الانتفاعُ به لدراسة تطور الأمة الاجتماعىِّ ، ولكنْ يجب أن تُوضَع بعنايةٍ إذا أُريد اجتنابُ الخطأِ الفظيع فيها ، فمما بَيَّنه مسيو تارْدُ ، مثلاً ، مقدارُ الوهم فى نَقْص الجرائم الذى كان يُسْفِرُ عنه إحصاء أَدَارَتْه المصلحةُ زمناً طويلاً ، ومقدارُ ما حام حَوْل هذا النقص الظاهر من تفاؤلٍ غيرِ قائمٍ على أساس .

والحقُّ أن الإحصاءاتِ لاتكون نافعةً إلاَّ إذا قامت على المقابلة وعَرَضت نسبةَ الحوادثِ المئويةَ .

ومبدأُ النسبة المئوية هذا على جانبٍ كبير من الأهمية ، وإنى بعد أن أدخلتُه سابقاً إلى الأنتربُولوُجية استطعتُ أن أُبيِّن الفروقَ الدماغية العميقة الفاصلةَ بين مختلف العروق البشرية ، هذه الفروقَ التى لم يستطع منهاجُ المتوسِّطات أن يقرِّره ، وماذا كان يُرَى حتى ذلك الحين بمقابلة ما بين حُجُوم الجماجم المتوسطة لدى مختلف العروق ؟ كانت ترَى فروقٌ تافهةٌ يُمْكِن أن تَحْمِل أكثرَ علماء التشريح على الاعتقاد ، كما كان يُفْرَض فى الحقيقة ، بأن وزن الدماغ واحدٌ فى جميع العروق تقريباً ، فلما استعنتُ بمنحنياتٍ خاصةٍ دالةٍ على النسبة المئوية الدقيقة لمختلف حُجُوم الجماجم أمكننى ، بالتصرف فى عدد عظيم من الجماجم ، أن أُبيِّن أن عدد الحُجُوم العليا تختلف ، بالعكس ، اختلافاً كبيراً على حسب الأمم ، فالعروقُ العليا تختلف عن العروق الدنيا اختلافاً جليًّا ، لا لقيامه على المتوسطات ، بل لأن الأولى تنطوى على عدد قليل من الأدمغة الكبيرة التى تحْرَمها الثانيةُ دائماً .

وتظلُّ الأدمغةُ الكبيرةُ غيرَ مؤثرةٍ فى المتوسطة لنُدْرتها ، ولكنها تمثِّلُ دوراً مهمًّا فى حياة الأمة ، ثم إن هذا البيان التشريحىَّ يؤيد المبدأَ النفسىَّ القائل إن مستوى الأمةِ الذهنىَّ يمتاز ، على الخصوص ، بنسبة ما تشتمل عليه من أصحاب النفوس العالية .

إذَنْ ، لا ينبغى أن يُنْظَرَ على انفرادٍ إلى العناصر التى تتألف منها المجتمعات للمقابلة بينها ، بل إلى ما بين هذه العناصر من نسبةٍ مئوية ، فمتوسطاتُ الإحصائيين تَظْهَرُ خادعةً فى الغالب ، وينشأ كثيرٌ من أغاليطنا فى الحكم ، وما يَعْقُبُها من تعميمٍ عابر ، عن نقص فى معرفة النسبة المئوية

للعناصر الواقعة تحت الملاحظة .

أَجَلْ ، تكون الوثائقُ الإحصائيةُ ذاتَ قيمةٍ بالغةٍ فى دراسة التاريخ ، ولكنه يتألَّفُ منها لسانٌ لا يَسْهُل تفسيرُه دائماً .

ويُمْكِن أن تصبح هذه الوثائقُ ، على الرغم من دقتها ، منبعَ خطأٍ خَطِرٍ إذا ما جَمَعَتْ أحوالاً كثيرةَ الاختلاف على أنها متشابهة .

والإحصاءاتُ إذا ما عُرِفتْ قراءتُها تُزَوِّدُ ، على العكس ، بدلائلَ صحيحةٍ عن حال الشعب الاجتماعية وعن أخلاقِهِ واحتياجاته وقابلياته ، إلخ . ، فضلاً عن الحوادث الاقتصادية .

الفصل الخامس

تعيين مزاج الأمة النفسي بدراسة إنتاجها الأدبي

تُعَدُّ الوثائق الأدبيةُ ، كالقِصص والأمثال والحكايات والروايات ، إلخ . ، من أصلح الوسائل لتصحيح مزاج الأمة النفسيّ ، فمن شهادتها يُعْلَمُ سلوكُ الأمة فى مختلف أحوال حياتها ودرجةُ قِيَمِها .

ولا رَيْبَ فى أن أخلاقَ الشعب تَظْهرُ من خِلال جميع ما يُنْتج ، ولكنه يجب أن يُبْحَث عن هذه الأخلاق فى آثاره الأدبية خاصةً .

وتكون الملاحمُ الكبرى قليلةَ الفائدة ، لأنها تدلُّنا على أناسٍ مبالَغٍ فى مشاعرهم وأعمالهم ، ولنا بالأمثال والحكايات والأقاصيص الشعبية ، إلخ . ، معرفةٌ أدقُّ مما بالملاحم .

ومنذ حينٍ كنا قد طبقنا هذا المنهاجَ على دراسة روح أقسامٍ من الأمة الهندوسية مقتطفين من أشهر كتبها ، البَنْچ تَنْترا والهِتُوپَدِيشا ، إلخ . ، آراءً عامةً عن مختلف العناصر الأساسية فى الحياة الشرقية .

ولم نَزُجَّ بمقتطفاتٍ من ملحمةٍ كالمَهَابْهارْتا ، ومن كتبٍ دينية واجتماعيةٍ كشرائع مَنُو المعروفة بمَنَوا دَهَرْمَا شَسْتَرَا ، إلخ . ، إلاَّ عند قُرْبها من الآراء الشعبية ، من البَنْچ تَنْترا والهِتُوپَدِيشا ، ومن ثَمَّ عند إثباتها قِدَمَ الآراء القائمة حَوْل بعض الموضوعات ، وهكذا تُرَى الحِكَمُ الواردة فى البنچ تَنْترا ، والمشتملةُ على شيء من التنكيت بالنساء ظاهراً ، قد أُيِّدَت

بتأملاتِ المشترع الرزين مَنُو دالّةً إيانا على أن أحكام المجموعة الأولى شعبيةٌ لارَيْبَ ما بَدَتْ ، على شكلِ عقائدَ مُسَلَّمٍ بها ، فى دُستورٍ دينىٍّ ، فى شريعةِ الهند العليا منذ قرون كثيرة ، وعندما ينتهى رأىٌ إلى هذه الحال من التكثيف ويُعْرَض على شكل حكمةٍ أو مَثَلٍ أيمكننا أن نَجْزِم بوجوب مرور أجيالٍ طويلة من الناس لإنضاجه .

وقد جُمِعَت المقتطفاتُ الآتيةُ وَفْقَ الموضوع الذى تعالجه : القَدَر والخُلُق والحياة وعوامل سير الإنسان والنساء ، إلخ .

القَدَر

« لا يأتى ما لا يجب أن يأتى ، ويأتى ما يجب أن يأتى ، ففى هذا تِرْياقُ الهموم » (هِتُوپَدِيشا) .

« كَتَبَ القَدَرُ على جباهنا سطراً من حروف ، فلن يَقْدِر أذكى العلماء على مَحْوه » (پَنْچ تَنْترا) .

« قد يسقط الإنسان من فوق جبل ، ويَغْرَق فى بحر ، ويرتمى فى نار ، ويلاعب الأفاعى ، ولكنه لن يموت قبل أجله » (هِتُوپَدِيشا) .

« النجاحُ فى الأعمال منوطٌ بما يأمر به القَدَر ، وهذه الأعمالُ مُنَظَّمةٌ بأفعال الناس فى حَيَواتهم السابقة وبسلوك الإنسان » (مَنُو) .

« على الإنسان ألاَّ يَكُفَّ عن العمل ولو فَكَّرَ فى القَدَر ، فلن تستخرج سِيرِجاً من سِمْسِمة بغير عمل » (هِتُوپَدِيشا) .

الخلق

« لا يُغَيَّرُ الأمرُ الطبيعىّ بالمَشورة ، فالماء الحارُّ يعود بارداً » (پَنْچ تَنْترا) .

« لو أصبحت النار باردةً وصار القمر مُحْرِقاً لأمكن تبديلُ طبيعة الناس فى هذه الدنيا » (پَنْچ تَنْترا) .

« يَغْلِبُ الطبيعىُّ غيرَه من الصفات ويتبوَّأ مكانه فى الرأس » (هِتوپَدِيشا) .

يَصْعُب على الإنسان أن يتغلَّب على غريزته الطبيعية ، فلن تستطيع أن تحُول دُون قَرْض الكلب للأحذية ، ولو جعلته مَلِكاً » (هِتُوپَدِيشا) .

« يكون قارئاً لكل شىء عالماً بكلِّ شىء ممارساً كلَّ شىء من يَرْغَب عن الرغائب ويعيش بلا أمل » (هِتُوپَدِيشا) .

« من ذا الذى لا يَظْهَرُ طويلاً إذا نظر إلى تحته ، فالذين ينظرون إلى فوقهم فقراء على الدوام » (هِتُوپَدِيشا) .

« القناعةُ كنزٌ لا يَفْنَى » (پَنْچ تَنْترا) .

« الرَّخاء يُغَيِّر طبع الإنسان » (پَنْچ تنترا) .

النســـاء

« يصبح أذكياء الرجال والأبطالُ فى المعارك من البائسين بجانب المرأة » (پَنچ تَنْترا) .

« الرجلُ الذى تُسَيِّرُه كلمةٌ من المرأة يَعُدُّ العُسْرَ يُسْراً والمتعذرَ سهلاً والفاسدَ سائغاً » (پَنْچ تَنْترا) .

« مَنُو جعل قسمةَ النساء فى حُبِّهن لفراشهِنَّ ومقعدهنَّ وزينتهنَّ وفى هواهنَّ وغضبهنّ وسَيِّئ ميولهنّ ورغبتهنَّ فى الشرِّ والدعارة » (مَنُو) .

« النساء ذواتُ طبيعة متقلبة تَقَلُّبَ أمواج البحر ، وللنساء مشاعرُ مذبذبةٌ لا تدوم أكثرَ من ساعة كسُحُبِ الشَّفَق ، فإذا ما قَضَيْن أوطارَهنَّ نَبَذْنَ الرجلَ الذى يصبح غيرَ نافعٍ لهنّ نبذ اللَّكِّ[1] بعد العَصْر » (پَنْچ تَنْترا) .

« النساء متقلباتٌ دائماً ، حتى نساء الآلهة كما يقال » (هِتُوپَدِيشا) .

« لا تُنَال النساء بالقوة ولا بالمبادئ ، فالنساء مخلوقات جامحات » (هِتُوپَدِيشا) .

العلم والجهل

« الذكاء خيرٌ من العلم وفوق العلم » (پَنْچ تنترا) .

« ما فائدة المرء من العلم إذا كان خالياً من الذكاء ؟ » (هِتُوپَدِيشا) .

« أعظمُ الفقر فى قِلَّة العلم » (پنچ تَنْترا) .

الغنى والفقر

« يصبح العدوُّ فى هذه الدنيا للأغنياء قريباً ، ويصبح القريب

(١) اللك ، ثفل نبات اللك ، وهو نبات يتخذون منه صمغاً .

فيها للفقراء عدوًّا » (پَنْچ تَنْترا) .

« الثروة تُنيرُ الصفاتِ كما تُنير الشمس كلَّ موجود » (پنچ تَنْترا) .

« لأَنْ يكون المرء سائلاً ، أو أن يَكسِب عيشه من حَمْله الأثقال ، خَيْرٌ من اليُسْرِ مع العبودية » (پنچ تَنْترا) .

مبادئُ الآداب العامة

« أنصِتُوا لروح الفضيلة ، وإذا أنْصَتُّم ففكِّروا ، فلا تعاملوا غيرَكم بغير ما تُحِبُّون أن يعاملوكم به » (پنچ تَنْترا)

« يرى بعضهم أن الحكمة فى اللسان كما عند البَبَّغاء ، ويراها بعضٌ آخرُ فى القلب كما عند البُكْم ، ويراها آخرون فى القلب واللسان معاً » (پنچ تنْترا) .

« اللئيمُ يَتْبَعُه عمله ولو سار من ألف طريق ، والكريمُ يَتْبَعه عملُه ولو سار من ألف طريقٍ أيضاً » (پنچ تَنْترا) .

« قيمةُ الإنسان بإخلاصه وضبطه لحواسِّه وزهدِه وإحسانه وقيامِه بالواجب قياماً دائماً » (مهابْهَارْتا) .

الحَذَرُ والاحتراز

« يجب على الرجل العاقل الراغبِ فى الغِنَى وطولِ العمر والسعادة ألاَّ يَثِقَ بإنسان » (پنچ تنترا) .

« الضعفاء إذا ما حَذِروا لم يقتلْهم الأقوياء ، والأقوياء إذا ما وَثِقُوا قتَلَهم الضعفاء » (پَنْچ تَنْترا) .

« على العاقل ألا يُطْلِع أحداً على غِناه مهما كان ضئيلاً ، فالغِنى يُحَرِّك قلبَ العابد » (پَنْچ تَنْترا) .

« من يَتْرُك الأكيدَ من أَجْلِ غيرِ الأكيد يَخْسَر الأكيدَ وغيرَ الأكيد » (هِتُوپَدِيشا) .

« لا يَبْرأ جُرْحٌ أوجبه قول » (پنچ تنترا) .

كيف يَتَوَدَّد الإنسان إلى الناس

« يجب أن تعامل الناسَ على حسب أخلاقهم ، فالعاقلُ إذا ما أَلَمَّ بأفكار الآخرين حَكَمهَم من فَوْره » (پَنْچ تَنْترا) .

« يجب على المرء أن يَتَودَّد إلى البخيل بالمال وإلى الشديد بالخضوع وإلى الجاهل بالحلم وإلى المتعلم بخلوص النية » (پَنْچ تَنْترا) .

« لا يَلْبَث العاقل الذى يعرِف خُلُقَ رجلٍ عند المصاقبة أن يَسُودَه » (هِتُوپَدِيشا) .

الشجاعة والثبات

« عدمُ البدءِ أُولَى علائم الذكاء ، وإنهاء ما بُدِئَ به ثانيةُ علائم الذكاء » (پَنْچ تَنْترا) .

« الرجلُ الثابتُ يَعْلُو الآخرين فيصير محترماً ولو لم يكن غنيًّا » (پَنْچ تنترا) .

« من يَقَعْ فى بؤسٍ فيَكْتَفِ بالتَّوَجُّع لا يَصْنَعْ غيرَ زيادة بؤسه من

غير وقوفٍ عند حدٍّ » (پَنْچ تَنْترا) .

تحرِّى الصلاتِ ونتائجُها

« على المرء ألاَّ يكون ذا صِلَةٍ بمن لا يَعْرِفُ قُوَّتَه ولا أُسرتَه ولا سيرتَه » (پَنْچ تَنْترا) .

« مَنْ ليس له أحِبَّاء لا يتغلب على البأساء » (پَنْچ تنترا) .

« حتى الشيطان يحتاج إلى خُلاَّن » (هِتُوپَدِيشا) .

« الظِّباء تبْحث عن الظِّباء ، والأغبياء يبحثون عن الأغبياء ، والعقلاء يبحثون عن العقلاء ، فالصداقةُ تَقُوم على تشابه المحاسن والمعايب » (پنچ تَنْترا) .

« من يُقَدِّر الفضلَ يُحِبّ صاحبَ الفضل ، ومن هو خالٍ من الفضل لا يحبُّ صاحبَ الفضل » (هِتُوپَدِيشا) .

« يَخْسَر الإنسانُ ذكاءه بمعاشرة من هم دونه ، فإذا عاشر شِبَاهَه بَقِىَ مساوياً لهم ، وإذا عاشر من هم أفضلُ منه سار إلى الفضل » (هِتُو پَدِيشا) .

« يكون الحِصان أو السلاح أو الكتاب أو الكلام أو المرأة أو الرجل طيباً أو خبيثاً على حَسَب المرء الذى يلاقيه » (پنچ تَنْترا) .

* * *

ولأن يُحْكَمَ فى مزاج الأمة النفسىّ ودرجةِ قِيَمِها ، دائماً ، بشواهدَ مماثلةٍ لِماَ تَقدَّم خيرٌ من إحصاء طويلٍ للأُسَر المالكة والمعارك عُدَّ فى الماضى لُحْمَةً حقيقيةً للتاريخ .

الفصل السادس

تعيين معنى الكلمات فى دراسة التاريخ

عدمُ التفاهم بين مختلف النفسيات من أهمّ عوامل الصِّراع التى تَمْلأُ التاريخ ، وهو ، فضلاً عن ذلك ، يَجْعَلُ إدراكَ الماضى أمراً صعباً ، ولعدم التفاهم ذلك سببان مهمان وهما : اختلافُ الأمزجة النفسية واختلافُ اللغات .

وإذْ يُوجَدُ لكلّ أمةٍ ، كما لكلّ فردٍ ، استعدادٌ مختلفٌ للتَّقبُّل فإن الكلماتِ نَفْسَها والحوادثَ نفسَها توجب فيهم رُدُودَ فعلٍ متباينة .

والأممُ يَتْبَعُ بعضُها بعضاً من الناحية الصِّناعية والتجارية ، على حين يُوجَدُ بينها من الفروق النفسية ، التى لا سلطان لها عليها ، ما يَفْصِلُ بعضَها عن بعضٍ لزمنٍ طويل .

ولا نَصِلُ إلى فَهْمِ خُلق الأمم ذاتِ المزاج النفسىّ القريب من مزاجنا إلا بعد عناء كبير ، فإذا ما نُظِرَ إلى العروق المختلفة عنا كثيراً ، كالزنوج والصينيين ، إلخ . ، وُجِدَ من المتعذر أن يُنْفَذَ إلى مشاعرها وأفكارها .

ويضاف إلى عدم التفاهم الناشئ عن الفروق بين أمزجة الأمم عدمُ التفاهم الناشئ عن تطور معنى الكلمات في غضون الأجيال ، فالكلماتُ تعانى السُّنَّةَ العامة التى تَحْمِل جميعَ عناصر الطبيعة على التغير ، ولا جَرَمَ

أنها تَبقَى مع الزمن ، غير أن معنى مجموع الألفاظ المجرَّدة يختلف باختلاف الأزمان .

وحينما نعتقد أننا نترجم من اللغات القديمة لم نَصْنَعْ فى الغالب غيرَ استبدالنا بفكرنا الحديث فكرةً كان يُعَبَّرُ عنها بكلماتٍ تَغَيَّر مضمونها تغيُّراً بطيئاً مع الأجيال .

وكانت هذه التفاسيرُ الناقصة مصدرَ خطأٍ كثير ، ومن ذلك أن ساقت رجالَ الثورة الفرنسية إلى مبادئَ بالغةِ الخطأِ حَوْل نُظُم العالَم القديم ، فلم تكن عند المُبْدِعين ، الذين كانوا يعتقدون أنهم يستوْحُون مبادئَ اليونان ورومة مستشهدين فى خُطَبهم ، دائماً ، بليكُورْغَ وسُولُون وأفلاطون وپلوُتاركَ ، إلخ . ، أيةُ فكرةٍ صحيحة عن النُّظُم المُعَبَّرِ عنها بألفاظٍ تَغَيَّر معناها تَغَيُّرًا أساسيًّا .

ومما يُلْقِى الدَّهَش فى نفوس هؤلاء المُصْلِحين لو كانوا يُطْلَعُون على الأمرِ القائلِ إن الجُمهورياتِ اليونانيةَ كانت على العكس من خيالهم الديموقراطىِّ ما كانت قائمةً على أُليغَارْشياتٍ[1] متنازعةٍ بلا انقطاعٍ وحاكمةٍ فى أمةٍ من العبيد ومن زُبُنٍ مُعَبَّدِين .

وكانت الحريةُ والمساواة ، ولا سيما الإخاء ، كما نَتَمثلُها اليوم ، من المشاعر التى كان يجهلها العالَمُ القديم ، وما كان إغريقىٌّ عصر پرِكلس إلاَّ ليُدْهَشَ من المعنى الذى نُطْلِقُه عليها .

ولذلك يكون من الضرورىِّ ، عندما نَدْرُسُ الماضى ، أن نحاول إعادةَ

---

(١) الأليغارشية هى حكومة بعض الأسر القوية .

المعنى الحقيقىِّ إلى الـكلمات المستعملة ، غير أنه يَصْعُبُ تحقيقُ هذا الجُهْد كما يَلُوح ، وذلك لأنه إذا كان من الممكن ترجَمةُ كلمةٍ بدقةٍ فإن من المتعذر أن تُثَار فى النفس ما كانت هذه الـكلمة تُثِيرُه من الأفـكار والمشاعر فيما مضى ، فبعض الـكلمات التى أصبحت خَلِيَّةً فى الوقت الحاضر قَلَبَت روحَ الناس فى سالف الأيام .

و بإعادةِ المعنى الحقيقىِّ إلى بعض الـكلمات استطاع فُسْتِل دُو كُولَنْج أن يُعِيدَ حياةَ عهدِ المِيرُوفَنْجيين .

واليومَ ، أيضاً، يُدْرَكُ عَيْنُ الـكلماتِ ذاتِ الاستعمال اليومىِّ إدراكاً مختلفاً تماماً باختلاف عِرْقِ من يستعملونها و بِيئتهم وتربيتهم ، وسيُرَى فى التعليقات التى نَخْتِم بها هذا الـكتابَ مقدارُ ما يُمْـكِن أن تتخذه الـكلماتُ ذاتُ الاستعمال العامِّ ، كـكلمة الديموقراطية ، من معانٍ تختلف باختلاف رجال السياسة الذين يستعملونها يوميًّا .

وفى حقل العلم فقط ، و بعد جُهْدِ قرونٍ ، قامت فى آخر الأمر لغةٌ تُفَسَّرُ على نَمَـطٍ واحد تفسيراً عامًّا ، والناسُ من جميع الأحزاب ومن جميع الأمم المتمدنة يَعْرِفون مضموناً واحداً للـكلمات الفنية ، ويُمَـثِّلُ العلمُ ، على الخصوص ،حقلَ الكَـمِّىِّ ، أى الأشياءَ التابعةَ للقياس ، مع أن الوجهَ الوصفىَّ لم يُجَاوَزْ فى حقل المشاعر والمعتقدات .

والتاريخُ ، مادام لم يستطع الخروجَ من الوصفىِّ ، أى مادام لم يستطع الاستنادَ إلى أُسُسٍ علميةٍ حقيقية ، فُسِّرَ حَصْراً تقريباً بلغةِ الـكاتب الذى كان يُفَسِّرُه و بمشاعرِه ومعتقداته .

البَابُ الرَّابع

العناصِرُ المُوجِدَة لِلتّاريخ

الفصل الأول

قُوَى الأجداد

ليست الشعوبُ أكثرَ من الكَوْنِ حيازةً للثبات الذى يلوح أن كُتُبَ التاريخ تَعْزُوه إليها ، فالجماعاتُ البشرية فى تطورٍ مستمرٍّ كجميع الموجودات ، ويشبَّهُ الشعب بنهرٍ ذى ثباتٍ ظاهر بسبب جُمود ضفتيه على الرغم من جريانه الدائم .

وتتألف الضِّفافُ التى توجِّهُ مجرى النهر البشرىِّ من شبكةٍ وثيقةٍ من مختلف العوامل ، وهى : الوراثةُ والمعتقدات والعادات والقوانين والأخلاق والتربية ، إلخ . ، فإذا بَقِيَتْ هذه الأمورُ الناظمةُ على حالها من غيرِ كبيرِ تَحَوُّلٍ كانت التقلباتُ الاجتماعية من البطء ما تُبْصَرُ معه بَصَراً ضعيفاً ، والتاريخُ زاخرٌ بأمثلة هذا الثبات الوهمىِّ كعَصْر پِرِكلسِ وعصرِ أُغسطس وعصرِ لويسَ الرابعَ عشرَ ، إلخ .

وهذه الأدوارُ العظيمة متجانسةٌ ، لا لأن التطور الذى لا مَفَرَّ منه قد وَقَفَ مجراه ، بل لتَجَلِّى ثباتِ المبادئ الناظمة الدينية والسياسية والأدبية ، إلخ ، واستمرارِها فى جميع عوامل الحياة الاجتماعية .

والشعبُ ، لكى ينال هذه الوَحدةَ التى لا يستطيع أن يُفْلِحَ بغيرها ، لا بُدَّ له من اكتساب بعض ثباتٍ فى الأفكار والمشاعر والمعتقدات يُمْكِنه أن يُحَوِّل إلى كتلةٍ متجانسة نَقْعَ الأفراد الذين كان قد تألف منهم فى البُداءة .

والصعوبةُ هما فى نَيْلِ درجةٍ من الثبات الوثيق ما تبقى به الكتلةُ على شىء من المرونة تستطيع أن تتطور معه .

وقليلٌ من الأمم مَنْ عَرَف أن يُحَقِّقَ شَرْطَيِ التقدم هذين .

* * *

وفى الصفِّ الأول للعِلَل الكبيرة التى تُعَيِّن التاريخَ تَبْرُزُ العواملُ الموروثة من الأجداد ، أى مجموعُ القابليات التى تُولَد مع الإنسان ، وكُنَّا قد أشرنا إلى هذه القُوَى عندما درسنا عَمَلها فى تكوين ذاتيتنا الخُلقية ، فمن روح الأموات تَكَوَّنت روح الأحياء ، وفينا ، لا فى المقابر ، يَرْقُدُ مَنْ زالوا بالحقيقة ، ويوجد كثيرٌ من القرون خلف كلِّ موجودٍ أتى إلى النُّور ، ويبقى هذا الموجود متأثراً بماضيه .

وبما أننى عالجت هذا الموضوع فى كتابٍ آخر فإننى أقتصر هنا على تلخيص بعض أقسامه الأساسية :

تدلُّ الملاحظة على أنه يُمْكِن أن تُقَسَّم الأمم ، تقريباً ، إلى عروقٍ ابتدائية وعروقٍ دُنْيا وعروقٍ متوسطة وعروق عالية .

فأما العروقُ الابتدائية ، ومنها الفِيُوجيُّون والأُوسيَانيُّون ، فقريبةٌ من حيوانية الأجداد الأولين ، وهى لا تُبْدِى أىَّ أثرٍ من الثَّقافة .

وأما العروقُ الدنيا ، ومنها الزنوج والپُوروج ، فتستطيع أن تنتفع بشىء ابتدائىٍّ من الحضارة ، ولكن من غير أن تَقْدِر على الصعود عالياً مُطْلقاً .

وفوقَ العروق السابقة يجىء صُفْرُ آسية ، ولاسيما الصينيون ، فهم قد

اتفقت لهم أطوارٌ رفيعةٌ من التمدن جاوزتها الأممُ الهندية الأوربية ، ومن هؤلاء الأخيرين تتألف العروق العليا .

* * *

وجميعُ الأفراد فى العروق الدنيا يَحُوزون المستوى النفسىَّ عينَه تقريباً ، وعلى العكس يكون التفاوت الذهنىُّ هو القاعدةَ لدى العروق العليا ، ولكن الأفضلياتِ إذا ما أصبحت بارزةً كثيراً لم تنتقل قَطُّ ، فالواقعُ أن الوِراثة تَرُدُّ إلى المستوى المتوسط ، دائماً ، ذرارىَ الأفراد الذين جاوزوه كثيراً ، ولهذا السبب يَنْدُرُ جِدًّا أن يترك أعاظمُ الرجال وارثين جديرين باسمهم .

وتُمَثِّلُ الشعوبُ المتمدنة الحديثة امتزاجاتٍ نشأت عن مصادفات الفتوح والغَزَوات ، إلخ . ، وقد ثبتت هذه العناصرُ المتباينة بفعل تماثل البِيئة والمعتقدات والمصالح ، وقد أسفر توالدُها فى نهاية الأمر عن تكوين زُمَرٍ متجانسة كنتُ قد وصفتها بالعروق التاريخية .

ويجب ، لتمازج مختلف العروق وتأليفِها عرقاً جديداً على شىء من التجانس ، ألاَّ يكون الأفرادُ المختلطون كثيرى التباين بأخلاقهم وذكائهم .

ويُمْكِن أن يُسْفِرَ التوالدُ عن عنصرٍ تقدُّمىٍّ إذا ما وَقَع بين عروقٍ عاليةٍ قريبٍ بعضُها من بعض ، وهو ، على العكس ، يصبح عنصرَ انحطاطٍ إذا ما كانت العروق المتوالدة مختلفةً جدًّا ، ولم يُبْصِر الإسپان الذين فتحوا جَنوب أمريكة هذا الخطرَ ، فكان هذا سبباً فى كون جميع الجُمهوريات الإسپانية الأمريكية ، التى أُلِّفَت بتوالد الغُزَاة وأهل البلاد الأصليين ، والتى يسكنها مُوَلَّدون جامحون ، لم تَخْرُج من الفوضى ، وهى لن تتفلّت من هذه

الفوضى ، كجمهورية كُوبا ، إلا بمعاناتها مباشرةً ، من بعض الوجوه ، سلطانَ عرقٍ متجانسٍ رفيعٍ كالذى أوجب نجاحَ الولايات المتحدة .

وبعد أن قاسمَ أمريكيو الولايات المتحدة ، لزمنٍ ، أوهامَ الأوربيين فى مساواة العروق ، هذه الأوهامَ التى قَرَّرت حربَ الانفصال الهائلة ، أدركوا فى آخر الأمر خَطَرَ خطئِهم ، فتراهم اليوم يجتنبون كلَّ توالدٍ مع ملايين الزنوج الثلاثةَ عشرَ الذين يَسْكُنُون بلادَهم ، ولذلك كان قانونُ لنشَ ضرورةً عرقية .

وينطوى كلُّ عرقٍ على مزايا ونقائصَ لا يُغَيِّرها الزمنُ أو التربية مطلقاً ، ولا تتحول نُظُمُ الأمة ولغتُها وفنونُها إلاَّ بتطورٍ بطىء حتى تلائم مزاجَ الأمةِ النفسىَّ الموروثَ الذى يتَقَبَّلُها .

وإذا ما لاح أن الأمم تعتنق من المعتقدات والنُّظُم واللغات والفنون ما يختلف عما كان لدى أجدادها لم يكن هذا ، فى الحقيقة ، إلاَّ بعد أن تكون قد تَحَوَّلت تحوُّلاً عميقاً ، أَجَلْ ، إن البرهمية والبُدَّهية (البوذية) والنصرانية والإسلام أديانٌ أدت إلى اعتناقاتٍ ظاهرة لدى عروقٍ بأَسْرِها ، غير أن هذه الأديان تَحَوَّلت كثيراً بانتقالها من أمة إلى أخرى ، فلما انتقلت البُدَّهية إلى الصين شُوِّهَتْ بسرعة ، والإسلامُ فى فارسَ غيرُه فى بلاد العرب أو الهند ، ولا يزال ابنُ بريتانية الدنيا يتخذ من الأصنام كوثنىٍّ حقيقىٍّ ، ويَعْبُد الإسپانىُّ تعاويذَ ، ويبقى الإيطالىُّ مشركاً فيُقَدِّس لصُوَرِ العذراء فى مختلف القُرَى كأنها آلهةٌ شَتَّى .

وكان الانفصالُ الإصلاحىُّ نتيجةَ تفسير الكتاب الدينىِّ عينهِ من قِبَل شعوبٍ مختلفة ، فكانت شعوب الشمال تريد النِّقَاشَ فى معتقداتها وتنظيمَ

حياتها بنفسها ، وكانت شعوب الجَنوب تُفضِّل الخضوعَ بلا جِدالٍ لعقائدَ تَفْرِضها سلطةٌ عالية .

ويسيطر على جميع تقلُّبات السياسة لدى الشعوب اللاتينية ، ولا سيما الفرنسيون ، عنصرٌ بارزٌ من عناصر مزاجهم النفسيِّ الموروث من الأجداد ، وهو احتياجُهم أن يُساعَدوا ويُوَجَّهُوا فى أدقِّ أعمالهم من قِبَل حكومةٍ ، فالحكوميةُ هى النظامُ الوحيد الممكن لدى الأمم اللاتينية وإن اختلفت الأسماء .

* * *

حقًّا أن الحوادث التى تَظْهر كلَّ يومٍ ليست وليدةَ الحاضر ، بل وليدةُ ماضٍ طويل ، فإذا ما وَحَّدَت قرونٌ من المصالح المتماثلة والمعتقدات الواحدة أمةً حازت هذه الأمة من المسيطِرات الوراثية ما يتألف من مجموعه كيانٌ يُسَمَّى الروحَ القومية ، وهذه الروح هى التى تَعْمَل فى الأحوال العظيمة التى تُهَدِّد وجودَ العِرْق كالغَزْو مثلاً ، وهذه الروح القومية ، أيضاً ، هى التى تَجْعَل جميعَ أعضاء العِرْق يُبْدُون أخلاقاً مشتركة كثيرة على الرغم من اختلافاتهم الفردية ، ومن ذلك أنك تَجِدُ لدى الإنكليز أو البريتُون أو الأُڤِرْنيين أو البرُوڤَنْسِيين أو اليابانيين ، إلخ . ، من طُرُز الشعور والتفكير ، ومن طُرُز الاستدلال غالباً ، ما يَجْعَلك تَعْرِفُهم من فَوْرِك .

وليست العواملُ ، التى تستطيع أن تَمْنح الأمةَ مجموعةً من الأخلاق المشتركة الصالحةِ لتكوين روحها القومية ، كثيرةً ، ويكون العقلُ غريباً عن تكوينها فى الغالب ، ولها رُكْنٌ بتوحيد المشاعر الجماعية والدينية ، وما كان دينيًّا منها يُعَدُّ أقواها ، فعبادةُ رومة فى العالَم القديم ، والنصرانيةُ

في القرون الوسطى ، من أبرز الأمثلة على مثل تلك العوامل .

* * *

وأشدُّ الأهوال التي يُمكن أن تصَابَ بها الأمة هو ضَياع روحها القومية ، فلم تكن غَزَواتُ البرابرةِ المسلحةُ هي التي قضت على عظمة رومة ، بل امتزاجاتُ الشعب الرومانيِّ الطويلةُ بالأجانب .

وكما لاحظنا فيما تقدم كادت الولاياتُ المتحدة في الوقت الحاضر أن تذهب ضحيةَ مثلِ هذا القَدَرِ نتيجةً لغزوِ متباينِ العناصر غَزْواً تدريجيًّا ، فشَعَرَتْ بالخَطَرِ في الوقت المناسب ، وانتهت إلى إغلاق أبوابها إغلاقاً تامًّا تقريباً دُونَ المهاجرين .

وما كانت أكملُ تربيةٍ وأصلحُ نُظُمٍ سياسية لتُحَوِّل بعضَ العوامل الوراثية ، ولو تألَّفَ شعبٌ خِلاَسيٌّ من حَمَلةِ البَكَلُوريا ومن المحامين والدَّكاترة لغَدَا عُرْضةً للفوضى فإلى النُّظُمِ الدكتاتورية التي تؤدي إليها هذه الفوضى لارَيب .

وتدلُّ أوربة الحديثة ، مرةً أخرى ، على مقدار ثِقَل المؤثِّرات الوِراثية في حياة الأمم ، وما تُلاَقيه محاولةُ تحقيقِ اتحادِ أُوربِّيٍّ من مصاعبَ خارقةٍ للعادة يُثْبِت ضَعْفَ الضروراتِ النظرية إذا لم تستند إلى بعض المشاعر الوِراثية مجتمعةً .

وما بين الأحياء من تضامنٍ يستند بحكم الضرورة إلى تضامن بين الأموات الذين تَكَوَّن الأحياء منهم .

الفصل الثانى

الخُلق والذكاء

تَجِدُ الموجوداتِ ، على الرغم من تقلباتِ ذاتياتِها الممكنة التى دَرَستُ أمرَها فى فصلٍ آخر ، مُطَوَّقةً ببعض المؤثِّرات الدائمة ، الإرادةِ والثباتِ ، إلخ . ، المقيِّدَةِ لذبذباتها ، فمن مجموعها يتألف ما يُسَمَّى الخُلُق[1] .

وعلى الدوام سيطرت الأمم ذواتُ الخُلق القويِّ على الأمم ذواتِ الخُلق الضعيف أو المتردِّد مهما كان ذكاؤها ، ومن ذلك أن الرومان قَهَروا الأغارقةَ بسهولة . وذلك فى زمن كان الرومان فيه قليلى التمدن وكان الأغارقةُ فيه أرقى بدرجاتٍ من قاهريهم ذكاءً وثقافةً .

ويستمرُّ ذاتُ الحادث على الظهور فى الأزمنة الحديثة ، ومن ذلك أن عُبِّدَ ثلاثمئة مليونٍ من الهندوس يمتازون بمعارفهم الفنية والفلسفية بسبب خُلُقهم الضعيف ، وذلك من قِبَل جيشٍ إنكليزىّ لا أهميةَ له عدداً .

---

(١) أردت تبسيط ما أعرضه فيما بعد فأطلقت على كلمات الشعور والذكاء والعقل ، إلخ . ، ما يعزى إليها من معنى على العموم ، ويكفى تعريفها الكلاسى للدلالة على حال علم النفس الابتدائية حول مسائل مهمة على الخصوص ، وإليك ، مثلا ، كيف أن ليتره يعرف العقل فى الطبعة الأخيرة من القاموس الطبى بقوله : « هو مجموع الخصائص التى يدرك الإنسان بها الحقيقة ويعرفها ويوضحها » .

وكذلك تعريف المشاعر لدى المؤلف نفسه مضطرب ، فالشعور عنده « هو بصيرة الروح التى نحدد بها الأشياء فى أحكامنا » ، فهذا التعريف الأخير يخلط بين الشعور والعقل .

ويدلُّ مجرى التاريخ كلِّه على كون شأنِ الخُلُق أشدَّ نفوذاً بمراحل من شأن العقل فى مصير الأفراد والشعوب[١] .

والخُلُقُ هو ناظمُ السلوكِ الحقيقىُّ ، ويَصْلحُ الذكاء للإيضاح والتمييز على الخصوص ، وتُكَمَّلُ الصفاتُ الذهنية بالتربية ، ويكاد الخُلق يتفلتُ من سلطان التربية تماماً .

والخلاصةُ أن من الممكن أن يقال إن المجتمعاتِ الحديثةَ مؤلَّفةٌ ، كما يَلُوح ، من تَنَضُّدِ عالميْن مختلفين تماماً ، أى عالمَ العلم الذى يهيمن عليه الذكاء وعالمَ الحياةِ الاجتماعية الذى يُوَجَّهُ بمشاعرَ يتألَّف منها الخُلُق .

وتنبجس الاختراعاتُ التى تُحَوِّلُ ناحيةَ الحضاراتِ المادية من عالم العلم الذى يُوَجِّهه صفوةُ الأذكياء ، وتنشأ المنازعاتُ والأحقاد التى يَضْطربُ بها تقدم الأمم غالباً ، وتُهَدِّد بالقضاء عليها ، عن العالمَ الاجتماعىِّ .

فتاريخُ العلوم هو قصةُ الاكتشافات التى حَقَّقها الذكاء ، وتاريخُ الأمم يَقُصُّ خبرَ الحوادث المُعَيَّنَةِ بتأثير مختلفِ المشاعر التى يَنْدُر أن يوجهها العقل .

وخَلْط ما بين المشاعر التى تُسَيِّر الإنسانَ ، وما تستدعيه من عوامل العمل ، أمرٌ عامٌّ لدى المؤرخين ، وكان يُخَيَّل لصانعى الثورة الفرنسية أنهم يقيمون مجتمعاً جديداً على العقل الخالص فكانوا يستوحون العقل فى خُطَبهم ،

---

(١) تهمل الجامعات دراسة المشاعر مع أهميتها العظيمة ، ومما لاحظه الأستاذ كلاباريد أن ما اقترح من مناهج كثيرة لتعيين القابليات الفردية لم يتناول غير القابليات الذهنية .

« وقد طرحت التجارب لتعيين الخلق جانباً طرحاً تاماً تقريباً ، أى طرح قياس الذاتية بأسرها » .

ثم إن هذا التعيين صعب ما حكم فى الخلق بالأعمال لا بالأقوال .

فالواقعُ أن مُعْظَم أفعالهم كان يُشْتَقُّ من المشاعر التى لا نصيبَ للعقل فيها ، أى من الحاجةِ إلى المساواة والحسد والأحقاد ، إلخ .

* * *

أجَلْ ، يوجَد لدى جميع الناس ، متمدنين كانوا أو متوحشين ، مشاعرُ متقاربةٌ ، غير أنه يوجد بين الابتدائىِّ والمتمدنِ فارقٌ عميقٌ قائلٌ إن المتمدن حائزٌ لقوةٍ خُلُقية يقاوم بها ثائرَ الاندفاعات مستعيناً بالعقل فى معارضة شعورٍ بشعور .

وقليلون من يَقْدِرون على مقاومة نَزَواتِهم العاطفية ، أى مَنْ هم حائزون صفةَ « ضبط النفس » كما يسميها الإنكليز ، وتَكُون الجماعاتُ مُجَرَّدةً منها تماماً ، واندفاعُ الساعة هو رائدُها الوحيد على العموم ، ولا يقوم العقل على معارضة الشعور ببرهانٍ منطقىّ ، بل على إقامة شعور بعيدٍ حِيالَ اندفاعٍ حاضر .

وعلى ما وقع من تقدمِ الحضارة بَقِىَ مُعْظَمُ الأمم عند أدنى طَوْرٍ حيث لم يكتسب الحَظْرُ المُدَبَّر بَعْدُ من السلطان الكافى ما يَزْجُر الانعكاساتِ الطبيعيةَ معه ، وقد نشأ كثيرٌ من الحروب عن عدم القدرة على ردع اندفاعات الساعة .

ولا يتطلب إمكانُ تغيير السلوك ، بمعارضة الاندفاعات الحاضرة بنتائجها القادمة ، ضَبْطاً للنفس أو قوةً خلقية فقط ، بل يتطلب أيضاً صفةَ التمييز الموصوفةَ بالحكم ، وتُمَثِّلُ هذه الصفة أعلى القابلياتِ الذهنية ، وهى تتضمن روحَ نَقْدٍ نَفَّاذة يُقْرأُ بها تسلسلُ المعلولات والعلل .

وإذا ما اقترنت العواملُ الشعورية التى يتألَّف الخُلُق منها ببعض العوامل الوجدية تَكَوَّن مجموعٌ يُعَبَّرُ عنه بكلمة « القُوَى الأدبية » .

وقد غَيَّرَ سلطانُها مجرى التاريخ أحياناً ، ويُمكنُ أن يقال ، إن القُوَى الأدبية مَثَّلَت دوراً مهمًّا فى أول الحرب الأخيرة وآخرها فقد غُلِب الألمان بالقُوَى الأدبية أكثرَ مما بالمَدافع ، ولا مراء فى أن القيمة الحربية لمقاتلى أمريكة المُرْتَجَلين كانت صِفْراً تقريباً ، غير أن الأثر الذى نشأ عن وصول ما لا يُحْصِيه عَدٌّ من الكتائب كان من السلطان الأدبىِّ ما أدخل اليأس إلى العدوِّ وأطفأ حميتَه فى آخر الأمر ، وكان المريشالُ الشهير فُوش يُعَلِّق أهميةً عظيمة على القُوَى الأدبية ، فيقول : « إن الحرب مضمارٌ للقُوَى الأدبية ، فيقوم النصر على التفوُّق الأدبىِّ لدى الغالب وعلى الانحطاط الأدبىِّ لدى المغلوب » .

* * *

وتتجلَّى إحدى مشاكل الزمن الحديث فى الاختلاف الزائد بين نشوء الذكاء بسرعةٍ وتطور المشاعر والأخلاق ببطء .

وكان اتبِّاعُ الذكاء للمشاعر ذا نتائجَ كبيرةٍ فى التاريخ دائماً ، ولم تَلْبَث الجهودُ العقلية لدى اثنين وخمسين ممثلاً لمختلف الدول ، التى تتألف منها جمعيةُ الأمم حفظاً للسَّلْم بين الشعوب ، أن تَقَلَّصَتْ تحت انفجارٍ غريزىٍّ لمشاعرَ جَماعيةٍ من حسدٍ وكرامةٍ مجروحةٍ ورغبةٍ فى الانتقام ، إلخ .

وعَجْزُ العقل عن التأثير فى المشاعر أصبح من شدة الخطر بنسبة ما تُجهِّزُ مبتكراتُ العلم به المشاعرَ بأسلحةٍ هائلةٍ تُبِيدُ فى بضع ساعات كبريات

العواصم مع ما تشتمل عليه من كنوز الفنِّ ، ومن ثَمَّ تُخَرِّب الحضاراتِ المُسِنَّةَ التى يُفَاخِرُ بها الإنسان .

أَجَلْ ، قد تكون المشاعرُ فى الإنسانية العليا خادمةً للذكاء ، ولكن الذكاء فى إنسانيتنا الناقصةِ التطورِ هو الذى يَظَلُّ خاضعاً للمشاعر .

الفصل الثالث

المعتقداتُ الوَجْدِية ذاتُ الشكل الدينيّ

تَبْدُو القُوَى الوَجْدية فى الصَّفِّ الأول من القُوَى النفسية ، وقد كانت عظيمةَ الشأن دائماً لأنه تألَّف منها أعظمُ مُحَرِّكٍ للجهود الفردية والجماعية التى تُشْتَقُّ منها حياة الأمم .

ولا أُفَصِّل هنا هذا التأثيرَ ، فقد خصصتُ كتاباً لأُثْبِتَ كيف تُولد المعتقدات وكيف تَنْمُو وتموت وكيف تُوَجِّهُ الأعمالَ بعد أن تستقرَّ بالنفس ، وقد حاولتُ، على الخصوص ، أن أُوضح الأمرَ الأساسىَّ القائلَ إن المعتقداتِ المخالفةَ للعقل مما أمكن اعتناقُ أفضلِ العلماء له ، ولاح إدراكُ هذا الحادثِ متعذراً فى زمنٍ عُدَّت المعتقدات فيه إراديةً عقلية مع أنها غيرُ إرادية وغيرُ عقلية فى الحقيقة ، فجميعُ تاريخ المعتقدات الدينية والمعتقدات السياسية يُشْتَقُّ من هذه المبادئ الأساسية ، ومَثَّلَ سَرَيانُ المعتقد فى اللاشعور بفعل العَدْوَى النفسية والتلقين والنفوذ ، إلخ . ، دوراً فى حياة الشعوب أعلى من الدور الذى مَثَّلَه العقل فيها .

وتقوم الوَجْدية على الخضوع لأوهامٍ بالغةٍ من القوة ما تتفلَّت معه من سلطان العقل ، وتاريخُ البشرية هو تاريخ هذه الأوهام على الخصوص ، وتَنْمُو الأمة إذا ما حازت أوهاماً دينية أو سياسيةً قادرةً على تحريك جهودها ، وهى

تميل إلى الزوال عند ما يأخذ سلطان هذه الأوهام فى الذُّبول .

ويُعَدُّ العامل الوَجْدِيُّ جزءاً من تلك القُوَى النفسية المجهولة التى لم يَصْنَع التاريخُ غيرَ رَسْمِ دراستها رسماً خفيفاً فقط ، وبما أنه لا يُمْكن تصنيفُ الوَجْدية ضِمْنَ الحوادث العقلية ولا ضِمْن الحوادث العاطفية فإنه يجب أن تُعَدَّ حالًا نفسيةً خاصةً مشابهةً بعضَ الشبهِ للحال الناشئة عن القُوَى المُنَوِّمة ، فالمنوَّمُ يَقَعُ تحت سيطرة المنوِّم المطلقة ، ويوجب المعتَمَدُ نتائجَ مماثلةً لتلك ، ولكن مع طول دوامها بدلاً من أن تكون موقَّتة .

وقد بَلَغ الدَّورُ الذى مَثَّلته المعتقداتُ الوجديةُ ذاتُ الشكل الدينىِّ من الأهمية فى ثبات الذاتيات الفردية والجماعية ما لا يكون من المبالغة أن يقال معه إن مُعْظَم تاريخ الأمم مؤلَّفٌ من تاريخ آلهتها .

وكان أجدادُنا فى مدة ما قبل التاريخ التى تَرَجحت بين خمسين ألف سنة ومئة ألف سنة ، والتى مَرَّت قبل الحضارات ، يَبْقَوْن ملازمين لدائرة اللاشعور غيرَ مبالين بالبحث عن المصير ، وكانت الوِلادة والموت يَلُوحان حادثين طبيعيين غيرَ محتاجين إلى إيضاح ، وكان الغذاء والتناسل وحدَهما يُعَدَّان حافزيْن إلى السَّيْر .

وكان لا بُدَّ من أن يَظْهَر من الحياة اللاشاعرة ، التى كان الإنسانُ غيرَ خارجٍ منها بَعْدُ ، بصيصٌ من الحياة الشاعرة تقترن به فى النفس صُوَرُ الأشياء حتى يَكْتَشف الإنسان ما تشابه منها وما اختلف فيَلُوح له تكوينُ فكرةٍ عن العالَم .

ويدلُّ مبدأُ السببية والغائية ، أى المبدأُ القائل إن للحادث أسباباً ونتائجَ ،

على أصل مبادئ الإنسان الابتدائيِّ الأولى عن الكَوْن كما يحتمل .

وكان لا بُدَّ من وجودِ علةٍ للغوامض الهائلة التى وَجَدَ الإنسانُ نفسَه محاطاً بها ، كنُور الصاعقة وصَوْلاتِ العاصفة وغيرِها ، وكان الأمرُ الوحيدُ الممكنُ تصورُه وجودَ أشخاصٍ مشابهين للإنسان ، ولكن مع كونهم أشدَّ قوةً منه بمراحل .

وهنالك ظَهَرَ الآلهةُ الكثيرون النافعون أو الضارُّون ، والمرهوبون دائماً ، فسيطروا على حياة الأمم فى قرون طويلة ، وكان يهيمن آلهةٌ خاصُّون على جميع الحوادث المترجحة بين سَيْر الشمس وهِياج الأمواج ووقوع الحصاد ، وكان نَيْلُ حمايتهم يقتضى التزامَ ما يُمْكن تصورُه فى ذلك الحين من الوسائل التى تُتَّخَذُ وحدَها للتأثير فى الكبراء ، وهى الدَّعَوات والتَّقْدِمات ، ولم تَلْبث حياة كلِّ أمةٍ أن وُجِدَت خاضعةً لتدخُّل الآلهة الدائم ، وكان الآلهة الكثيرو العدد لدى أكثر الأمم حضارةً ، كالأغارقة والرومان على الخصوص ، يُوحُون بخوفٍ بالغ ، وكان تَدَخُّلُهم المفروضُ فى أدقِّ أعمال الحياة يَحْمِلُ على استشارتهم بلا انقطاع ، وكان يُفَوَّض إلى مجمع الطوالع ، الذى يشترك فيه أرقى الأعيان برومة ، أمرُ تفسير الإشارات الدالةِ على إرادة الآلهة .

بَيْدَ أن هؤلاء الآلهةَ أنفسَهم عانَوْا سُنَّةَ التطور التى تقضى على الكون بالتحول دائماً .

فقد ظَهَرَ فى بلاد الجليل إلهٌ لم يُعتِّمْ أن حَلَّ محلَّ آلهة الأُلِنْب الهَرِمين ، فسيطرت عزيمةُ هذا السيد القويِّ على حياة الأمم قروناً طويلة وأنعم على

الفكر بثباتٍ أكثرَ من الذى أنعم به الآلهـة الذين قام مقامهم ، وكان الناسُ الذين لم يطيعوا أوامره مَدَى حياتهم يُوعَدُون بنارٍ أبدية .

وإلى وقتٍ بالغِ الجِدَّة فقط ظُفِرَ بمبدإِ القُوَى غـيرِ الشخصية التى يُمكِنِ الإنسانَ أن يستميلها والتى تستطيع أن تَحُلَّ محلَّ عزائم الآلهة .

* * *

وبلغ الدَّوْرُ الذى يُمَثِّلُه الآلهة فى التاريخ من القوة ما لم تستطع أُمة أن تُغَيِّره من غير أن تَرَى حياتَها تتحول تحولاً تامًّا .

ومما ذكرناه آنفاً أن قبائل بلاد العرب البدويةَ وُحِّدَت برُؤَى محمدٍ الدينية فلم تَلْبَثْ أن بَلَغَت من القوة ما أقامت معه إمبراطوريةً عظيمة .

ومن الأمثلة الكثيرة على الثبات النفسىِّ الذى قـد ينشأ عن اعتناق إيمـانٍ حارٍّ يُمكِن أن نستشهد ، أيضاً ، بأوائل الإصلاح الدينىِّ فى فرنسة .

وأولُ ما أوجبه هـذا الإصلاحُ هو كفـاحٌ بسيط ضِدَّ مساوئ الإكليروس ، كبيع المغفرة مثلاً ، ولكنه لم يَلْبَث أن تَحَوَّل بالعدوى النفسية والاضطهاد إلى معتقدٍ كان من القوة ما لم يَقْدِر أىُّ نَكالٍ على وَقْفِ انتشاره ، وعلى العكس كان كلُّ قتلٍ يؤدى إلى اعتناق جديد .

وقـد انتشر الإصلاح الدينىُّ على الرغم من جميع التدابير الإرهابية فأصبحت فرنسة ميداناً لاصطراع المعتقدات المتخاصمة مدةَ خمسين سنة .

ولا مثالَ أحسنَ من ذلك يدلُّ على مقدار استطاعة الذاتيات المذبذبة التى يؤلِّفُ منها كلُّ موجود أن تُوجِدَ بفِعْل الوَجْدِية شخصيةً جديدة بالغةً من

الثبات مالا يَقْدِر على تغييره أىُّ عاملٍ ، سواء أكان المصلحةَ الذاتية أم غريزةَ البقاء أم الخوفَ من الألم .

* * *

وهل من الممكن أن يُفرَض وجودُ أمةٍ مجرَّدةٍ من معتقدات دينية ؟ لم يَعرِف العالمَ أُمَّةً من هذا النوع بعْدُ ، ولن يَرَى مثلَ هذه الأمة على ما يحتمل ، فالاحتياجُ الوَجْدِىُّ إلى دينٍ موجِّهٍ مُثَبِّت أمرٌ لا تبديلَ له .

والتَّقَبُّلُ الدينىُّ لم يَنْقُصْ نقصاً محسوساً فى غُضُون القرون على الرغم من بعض الظواهر ، فالبابيةُ فى فارسَ والعَدَميةُ والبلشفيةُ وديانةُ سكپْزِكى فى روسية والعِلْمُ النصرانىُّ والمُرْمُونية فى الولاياتِ المتحدة أمثلةٌ جديدةٌ دالةٌ على القوة الخارقة التى يستطيع أن يُنْعِمَ بها المعتقدُ على المؤمنين مهما كان هذا المعتقد مخالفاً للصواب .

وبما أَننى لا أَدرسُ مختلفَ الأديان هنا فإننى أَقتصرُ على تلخيصى فى بضعةِ أَسطرٍ تاريخَ المُرْمُونية التى هى من أَحدث الأديان فأقول : إنها أُقيمت من قِبَلِ متهوسٍ كان يَزْعُم أنه تَلَقَّى من السماء تلقياً خارقاً للعادة كتاباً مقدَّساً مشيراً إلى دين جديد فجَمَع بفعل قوته التلقينية أَتباعاً زاد عددهم باطِّراد ، وإن هؤلاء المؤمنين الذين اضطهدتهم كتائبُ مسلَّحةٌ وأمعنت فى تقتيلهم اضْطُرُّوا إلى الفِرار من ظالميهم ، وإنهم طُورِدُوا مئاتِ الكيلومتراتِ فبَلَغُوا فى آخر الأمر بُقعةَ « البحيرةِ المالحة » الصحراويةَ حيث كَفَّ أعداؤهم عن تَعَقُّبهم ، وتَمْضِى بضعُ سنين فتُحَوَّل الصحراء الجليدية بقوة الإيمان الجديد ، وتَخْرُج من العَدَم مدينةٌ كبيرة لم تُعَتِّمْ أن

صارت قاعدةً مهمة لولاية جديدة ، واليومَ تُعَدُّ أُوتاه قسماً من الولايات الثمانى والأربعين التى تتألف منها جُمهورية الولايات المتحدة .

وما كانت أيةُ جماعةٍ تُسَيَّرُ بالعقل وحدَه لِتنْجَح ، على ما يحتمل ، فى إخراج بُقعةٍ رَخِيَّةٍ من الصحراء كما صَنَع أولئك المؤمنون الذين أُيِّدُوا بمعتقداتٍ وهميةٍ مُبْدِعةٍ لقُوَاهم .

وتمارس جميعُ المعتقدات الدينية ، ولا سيما فى بُداءتها ، ذاتَ النفوذ المسيطر على روح المؤمنين ، ومن هذه المعتقدات ما هو كمعتقَد السِّكُوبْزِكى بروسية حيث ظَفِرَ من أتباعه بأقْسَى بَتْرٍ ، ولا تَرَى ديناً أعوزه شهداء .

* * *

ومع ذلك فإن الآلهة الذين كانوا يسيطرون على العالَم منذ أوائل التاريخ أضاعوا ، حتى لدى المؤمنين ، ما كان خيالُ الأمم يُنْعِم به من سلطانٍ كبير ، وكان العالَمَ القديم يؤلِّهُ قُوَى الطبيعة ، فجعلهم العالَمَ الحديث غيرَ شخصيين ووُفِّق لاستعبادهم مقداراً فمقداراً ، وكان على الإنسان أن يُطيع الآلهةَ القابضين على هذه القُوَى وَفْقَ المبدإ القديم ، فصارت القُوَى الطبيعيةُ تطيع الإنسان وَفْقَ المبدإ الحديث ، وقد وجب مرور أُلوفٍ كثيرة من السنين لإقامة هذا التمييز الذى يُشْتَقُّ منه جميعُ الفلسفة الحديثة .

الفصل الرابع

المعتقداتُ الوَجْدية ذات الشكل السياسىّ

عند ما عادت حمايةُ الآلهة التى تُنَال بالأدعية لا تؤيد الإنسانَ بَحَثَ الإنسانُ عن آمالٍ أخرى ، فظَنَّ أنه يَكْشِفها فى الأوهام السياسية والاجتماعية ، وكان الإيمان الأعمى الذى يَصْدُر عن الروح الوَجْدية دائماً أحدَ العناصر الأساسية لشكل المعتقدات الجديد هذا .

أَجَلْ ، إن سلطان بعض الخيالات السياسية ذاتِ الشكل الدينىّ هو من القوة كسلطان الأديان أحياناً ، غير أنه وقتىٌّ على العموم ، وتوجب هذه المعتقدات السياسية ذاتَ الآمال وذاتَ عدم التسامح وذاتَ الاحتياج الشديد إلى الانتشار كالعقائد الدينية .

وتمْنَح المعتقداتُ السياسية ذاتُ الشكل الدينىِّ أتباعَها قوةً عظيمة كما يَمْنَح الدينُ الجديد، ويُزَوِّد التاريخُ بأمثـلةٍ كثيرة على ذلك ، ولا سيما دَوْرُ الثورة الفرنسية ، فما كانت الجمهورية لتستطيع أن تقابل جيوشَ الملـكيات الأوربية المُسِنَّةِ القويةَ بغيرِ كتائبَ سَيِّئَةِ العُدَّة سيئةِ النظام ، ومع ذلك فقد تَمّ لها النصر ، وقد نشأ هذا الحادثُ غيرُ المنتظر عن كون جنود الثورة ذوى إيمانٍ دينىٍّ عميق بما كانوا قد اعتنقوه من عقائدَ جـديدةٍ ، وعند هؤلاء كانت البشرية المُحَوَّلةُ تَدْخُلُ فى طورٍ عامٍّ من السعادة ، وكانت المجتمعاتُ تَعُود إلى

ذلك الدَّوْر الابتدائىّ الذى يتألف منه عهد مساواةٍ وحرية وإخاء بالغِ اليُمْنِ كما يرَى النظريون الجاهلون شدائدَ ما قبل التاريخ .

* * *

وكذلك يُمْكن أن يُذكَر بين المعتقدات السياسية ، الحائزة لِمَا فى المعتقدات الدينية من قوةٍ مُثَبِّتَةٍ ، شَوْقُ بعض الشعوب إلى الصَّدارة ، ويدلنا تاريخ نينوى وبابل ورومة فى الأزمنة القديمة ، وتاريخُ إسپانية وإنكلترة وفرنسة وألمانية فى الأزمنة الحديثة ، وتاريخُ الولايات المتحدة فى أيامنا ، على تأثير المثل الأعلى المُكوَّن من هذه الوَجْدية الجماعية التى تُمَثِّلُها عبادة الوطن .

واليومَ يُمَثِّلُ أنشطُ المعتقداتِ السياسية ذاتِ الشكل الدينىِّ من قِبَل الاشتراكية ، ومن قِبَل الشيوعية التى هى طَوْرُ الاشتراكية الأقصى ، ويَعْظُم سلطانُهما كلَّ يومٍ بسبب الآمال التى تُعلَّقُ عليهما ، وتُمَثِّلُ الإكليريكيةُ الجَذْرِية والإكليريكية الشيوعية والإكليريكية الكاثوليكية أشكالاً تختلف قليلاً عن الإيمان الوَجْدِىِّ نفسِه ، مع عدم تعقيب الأهداف عينِها .

وتُغْرِقُ الاشتراكيةُ أوربةَ كما أغرقت النصرانيةُ أوربة منذ ألفى عام ، والاشتراكيةُ تنتشر بسرعةٍ أقلَّ مما انتشرت بها النصرانية لِمَا تصادمه من عواملَ اقتصاديةٍ لا عهد للعالَم القديم به .

ثم إن المذهب الاشتراكىَّ هو من البساطة ما يجعَله سائغاً عند كلِّ ذكاء ، وقد أجاد الوزير الاشتراكىُّ الإنكليزىُّ ، مستر مَكْدُونَلْد ، التعبيرَ عن مبادئه الأساسية حَوْل ذلك بالكلمة الآتية ، وهى :

« إن الاشتراكية مبدأُ جماعةٍ مُنَظَّمةٍ نظاميةٍ حاملةٍ لواء سلطةِ المجتمع

الاقتصاديةِ والمادية ، وذلك على وجهٍ يُمكن الفردَ فيه أن يُحَرَّر من الضغط ويتمتع بحرية نشوئه » .

وهذا المبدأُ ، إذا عُبِّر عنه باصطلاحاتٍ عملية ، دلَّ على إدارة جميع الصِّناعات تحت رقابة الدولة ، أى من قِبَل جَحْفَلٍ من الموظفين ، وقد أثبت تطبيقُ هذا النظام ، الذى حُقِّقَ فى روسية ، أن الإدارة الحكومية أغلى بدرجاتٍ من الإدارة الرأسمالية الفردية من ناحيةٍ ، وأكثرَ ضغطاً بدرجاتٍ منها من ناحيةٍ أخرى .

ثم إن الاشتراكية وأختَها الشيوعيةَ تَنْسَيَان أن الادارة الحكومية تُعَطِّل الجهد الشخصىّ بسرعة ، تُعَطِّل هذا المصدرَ لكلِّ تقدم .

والأمة إذا ما أضاعت استعدادَها للجُهد وقعت فى انحطاطٍ عميق .

وهكذا تَجِدُ الاشتراكيةُ ضِدَّها سُنَناً اقتصاديةً كما تَجِدُ سُنَناً نفسية ، ومع ذلك فإنها تكون من القوة بنسبة الأوهام الوَجْدِية التى تستند إليها ، ولذلك لاينبغى أن يُدْهَشَ من انتشارها بسرعة ، وتَغْزُو الاشتراكيةُ أمماً مستقرةً كالإنكليز بعد أن خرَّبت روسية ، ولم تستطع بلادٌ أخرى ، كإيطالية وإسپانية وپولونية ، أن تَقِيَ نفسها من تخريباتها إلاَّ بدكتاتوريَّاتٍ فَعَّالة .

وللشيوعية ، القائمةِ نظريًّا على تساوى الناس فى الرزق كما تقوم الاشتراكية ، قوةُ دعايةٍ أعظمُ مما لهذه الأخيرة ، وذلك لاستنادها إلى ضروب الحسد والحقد الشديدين على شكلٍ آخر .

وإذا عَدَوْتَ تلك الأمثلةَ العظيمة البارزة ، مكتفياً بتصفُّحِ تاريخنا الحديث ، اعتقدتَ شأنَ المعتقداتِ السياسية على شكلٍ دينىٍّ ، وما كانت فرنسة ميداناً له من انقلاباتٍ منذ ثورتها الكبرى يؤلِّف أدلةً مؤثِّرة ، وتساعد هذه الانقلاباتُ ،

أيضاً ، على شعور أكثرية الناس الساحقة باحتياجٍ شديد إلى مَثَلٍ دينىٍّ أو سياسىٍّ عالٍ بالغٍ من القوة ما يُثَبِّتُ الأفكارَ ويوجِّهُ السَّيْرَ ، وذلك على الرغم من شوقهم إلى الحرية .

وإذا كان كثيرٌ من النفوس يعيش مضطرباً حائراً فذلك لأنه لم يَجِدْ بَعْدُ مثلاً وَجْدِيًّا عالياً بالغاً من القوة ما يسيطر عليها .

ومبدأُ توازن المعتقدات السياسية الجديدة والمعتقدات الدينية القديمة أمرٌ أساسىٌّ ، وهذا المبدأ وحدَه يستطيع أن يوضحَ انتشارَ بعض الحركات المناقضة، على الخصوص ، لمقتضيات الاقتصاد فى الزمن الحديث .

وتمثِّلُ الأديان القديمة ، دائماً ، دوراً مهمًّا فى حياة الأمم السياسية على الرغم من الميل إلى استبدال مختلف المعتقدات السياسية بها ، وقد شُوهد ذلك عند ما تَمَرَّدت الألزاس على القوانين الُخرْقِ التى تؤذى معتقداتِها الدينية ، ولا يزال أقلُّ المسائل اللاهوتية فى إنكلترة قادراً على تحريك الرأى العامّ ، ومن الأمثلة البارزة على ذلك ما وقع من مناقشاتٍ عنيفة فى البرلمان البريطانىِّ حَوْل الاقتراح القائل بإدخال تغييرٍ طفيفٍ إلى كتاب الصلوات الرسمى .

* * *

ويُخَيَّل إلى رُسُل المعتقدات السياسية الجديدة ، المُعَدّةِ للقيام مقام المعتقدات الدينية القديمة ، أن يدافعوا عن مبادئَ كثيرةِ التقدم مع أنهم فى الحقيقة يعُودون ، غالباً ، إلى أشكالٍ من التطور الأدنى قُطِعَتْ منذ زمن طويل .

وفى أثناء الثورة الفرنسية على الخصوص يوجد فى القضايا الثورية كثيرٌ

من المبادئ الثورية ، والواقعُ ماذا كان يَطْلبُ رُوبِسْبِيرُ وزملاؤه الغِلاَظُ ؟ كانوا يطلبون العَوْد إلى نُظُم المجتمعات الابتدائية التي رأى أستاذُهم جان جاك رُوسُّو أنها تَقْضى بالعجب كما افْتَرَض ، مع أن هذه المجتمعاتِ كانت تؤلَّفُ من وحوشٍ لا أثَرَ للحضارة فيهم ، وما يَطْلُب الشيوعيون اليومَ غيرَ الرجوعِ إلى أشكالٍ من التطور تُرِكت منذ أزمنة التاريخ الأولى فعادت لا تُرَاعَى من قِبَل أناسٍ غيرِ القبائل الدنيا ؟

* * *

وما بين مقتضيات الاقتصاد والأوهام السياسية ذاتِ الشكل الدينىّ من تناقضٍ لم يُبْصِرْه المؤمنون قطُّ ، وكنَّا قد لاحظنا أن ما فى المعتقدات السياسية ذاتِ الشكل الدينىِّ من قوةٍ عظيمة يقوم على عدم الاكتراث لما تستلزمه حياةُ الأمم من شروطٍ حقيقية ، ويَلُوح أن هذه الأوهام قد تُصوِّرت لموجوداتٍ مُفْتَعَلةٍ خاليةٍ من الهَوَى والإرادة مُعَدَّةٍ لاتِّبَاع سُبُلٍ متماثلةٍ من المهد إلى اللحد .

وإذْ ليس على برامج المصلحين الوَجْدية أن تُبالِيَ بما يَسُودُ العالَم من ضروراتٍ فإنها تكون زاخرةً بأكثر الآمال إغواءً ، وهى تنطوى على بيانٍ عن السَّلْم والاتفاق ونَزْع السلاح وتساوى الثَّرَوات والأحوال معَ عدم اكتراثٍ للحقائق الاقتصادية التى تُقَيِّدُ الحياةَ الحاضرة بالتدريج تقييداً وثيقاً .

ويُحَرِّك الزمنُ الحاضر تحريكاً عنيفاً بما بين العواملِ الوَجْدِية التى تَقْهَر الروحَ البشرية دائماً ومقتضياتِ الاقتصاد التى تنشأ عن تقدم العلم من تناقض ، ولا مِراءَ فى حُلُول الأوهام السياسية محلَّ الأوهام الدينية ، ولكن كلاًّ منهما

يصطدم بذات المصاعب التى تنشأ عن تقدم المعرفة بالـكَوْن .

وفى كلٍّ يومٍ يَعْظُم الحقيقىُّ الذى هو وليدُ العلم من غير أن يَقْدِر على القيام ، مع ذلك ، مقامَ غيرِ الحقيقىِّ الذى يحتاج القلبُ إليه ، ولا رَيْبَ فى أن العامليْن الـكبيرين ، العلمىِّ والدينىِّ ، اللذين يُوَجِّهان حياةَ الناس ، سيدومان دواماً متوازياً زمناً طويلاً .

أَجَلْ ، إن المعارف العلمية غَيَّرَتْ ناحيةَ الحضاراتِ المادية تَغييراً عميقاً ، غير أن المعتقداتِ الوَجْدِيةَ ، دينيةً كانت أو سياسـية ، ظَلَّتْ قادرةً وحدَها حتى الآن على إيجاد اتحاد المشاعر والأفكار الضرورىِّ لثبات الذاتيات الجَمْعية ، ولا شكَّ فى أن ختام ما بين الحقيقىِّ وغـيرِ الحقيقىِّ من صراعٍ عظيمٍ لا يزال يَهُزُّ العالَمَ سيكون مبدأً حضارات جديدة .

الفصل الخامس

العادات والأخلاق والتربيــة

مهما تكن العواملُ الأولى لتطور الأمة ، سياسيةً كانت أو دينية أو اقتصادية أو غيرَها ، لا تؤثِّر تأثيراً عميقاً إلاَّ بعد أن تُحَوَّل إلى عاداتٍ غيرِ شعورية يَعُود البُرْهانُ غيرَ مؤثِّرٍ فيها ، وللعادات سلطانٌ لا يقاوَم ، وذلك لأن الفردَ الذى يَزْعُمُ أنه يتفلَّتُ من تأثيرها لا يَلْبَثُ أن يَرَى عدوًّا له جميعَ الزمرة التى ينتسب إليها ، أجَلْ ، يُمْكِن أن تتحول ، ولكنها تكون ذاتَ سلطانٍ مُطْلق فى أثناء دوامها ، وتكفى قوةُ المُوضة[1] ، التى لا تتجلّى فى اللباس فقط ، بَلْ ، أيضاً ، فى كثيرٍ من عناصر الحياة الاجتماعية ، فنيةً كانت أو ذهنيةً ، لإثبات أهمية هذه المناحى الجماعية فى حياة الأمم .

وتُعَدُّ العاداتُ من العوامل الأساسية فى استقرار المجتمعات ، فالأمةُ لا تَخْرُج من الهمجية إلا بعد أن تخضع لنِير العادة ، وهى تعود إليها منذ فُقْدانِ عنصرِ الاستقرار هذا لقوّته .

نَعَمْ ، إن القوانين تساعد على تثبيت العادات ، غير أنها لا تُوجِدُها ، ويجب على القانون ، لكى يكون مؤثِّراً ، أن يستوحىَ العادة ، لا أن يَسْبِقَها .

---

(١) La mode

* * *

وتَظْهَر العاداتُ بين بواعث الأخلاق الحقيقية ، أى العلمِ الذى يُنَظِّم السلوكَ كما جاء فى المعاجم .

وما انفكّت الفلسفةُ منذ قرنٍ تَبْحَث فى الأخلاق عادّةً إياها من المسائل الداخلةِ ضِمْنَ نِطاق العقل مع عدم خضوعها له إلاّ قليلا جدًّا ، وفى الأخلاق كان يَتَطرّق وهمٌ كبير إلى كَنْتَ الذى لا تزال نظرياتُه العقلية تسيطر على الدِّراسة الجامعية ، وكان كَنْتُ يستنبطُ وجودَ حياةٍ آخرة ووجودَ إلهٍ مُجازٍ من ضرورة المكافأة على الفضيلة والمعاقبة على الرذيلة .

والحقُّ أن القوانين الُخلقية تقوم على ضروراتٍ اجتماعية تَفرِض قوّتَها على جميع المجتمعات ، ومنها المجتمعاتُ الحيوانية ، قواعدَ ثابتةً قَسْراً ، ما دامت هذه القواعد تُمثِّلُ شروطَ الحياةِ فى المجتمع .

وبما أننى عالجتُ هذه المسائلَ فى كتابٍ آخرَ فإننى أكتفى بأن أذكر أن الأخلاقَ المؤثِّرَة لا يُمْكِن أن تُوجَد إلا بعاداتٍ لا شعورية تَبْقَى مبادئُ المزيةِ وعَدمِها غريبةً عنها تقريباً ، فالرجلُ الذى يَجِدُ شيئاً فَيَرُدُّه بعد كفاح باطنىٍّ فى آخر الأمر يُعَدُّ صاحبَ مزية ، ولكن مع اتصافه بخُلق ضعيف ، وهو إذا ما ردَّ الشىءَ بغريزته عُدَّ صاحبَ خُلق قوىّ ، ولكنْ مع عدم اتصافه بأية مزية كانت .

ويجب أن يَهْدِف تعليمُ الأخلاق إلى تثبيته حِسَّ الواجبِ فى مِنْطقة اللاشعور مهما كان الحال ، لا أن يقوم على استظهار المبادئ العقلية التى

يَنْدُر تأثيرُها فى سلوك الإنسان[1] .

ويستلزم اكتسابُ مبدأِ الواجب ذلك نظاماً بالغَ الشدة فى البُداءة ، ويستقرُّ هذا النظام فى مِنطقة اللاشعور بعد معاناته بجهدٍ ، وهنالك يصبح عادةً تُزَاول بلا مشقة ويوجِّهُ الإنسانَ فى مجرى جميع حياته .

ومن الصواب قولُ أحدِ أرباب الصِّناعة المشهورين فى ألمانية ، هِلْفرِيخ ، إن المدرسة والثُّكْنَة أوجبتا من عادات النظام والتدريب ما أَسْفَر عن قوة ألمانية وما يؤدى إلى نهوضها السريع فى هذه الأيام .

* * *

ويتألف من الدساتير الخُلقية والعاداتِ عواملُ زاجرةٌ قادرة على رَدْع الإنسان عن الإذعان لاندفاعاته الطبيعية التى هى دليلُ سلوكه ، وتتجلَّى أفضليةُ المتمدن على المتوحش فى كون الأول قد نال فى نهاية الأمر مجموعة من رُدُودِ الفعل الزاجرةِ التى تُعَلِّمُه أن يسيطر على نفسه وأن يُنَظِّم حياتَه على هذا الوجه .

ولا يوجد عند الأمم التى يُمْكِن أن توصف بالمتقلبة ، كالروس وأمم البلقان مثلاً ، عنصرُ ثباتٍ آخرُ غيرُ ما يُرَى من إرادةٍ مؤقتةٍ لدى

---

(١) يقوم استبدال التعليم العلمانى بالتعليم الدينى فى المدارس على خطأ نفسى عرف معظم الأمم أن يتخلص منه ، فالفتى يجد عناء كبيراً فى التعقل قليلا ، وبما أن الولد لا يتعقل مطلقاً فإنه لا يحوز غير أفكار تلقينية .

ويعد وجود إله قادر عالم بأكثر الأعمال خفاء زاجراً خلقياً للولد أشد فعلا من جميع عقليات الأساتذة ، ومتى اكتشف الولد مع العمر ما تنطوى عليه الأوهام الملائمة جيداً لصباه من قيمة عقابية ضعيفة أدرك كذلك مقدار ما لها من تأثير عظيم .

رؤسائها القادرين على فَرْضِ قوانينهم ، فإذا ما توارى هؤلاء الرؤساء زالت الوَحدة ، وبهذا تُفَسَّر السرعةُ التى تَمَّ بها انحطاط الإمبراطوريات الآسيوية العظمى كما تَمَّت عظمتها .

* * *

وهل يُمْكن الاعتماد على عَمَل القوانين الزاجرةِ بلوغاً لثبات السلوك ؟ كان جوابُ التجرِبة سلبيًّا منذ زمن طويل ، حتى إن هذه القوانينَ الزاجرةَ تُعَدُّ من أعظم أوهام العصر الحاضر خَطَراً ، والواقعُ أن الإحصاءاتِ تدلُّ على أنه ليس لمؤيِّداتِنا القضائية نتيجةٌ غيرُ إيجادِ أناسٍ من ذوى السوابق ، وهذا هو خلاف الغاية المَنْشُودة .

ويميل مبدأُ الضرورة بالتدريج إلى القيام مقامَ المبادئ القديمة التى قام الحقُّ القديم عليها ، فباسم الضرورة ، التى هى وليدةُ الخطِّ الحديدىِّ مثلاً ، يَرَى المالكُ نفسَه مطروداً ، وباسم الضرورة أيضاً كونُ القوانين الآتية ستقتصر ، كما ذهبتُ إليه منذ زمن طويل ، على مؤيِّدَيْن ، وهما : أن يُحْكَم فى الجرْم الأول مع وقف التنفيذ ، وأن يُحْكَم فى الجرْم الثانى بالإبعاد إلى إحدى المستعمرات البعيدة ، وذلك لأن تسعة أعشار المجرمين ممن لا يُرْجَى إصلاحُهم ، ولأن عدد أرباب السوابق يزيد بلا انقطاعٍ فيَزِيدُون خَطَراً بعد كل حُكْمٍ .

* * *

وشأنُ التربية عظيم ، ولا سيما عند الأمم التى لم يستقرَّ مزاجُها النفسىُّ بماضٍ طويلٍ بَعْدُ ، شأنُ المانية الحديثةِ مثلاً .

وإلى كتابى « روح التربية » أُحيل القارئ الذى يُعْنَى بهذه المسائل، ففيه يرى السببَ فى كون التربية التجريبية التى انتحلتها ألمانية وأمريكة أعلى بمراحلَ من تربية الأمم اللاتينية المحزنة القائمة على مزاولة الكتب .

وقد حاولتُ استخلاصَ المبادئ التى تؤدى إلى إصلاح شخصية الطالب فأبصرتُ وجودَ اثنين ، وهما : (١) التَّنَاديات بالملاصقة ، (٢) إقامةُ الانطباعات القوية ، ولكن مع قليلِ تكرارٍ ، مقامَ الانطباعات الضعيفة المكرَّرة كثيراً .

وبما أن قيمة المذهب لا يُمْكِن أن تَثْبُت إلاَّ بالتجرِبة فإننى طَبَّقْتُ المبدأين السابقين على ترويض بعض الحيوانات كالحِصان الذى استطعتُ أن أغيِّر عادتَه على هذا الوجه [١] .

وكذلك سَيْرُ الأمم يقوم على المبدأين المذكورين آنفاً ، وليست الصعوبة فى معرفتهما ، بل فى ممارستهما ممارسةً صائبة .

* * *

وينتشر مختلفُ عناصرِ الثبات التى لَخَّصناها سابقاً بفعلِ ذاتِ العاملِ النفسىِّ ، أى العَدْوَى النفسية ، وهذه هى تلقينٌ مُعَمَّمٌ من فَصيل المُنَوِّمين ، ويَبْدُو شأنها فى الحياة الاجتماعية عظيماً ، وهى إذْ كانت موجِدةَ المشاعر

(١) عرضت تطبيق هذه المبادئ فى كتاب عن الفروسية مشتمل على صور كثيرة خاطفة ، وقد اعترف بفائدة هذه المبادئ الكولونيل بلاك بلير الذى يعد من أعظم المتخصصين بالفروسية فى فرنسة ، والذى كان رئيساً لمدرسة فرسان سومور فى ذلك الحين ، فإليك ما قاله عن تلك المبادئ :

« أرى فى هذا الكتاب أعظم محول ! . . . ففصل « الأسس النفسية للترويض » من الروائع ، ومن لم يستبرحوا القواعد التى يشتمل عليها لا يمكن أن يطمعوا فى شىء من الفروسية . . . ويأتى هذا الكتاب نوراً على تعليم فننا بإبداعه مناهج ستبقى ثابتة . . . » .

والأفكار فإنها تهيمن على الطبائع والعادات والزِّىِّ والرأى وأهمِّ عناصر السلوك ، ولا يتخلَّص أعلى ذكاء من تأثيرها دائماً ، وتنشأ نقائصُنا وفضائلُنا وعزائمنا عن ظاهرة التلقين بالعدوى النفسية غالباً ، وهى تسيطر على مجرى التاريخ .

الفصل السادس

النُّظم السياسية

مَثلَت النُّظم السياسية ، ولا سيما ما نشأ عنها من صِراعٍ ، دائماً ، دَوْراً عظيماً فى ثبات الأمم وفى انحلالها أيضاً .

وتدلُّ المشاهدةُ على أن هذه النُّظُم تنشأ فى الغالب عن بعض الضرورات العامة التى هى أعلى من العزائم بمراحل ، وكان سلطانُ الضرورة قد اعتُرِف به من قِبَل قدماء فلاسفة اليونان ، فكان هؤلاء الفلاسفةُ يَعلَمون الحقيقةَ المَنْسِيَّةَ اليوم غالباً والقائلةَ إن الأمم ليست حُرَّةً فى اختيار نُظُمها ، ولكن مع اضطرارها إلى معاناة النُّظُم التى يَفْرِضها مزاجُها النفسِىُّ والأحوالُ الخارجية .

وكان أرسطو يقول فى كتاب « السياسة » بوجود صلةٍ وثيقةٍ بين أشكال الحكومة وحالِ المجتمع الاقتصادية والذهنية والخُلُقية التى دُعِيَت الحكومةُ لإدارتها .

وعند بُوليبَ أن سُنَّةَ التحولات السياسية هى من الثبوت كالسُّنَّة التى تسيطر على الحوادث الطبيعية ، وهل تنطوى هذه السُّنةُ ، كتطور الحياة لدى الفرد ، على زوالٍ نهائىٍّ يقابِلُ الحكمَ الديموقراطىَّ ؟ يؤيد أفلاطونُ هذا .

وإذا ما انتُقِلَ من العالَمَ اليونانىِّ إلى العالَمَ الرومانىِّ أُبْصِرَ شأنُ

الضرورة ، وأَبْصِرَ ، أيضاً ، شأنُ الاضطراب الناشئ عن تصادم المصالح ، ولم يَبْدُ نظامُ المدينة الرومانية قَطُّ ديموقراطيًّا حقيقةً ، فبَعْدَ حكومةٍ ملكيةٍ قصيرةِ الأَمَد حُـكِمَ في رومة ، في خمسة قرونٍ ، من قِبَل سِنَاتٍ سَيْطَر على العوامِّ المستعدين للعصيان في الغالب حُكماً مطلقاً ، ومع ذلك فقد نال العوامُّ في نهاية الأمر حَقَّ تَقَلُّدِ جميع المناصب القضائية ، وإِحداثَ محامين للشعب دفاعاً عن حقوقه فيقابِلون بالرفض كلَّ قانونٍ يَجِدُونه جائراً .

ومع ما بذله الرومانُ من جهودٍ لم يستطيعوا منعَ المنازعات الاجتماعية ، وقد أدت هذه المنازعات إلى ظهور طغاةٍ إمبراطوريين بعد مذابحَ كثيرةٍ كمذابحِ مارْيُوس وسِيلاَّ .

* * *

يُحْكَمَ في العـالَمَ بالممكنات ، لا بالمبادئ كما كان يعتقد مُونتسكيو الذى قال عند ما تكلَّم عن الرومان : « كانوا يتمتعون بسلسلةٍ متصلة من السعادة حينما حُـكِم فيهم وَفْقَ خِطةٍ وثيقة ، وكانوا يقاسون سلسلةً من النوازل حينما سِيقُوا إلى خِطةٍ أخرى » .

وتختلف الضروراتُ التى تُعَيِّنُ نُظُمَ الأمم ، وتَتَضمن الحياةُ الزراعية والحياةُ الرِّعائية والحياة التجارية والحياةُ العسكرية ، إلخ . ، نُظُماً ملائمةً لمقتضيات هذه الأحوال المختلفة .

وإذا عَدَوْتَ النُّظُمَ التي هي وليدةُ ضروراتِ الحياة وجدتَ نُظُماً أخرى نشأت عن المعتقدات التى ظَهَرَت في مختلف أدوار التاريخ ، فقد

حَوَّلت البُدَّهيةُ والإسلامُ والنصرانية ، إلخ . ، نُظُمَ بعضِ الأممِ السياسيةَ ، ومن ثَمَّ مزاجها النفسىَّ .

وقد أثَّرَت الفكرةُ النصرانيةُ فى سِنِى القرون الوسطى الألفِ فى أدقِّ جزئيات الحياةِ الأوربية ، وهنالك كان يوجِّهُ السلوكَ عنصران أساسيان : الفوزُ بجنةٍ زاخرةٍ بملاذَّ أبديةٍ واجتنابُ عذابِ النار ، وقد أسفرت هذه المناحى التى دامت طويلاً عن نُظُمٍ بلغت من القوة ما وُحِّدَت به الأفكارُ والمشاعر والعزائم .

* * *

ومن أعظم مصاعب الحياة الاجتماعية أن تلائمَ النُّظُمُ ما ينشأ عن الأحوال الخاصة من ضروراتٍ ملاءمةً تدريجية ، ومما رأيناه كونُ النظام الإقطاعىِّ ، مثلاً ، قد صَدَر عن ضروراتٍ تاريخية مُتَجَبِّرة ، ولا سيما ضرورةُ الحماية تِجاهَ الوعيد الخارجىِّ ، فلما زالت الأحوالُ التى جعلت ذلك النظامَ ضروريًّا لم يَبْقَ غيرُ مساوئه .

وهكذا عَيَّن وَضْعُ الصِّناعةِ الخاصُّ بالمدن الإيطالية فى القرون الوسطى ظهورَ النِّقابية ونشوءها ، وقد أسفرت مساوئُ هذا النظام وصَوْلاتُه عن فوضى طويلةِ المَدَى أدَّت إلى سقوط مختلف الُجمهوريات بالتتابع ، ومنها ُجمهوريةُ فلُورَنسة التى كانت أكثرَها ازدهاراً ، وقد خضعت هذه الُجمهوريةُ لنِير آل مِدِيسِيس عن ضروراتٍ نفسيةٍ مماثلةٍ للتى ساقت بعض الدول الأوربية حديثاً إلى معاناةِ نُظُمٍ دِكْتاتُورية .

وضروراتُ الزمن أيضاً هى التى أوجبت فى القرنِ الخامسَ عشرَ انصهارَ

دُوَيْلاتٍ فى دُوَلٍ عظيمةٍ كإسپانية وفرنسة وإنكلترة ، إلخ .

ومتى تَصَلَّبت شبكةُ التقاليد القديمة كثيراً لم يُمْكِن تحقيقُ الملاءمة قَطُّ إلاَّ بثورةٍ عنيفة ، وهذه هى الحال التى كانت عليها فرنسة أيام ثورتها الكبرى ، فبما أن المَلَكيةَ السابقة التى قامت بضمٍّ دُوَيلاتٍ مختلفةٍ ، كبُورْغُونية وبرِيتانية والپُروڤَنْس ، إلخ . ، حائزةٍ كلٌّ منها طبائعَها وعاداتِها ، ولغتَها أحياناً ، فإنها لم تتمتع بغير وَحدةٍ مفتعلة فى الغالب ، حتى فى ظلٍّ نظام لِويسَ الرابعَ عشرَ الاستبداديّ ، فكان على الملوك أن يكافحوا إلحافاتِ البرلمانات والمصالحَ المحلية ، إلخ . ، بلا انقطاع .

وكان توحيدُ بلدٍ بالغٍ هذا المقدارَ من الانقسام عملَ الثورة الفرنسية الأساسيَّ ، والمستقبلُ وحدَه هو الذى سيحكم فى كون نَفْع هذا التوحيدِ أكثرَ من ضَرِّه ، هذا التوحيدَ الذى أدى إلى زوال مراكز الثَّقافة الإقليمية ، ويَلُوحُ أن المركزية أمرٌ حسنٌ من الناحية العسكرية ، ولا مراءَ فى أن تعدد الأوساط الذهنية والفنية والتجارية أفضلُ من عدمه من ناحية تقدم الحضارة ، وكان من عوامل القوة البالغة فى ألمانية أن حافظتْ ، حتى فى زمن السيطرة الإمبراطورية ، على مراكز الثَّقافة المستقلِّ بعضها عن بعضٍ استقلالاً تامًّا .

* * *

ومتى اكتسبت الضروراتُ التاريخية المولِّدةُ للنُّظُم السياسية بعضَ القوة أصبحتَ الحوادثُ العَرَضية غيرَ ذاتِ تأثير كبير .

وما كان شارلُ المِقْحَامُ لِيَمْنَع بُورْغونية من أن تصيرَ فرنسية ، ولو

قَتَل لويسَ الحادىَ عشرَ المعتقلَ فى پِيرُون ، فالضروراتُ العامةُ كانت تَحْمِلُ جميعَ الدول الصغيرة فى ذلك الحين على ابتلاعها من قِبَل جاراتها الأكثرِ منها قوةً .

وإذا كانت الحركة نحو الوَحْدَة لم تُحَقَّق فى إيطالية وألمانية إلا بعد ثلاثة قرون فقط فذلك لأنه كان لا يوُجَدُ فى هذين البلدين المُجَزَّأيْن سلطةٌ بالغةٌ من القوة ما تستطيع أن تصبح معه مركزَ جَذْب .

وتدلُّ الأمثلةُ السابقة وما إليها على أن حياة الأمم السياسيةَ تبقى خاضعةً لضروراتٍ عامة تسيطر على التاريخ فى الحقيقة ، وإن كان من الممكن أن تعانىَ بعضَ المؤثرات العابرة .

وكذلك يجب أن تُذْكَر مجارى الآراء الجماعية ، أى عزائمُ العددِ ، بين تلك الضرورات المُوجِدَةِ للنُّظُم السياسية ، واليومَ تُصْبِحُ هذه المجارى قويةً شيئاً فشيئاً ، فتقلباتُ النظام السياسىِّ فى فرنسة تنشأ منذ ١٥٠ سنة عن تَمَوُّجات الرأى الكبرى .

* * *

وتَكْشِفُ دساتيرُ الأمةِ المدوَّنةُ عن شىءٍ قليل من حياتها السياسية الحقيقية على العموم ، وتَجِدُ لمُعْظَم الجمهوريات الإسپانية الصغيرة بأمريكة نُظُماً سياسية قريبةً جدًّا من نُظُم الولايات المتحدة ، ومع ذلك تَفْصِل هُوَّةٌ بين وَضْع جُزْأَىِ العالَمِ الجديد ، فترى الفوضى من ناحيةٍ ، وترى السعادة النامية من الناحية الأخرى .

ويدلُّ هذا المثال وما إليه على أن تطبيق نُظُمِ الشَّعْب السياسيةِ ، لا هذه النظمَ ، هو الذى يجب أن يُعْرَف .

وتَغِيبُ دراسةُ الحقائق المستترة تحت الظواهرِ عن المؤرخين فى الغالب ، وأمسِ فقط اكتشف رُقباءُ نَفَّاذُون فى الأمريكتيْن ، مثلاً ، فروقاً نفسيةً مَنْكورةً تماماً ، فهنالك أمْكَنَ أن يُعْرَف مقدارُ اختلاف مبادئ الولايات المتحدة السياسية والاجتماعية عن مبادئ الجمهوريات اللاتينية الجَنُوبية على الرغم من بعض المشابَهات .

وإذا كنا قد اخْترنا حالَ الأمريكتيْن الخاصّ فذلك لأن هذا الحال يُعَدُّ مثلاً بارزاً على الأغاليط التى يُمْكِن أن تؤتَى عند الاقتصار على دراسة النُّظُم السياسية فى الكتب بدلاً من أن يُبْحَث عن الوجه الذى طُبِّقَتْ به .

ولم تَعْرِف أوربة ، بَعْدُ ، أن تُحَقِّق ، كالولايات المتحدة ، جعلَ النُّظُم القديمة ملائمةً للضرورات الحديثة ، وذلك لبقائها خاضعةً لقُوًى وراثيةٍ ولأوهام النظريين التى تصادم ما يُقَيِّدُ الحياةَ العصرية من تطورٍ اقتصادىّ .

* * *

ومع أن النُّظم تنشأ عن ضروراتٍ مستقلةٍ عن العقل كثيراً فى بعض الأحيان فإن كثيراً من المفكرين فى البلاد اللاتينية يَظَلُّون قانعين بأن المنطق العقلىّ ينطوى على قدرة إصلاحية .

وأمسِ فقط زُلزل هذا الاعتقادُ قليلاً ، ومن ذلك أن أحد رؤساء وزرائنا ، الذين يُعَدُّون من أكثر أقطاب السياسة نفوذاً فى هذا الزمن ، قد أعرب

بالعبارة الآتية عما تمّ فى نفسه من تطورٍ حول هذه المسئلة الأساسية :

« أرانى ، بعد أن عِشْتُ فى المُطْلَق زمناً طويلاً ، مضطرًّا إلى الاعتراف بأن السياسة لم تكن غيرَ ملاءمةٍ لمقتضيات الوقت ، وقد انطلقتُ من المنطق الخالص فانتهيتُ إلى بَصَرِى بأنه خالٍ من كلِّ تأثير فى الحياة ، وفى الغالب يؤدى المنطقُ الخالص إلى حبوطٍ جلىٍّ ، فلا تَجْرِى الأمورُ كما يُشِيرُ العقل ، وتكون نهايةُ العالَمَ فى اليوم الذى يسيطر العقلُ فيه على العالَمَ على ما يحتمل ، وذلك لأننا نَسِيرُ باندفاعاتِ شَهَوَاتنا ، وليس العقل إلاَّ وميضاً بارداً لا يَحْفِزُ إلى العمل » .

حتى فى حقل العلم يُعَمَّمُ هذا الرأىُ حَوْلَ شأن العقل من قِبَل رجالٍ من ذوى الفضل ، وإليك ما كتبه إلىَّ هنرى پوانكَارِيه الشهيرُ عن هذا الموضوع :

« لا يوجد برهانٌ عقلىٌّ يُمكِنِ أن يَنْفُذَ كُنْهَ الأشياء ، فتَرَى المنطقَ صالحاً لأساتذة المدرسة » .

ثم إن المشاكل التى تَعْرِض على رجال السياسة فى كل يومٍ لا تُحَلُّ بالبراهين العقلية ، وكيف تُثَارُ ، مثلاً ، مسئلةُ نشوء الرأى واستعجاله وزواله ؟ وكيف يُسْتَبْدَلُ عنصرٌ عاطفىٌّ بآخرَ ؟ وما وسائلُ التأثيرِ فى الإرادة غيرِ الشاعرة للأفراد والأمم ؟

وتَكُون الكتبُ الكلاسيةُ[1] صفراً تقريباً حَوْلَ هذه المسائل ، ولا تَصْلُح المبادئُ التى تعلِّمها لغير الرسائل المَحْفِلية التى لا تؤثِّرُ فى الجموع ،

---

(١) Classiques

ويجب أن يقوم فَنُّ الحكم على مخاطبة العوامل الوَجْدِية والجماعية والعاطفية التى تَقُود الناس وعلى قلة مخاطبة العقل الذى يَنْدُرُ رجوعُ أَعاظم سادة العالَم إليه ، فهؤلاء السادةُ كانوا يَعْلَمون بغريزتهم أن العلم وليدُ العقل وأن المشاعرَ والمعتقداتِ هى التى أَوْجدت التاريخ .

ولا تشاهَدُ نتائجُ النُظُم السياسية حالاً ، وذلك لأنها تصبح عِلَلاً بدَوْرِها بعد أن كانت معلولاتٍ ، ومن ذلك أن قُرِّر فى عهد هنرى الرابع دَفْعُ أعضاء البرلمانات ضريبةً سنوية إلى الملك تَجْعَلُهم أصحاباً لمَنْصِبهم ، فلم يَلْبَث هذا أن أسفر عن إمكانهم توجيهَ اعتراضاتٍ كثيرةٍ إلى قرارات السلطة الملكية .

والوقائعُ التى من هذا النوع كثيرة ، فلما جَعَلت النُّظُمُ الديمقراطيةُ أمرَ الخدمة العسكرية عامًّا أدت إلى مذابحَ أعظمَ بمراحلَ من التى سبقتها سفكاً للدماء .

* * *

قد يَلُوح من مُبْتَذلاتِ التاريخ أن يقال إن النُّظُمَ السياسية إذْ تسيطر على حياة الأمم يجب أن تكون ملائمةً لمزاجها النفسىِّ ، وعلى العكس تدلُّ الملاحظةُ على أن هذه الحقيقة الجوهرية كانت مجهولةً كثيراً لدى كثيرٍ من رجال السياسة الذين عُهِدَ إليهم فى تدبير شؤون الأمم ، وجهلٌ مثلُ هذا أدى إلى اكتواء الأمريكيين بحرب الانفصال الهائلة ، وهو يُهَدِّد فرنسة بضَيَاع مستعمراتها .

ولم يستطعْ شيءٌ بَعْدُ أن يضعضع الوهمَ الهائل الذى يَسُوقنا إلى فرض

ما يسميه النظريون « نِعَمَ الحضارة » على الأمم التي ثبتت طِباعُها وعاداتُها في ماضٍ طويل .

والأمثلةُ كثيرةٌ منذ زمنٍ على الفعل المُخَرِّب الذي يُمكِنُ أن تصاب به أمةٌ باعتناقها نُظُماً سيئةَ الملاءمة لمزاجها النفسيِّ ، فإذا عَدَوْنا الحربَ الأهلية التي ما انفكّت تَقلِبُ الصين رأساً على عَقِب منذ سنين كثيرة ، هذا البلدَ الإقطاعيَّ منذ القرنِ الثاني عشرَ ، هذا البلدَ الذي يحاوِل انتحال نُظُم القرن العشرين ، وَجَدْنا مثالَ جمهورية هايتي الزِّنجيةِ من أبرز الأمثلة على ذلك ، فقد أدى اعتناقُها النُّظُمَ الأوربية إلى تعاقب أعمال النهب والقتل والتخريب فيها ، وكاد ذلك يَقضِي على أمةٍ بلغت درجةً كبيرةً من اليُسْرِ فيما مضى لو لم يتدخل الأمريكيون في الأمر أخيراً ليُعيدوا الأمْنَ إلى نصابه بعضَ الإعادة بين هذا الاضطراب ويَحُولُوا دون رجوع الجزيرة إلى حالها الوحشيِّ .

حتى إنه إذا ما وُقِفَ عند الناحية العملية حَصْراً يُرَى مقدارُ الفائدةِ في معرفة الأُسُسِ النفسية للنُّظُم السياسية التي تستطيع أن تلائم الأمةَ ، وذلك أن المجتمعاتِ أجهزةٌ مُعَقَّدةٌ كالموجود الحيِّ ، وأن من الضلال أن يحاوَل ، كما لا يزال بعض النظريين يحاوِل ، تغييرُها بقوة المراسيم ، فليست القوانينُ الإصلاحيةُ التي تُصَوِّت لها البَرْلمانات على عَجَلٍ غيرَ تَبَلُّرِ الأوهام تبلُّراً وقتيًّا خَطِراً في الغالب .

البَابُ الخامِسُ

العَنَاصِرُ التى تَنحَلُّ بهَا حَيَاةُ الأمَمْ

الفصل الأول

زوال المعتقدات

نُبَيِّن باختصارٍ كيف تنتهي العناصرُ التي تُثَبِّتَتْ إلى الانحلال بعد أن دَرَسنا العواملَ التي تَثْبُت بها الذاتياتُ الفردية والجماعية .

وفى المرتبة الأولى من عوامل الانحلال يأتى المعتقد الذى قامت عليه وَحدةُ الأممِ النفسيةُ .

ولِمَ تستحوذُ المعتقداتُ على النفس فى بعض الأحيان فتسيطر عليها سيطرةً تامة ، ولِمَ تعانِى السُّنَّةَ العامةَ التى تَحْكُمُ على المادىِّ وغيرِ المادىِّ بالذُّبُول ثم بالزوال بعد زمن ؟

تدلُّ التجربةُ على أن المعتقداتِ تَهِنُ مع الزمن ، ولكن يجب ، لكى تَخْسَر سلطانَها على النفوس ، أن يَظْهَر إيمانٌ حديد ليقوم مقامها .

ويَظْهَرُ سَيْرُ هذا التطور واحداً فى كلِّ حين ، ويؤول سلطانُ الإيمانِ البالغُ القوةِ فى البُداءة إلى الضعف والأفول بالتدريج حتى الزمنِ الذى لا يَبْقَى من المعتقد الأصلىِّ فيه غيرُ الطقوس والرموز ، وعلى ما يَبْدُو من دوام احترام المعتقد القديم يكون هذا المعتقد قد خَسِرَ النفوذَ المُوَجِّه فى الحقيقة ، وهنالك يُمْكِنُ أن يَنْبُتَ معتقد جديد على أنقاض المعتقد الذى عاد لا يَظْهَرُ منه غيرُ الذكرى .

ومن المُمْتِع بيانُ عَجْزِ العقل فى تكوين المعتقدات وتطورها ، وذلك لأنه يؤدى إلى تصحيح بعض الأوهام التاريخية ، ولا يزال كثيرٌ من الكتاب يَرَوْن أن كُتُبَ الفيلسوفيْن ، فُولْتِير ورُوسُو ، وغيرِهما زَلْزلات الإيمانَ الدينىَّ فى نفس المؤمنين حَوَالَىْ دَوْرِ الثورة الفرنسية ، فمن المشكوك فيه حقاً أن تُحَوِّل جميعُ كتبهم مؤمناً واحداً إلى مُلْحِد ، وما كانت هذه المؤلَّفات لتؤثِّر فى غير النفوس التى عاد إيمانها الظاهرُ لا يكون فى غير مزاولة العبادة خارجاً .

وتَصْلُحُ ظاهرةُ وهنِ الإيمانِ الدينىِّ هذه لإدراك السبب فى عدم فائدة معارضة المعتقدات السياسية ، التى بلغت من الشدَّة ما تؤلِّفُ معه ديناً ، بالمعتقدات القديمة ، فالمعتقداتُ الماضية لايعود شبابُها إليها .

والآن تُوجَدُ أوربة الحديثة فى دورٍ من أدوار التاريخ الحَرِجة المشابهة لأوائل النصرانية حين أخذت الوثنيةُ وهذا المعتقد الجديد فى الاصطراع .

و إذا كان العقلُ غيرَ مؤثِّرٍ فى المعتقدات الشعبية فهل كان يُمْكنه أن يؤثِّرَ فى أناسٍ بلغوا من الثَّقافة ما يستطيعون معه أن يُحَلِّلُوا إيمانهم ؟

نَجِد الجوابَ عن هذا السؤال فى الأمر القائل بتَقَبُّل كثيرٍ من أفاضل العلماء قِصصاً دينيةً على أنها من الحقائق التى لايجادَل فيها مع أنه لايستطيع عقلٌ أن يدافع عنها .

و بين هؤلاء العلماء الذين حَنَتْ معتقداتُ زمنِهم ظهورَهم لا يُمْكِنُ أن يُذْكَر غيرُ پَسْكالَ الذى حاول أن يجادل فى الإيمان بعقله ، فخَرَج الإيمانُ ظافراً من هذا الصراع ، وذلك أن هذا المفكرَ الشهير وَطَّن نفسَه أخيراً على عَدِّ الأقاصيص الدينية ، التى كان يَجِبُ أن يُوهِنَها الزمن ، من

الحقائق ، ولكن مع كونها تُمَثِّلُ فى عصره حقائقَ خالدةً .

وهل يستطيع معتقدٌ دينىٌّ أَوْهَنَه الزمن أن يتحول إلى معتقد عقلىّ ؟ لايأتى التاريخُ بغير مثالٍ على مِثْل هذا التحول ، وهذا هو الذى أتمته البرُوتستانية عندما اتخذت الطورَ العقلىَّ كما يُسَمَّى ، فقد رُفِضَ فى تطور النصرانية الأخير هذا مبدأُ وجودِ إلهٍ يَدَعُ ابنَه يَهلِك فى الآلام تكفيراً عن خطايا مخلوقاته ، وقد أضاع يسوعُ أصلَه الإلهىَّ وعاد لايُعَدُّ غيرَ معلِّمٍ بَشَّرَ بحقائقَ نافعةٍ ، والنصرانيةُ ، بعد أن تحَوَّلت على هذا الوجه ، عادت لاتكون دِيناً فى الحقيقة ، وصارت لاتلائم الرغائبَ الوَجْدية فى النفوس التى تُقْلِقُها الحاجةُ إلى الإيمان بعالَمٍ قادمٍ أكثرَ صَلاَحاً .

وما كان أشدُّ الاضطهادات ليزلزل المعتقداتِ ، وما كانت الاضطهاداتُ لتؤدىَ إلى غير تقويتها ، وقد أتيتُ بأمثلةٍ بارزة على أوائل الإصلاح الدينىِّ .

ولو دُعِىَ الشيوعيون فى بُقعةٍ ما من بِقاع العالَمَ إلى مكابدة العذاب الذى فرضه نِيرُونُ على النصارى لاتَّسَع نِطاقُ الإيمان الشيوعىِّ بأسرعَ مما يَتَفَّقُ له اليومَ لاريب .

* * *

وفى الجُمَل الآتية يُمْكِن أن تُلَخَّص المبادئ النفسية التى تسيطر على نشوء المعتقدات سواء أدينيةً كانت أم سياسية أم اجتماعية :

(١) إن الحاجةَ إلى معتقدٍ لتوجيه الأفكار والسَّيْر هو من التَّجَبُّر والقوة كالجوع والحبِّ .

(٢) إن الإنسان ، وإن كان يُغَيِّرُ اسمَ آلهته أحياناً ، يستمرُّ على السيطرة عليه ما سيطر عليه دائماً من العوامل الوَجْدية .

(٣) يَميلُ الإنسان العصريُّ إلى استبداله بالألوهيات الشخصية السابقة عقائدَ وصِيَغاً عُزِى إليها ما لهذه الألوهيات من قدرةٍ سحرية ، وما تنطوى عليه هذه العقائدُ الجديدةُ من صحةٍ ليس أعظمَ مما تنطوى عليه المعتقداتُ القديمة على العموم .

(٤) لا تقوم المعتقدات الدينية والمعتقداتُ السياسية ذاتُ الشكل الدينىِّ على العقل ولا يُمكِن أن تزُول بالعقل .

(٥) تَقُوم المعتقداتُ بالتلقين المشتقِّ من النفوذ والتوكيد والتكرار ، وتُعَدُّ العَدْوَى النفسيةُ أهمَّ وسيلةٍ لانتشارها .

ويُمكِن أن يقال ، كنتيجةٍ ، إن نفوذ الأشباح الإلهية التى عَمَرتِ السماءَ ، وإن نفوذَ الأوهام التى تَميلُ اليوم إلى القيامِ مقامَها ، مما يدلُّ على كَوْن غيرِ الحقيقىِّ يُمَثِّل فى التاريخ دَوْراً له من الأهمية ما للحقيقىِّ ، فبتأثير غيرِ الحقيقىِّ ظهرتْ حضاراتٌ عظيمة من العدم وآلت أخرى إلى العدم ، فغيرُ الحقيقىِّ أنعم على الإنسان بوهمٍ فى السعادة الأبدية التى لا تَمْنَحُه الطبيعةُ القاسية إياها ، ولولا قدرتُه لظَلَّت البشريةُ غائصةً فى وحشية خالدة .

أجَلْ ، استطاع العلمُ أن يُدْخل الإنسانَ إلى دائرة الحقيقىِّ بعد جهود قرونٍ ، بَيْدَ أن غيرَ الحقيقىِّ لا يزال يَغْمُره ، وقد خَرَج التاريخُ الحديث من الصِّراع بين الحقيقىِّ وغير الحقيقىِّ ، وأقول مُكَرِّراً إن غيرَ الحقيقىِّ المهيمنَ على أفكارنا ومعتقداتنا وأحلامنا يَظَلُّ من أعظم مُوجِدى الحقيقىِّ .

الفصل الثانى

الأوهام السياسية

يَظْهَر الصراعُ بين مختلف المُثُل العليا فى المرتبة الأولى من عوامل انحلال حياة المجتمعات .

وقد رأينا أن المُثُلَ العليا القادرةَ على توجيه حياة الشعب لا تدوم فى كلِّ وقت ، فهى تَخْسَر سلطانَها على النفوس فى آخر الأمر على الخصوص لِمَا تَعُود غيرَ ملائمةٍ للضرورات الناشئة عن تطور العالَم باستمرار ، وتُولَدُ أوهامٌ جديدة تصطرع مع الأوهام الماضية التى حافظت على نفوذها بفعل الوِراثة ، وقد قَلَبَ هذا الصراعُ النفسىُّ أوربة منذ ١٥٠ سنة .

وكان تاريخنا الخاصُّ المترجِّحُ بين الثورة الفرنسية وأيامنا نزاعاً مستمرًّا بين مختلِف المُثُل العليا ، وكانت نتائجهُ الأولى ظهورَ دِكتاتورٍ لا بُدَّ منه لإعادة النظام ، ثم اشتعالَ حروبٍ عشرين عاماً بين الأمم المدافعةِ عن مَثَلها الأعلى القديم وحُماةِ المَثَل الأعلى الجديد .

وقد دام النزاعُ على الرغم من موت الفاتح ممثِّلاً لخيال الثورة ، وما وقع من إعادات للنُّظُم لم يُفْلِحْ فى تثبيت المُثُل العليا السياسية ، وظَهَرَ ، بعد انقلاباتٍ اجتماعيةٍ أخرى نشأت عن بلبلةٍ فى النفوس ، دكتاتورٌ جديد هتفت له

سبعةُ ملايينِ صوتٍ ، وهو إذ لم يَعْرِف اجتنابَ العَمَايات النفسية التى ذهب أسلافُه ضحيةً لها شاهَدَ ختامَ دَوْره بحربٍ طاحنةٍ يجب أن يُبْصَرَ أصلُها فى العلل البعيدة للمذابح العظيمة التى عاناها العالَمَ .

* * *

ويتألفُ من أغاليط معاهدة الصلح التى خُتِمَتْ بها الحربُ الأخيرة مثالٌ بارز على ما يُمْكِنُ أن يكون للأوهام النفسية من نتائجَ فى حياة الأمم ، وليس من غير المفيد أن يُبْحَثَ فى تكوينها .

كان جهلُ حالِ ألمانية السياسية تامًّا ، وكان هذا البلدُ العظيمُ يُعَدُّ إمبراطوريةً وُحِّدَت تماماً ، مع أنها كانت تؤلِّفُ ، فى الحقيقة ، من ممالكَ مختلفةٍ أَلَّف بينها دفاعٌ مشتركٌ لحِينٍ .

ثم إن امتزاج مختلف الدول فى إمبراطوريةٍ واحدة لم يَقَعْ إلا عَقْبَ الانتصارات الجِرْمانية التى تَمَّتْ سنة ١٨٧١ ، فقد تَذَرَّع بسماركُ بنفوذه فنال فى ذلك الحين موافقةَ ملوكِ الممالك الألمانية ، بڤارية وسَكْسُونية ووُرْتِنْبِرغ ، إلخ . ، على تأليف اتحادٍ يرأسُه ملك پروسية ليقوم بإدارة المصالح العسكرية المشتركة بين جميع هذه الدول على الخصوص .

وما كان هذا النظام ليَحْرِم البلادَ المتحدة استقلالَها مطلقاً ، ولكنه كان يَضَعُها فى الأعمال الحربية وقليلٍ من الشؤون العامة تحت إدارة ملك پروسية الذى اتخذ فى البُداءة لقبَ إمبراطورِ ألمانية الفخرىَّ فقط ، وكانت كلُّ واحدةٍ من الدول المتحدة تحتفظ بولىِّ أمرها و بوزرائها و إدارتها ، أى باستقلالها الذاتىِّ ، وأراد بعض هذه الدول ، كبڤارية ، أن يدلَّ على استقلاله جيداً

فداوم على تمثيله فى الخارج بمفوَّضين دِبْلُميين[1] .

ومن الطبيعىّ أن يُوَسِّع الإمبراطور ، الذى لم يكن غيرَ مديرٍ للمصالح المشتركة ، سلطاتِه بالتدريج ، كما يَقَعُ فى أحوالٍ مماثلة ، فأصبح سيدَ ألمانية الوحيدَ فى أثناء حرب سنة ١٩١٤ لمدةِ القتال على الأقل .

وفى البُداءة قُصِرَ سلطانُه على تَفَوُّقٍ بسيط فاحْتُمِلَ بلا حماسةٍ فى كلّ وقتٍ من قِبَل الدول المتحدة ، حتى إن كثيراً من هذه الدول ، ولا سيما بقارية ، أبدى ثانىَ يومِ الهُدْنة مَيْلاً جَلِيًّا إلى الانفصال .

ولو كان الحلفاء يُدْرِكون وضعَ ألمانية السياسىَّ الحقيقىَّ حين كتابة معاهدة الصلح لأيَّدُوا هذه الميول ، ولو فاوضوا مختلفَ الدول الجرْمانية على انفرادٍ وَفْقَ شروطٍ تختلف باختلاف هذه الدول لاجتنبوا من فَوْرهم وجودَ ألمانيةٍ مُوَحَّدَةٍ متوعِّدةٍ أمامهم .

ولا رَيْبَ فى أن الدولَ التى وَحَّدَت پروسية بينها موقتاً كانت تَهْدِف إلى الوَحدة فى آخر الأمر ، غير أنه كان لا بُدَّ من انقضاء زمنٍ طويل يُهْمَلُ فى أثنائه كلُّ أملٍ فى الانتقام بحكم الضرورة .

وبعد أن ساعدت الدِّبْلُمية الأوربية على قيام مركزيةٍ كان يجب أن تؤجِّل حدوثَها أساءت إلى نفسها كثيراً بمَنْعِها ألمانَ النمسة من الانضمام إلى ألمانية ، فلا بُدَّ من وقوع هذا الانضمام الذى يطالب به المغلوبون باسم مبدأ القوميات الوهمىِّ الذى نادى به الغالبون ، وسيقع هذا بالتدريج ، ومن غير عنفٍ ، حينما تُلْغَى الجمارك بين البلدين ويُوَحَّدُ ما بين مصالحهما المشتركة ،

---

(١) Diplomatiques

وهنالك تُدَمَّجُ الجُمهورية النمسوية فى الإمبراطوية الألمانية مع محافظتها على استقلالٍ ذاتيّ ظاهر ، وذلك كما اتَّفَق تماماً لبڤارية وسَكْسُونية ووُرْتِنْبِرغ ، إلخ . ، التى تؤلِّف اليوم جزءًا منها .

وعندما يتمُّ هذا الضمُّ تـكون ألمانية قد نالت كثيراً بالحرب مع أن جميع بلاد أوربة خَرِبَتْ بهذا الصراع الهائل .

ومما يلاحَظ مع ذلك أن النمسة الفخورَ باستقلالها كانت لا تُفَـكِّر فى الانضمام إلى ألمانية مطلقاً لو لم يُجَرِّدْها صانعو معاهدة الصلح من أجمل ولاياتها لتتألَّف منها ممالكُ منفصلةٌ .

ومن النتائج القريبة أو البعيدة لمبدأ الحلفاء الضارِّ الذى صَدَرعن أوهامهم النفسية إحداثُ دُوَيْلاتٍ متنافسة راغبةٍ فى التوسع على حساب جيرانها ومُعِدَّةٍ لأوربة حروباً جديدة بذلك ، وذلك فضلاً عن تَوَسُّع ألمانية بضمِّ النمسة إليها .

ويُعَدُّ تقسيم النمسة إلى ممالكَ منفصلةٍ باسم مبدأ القوميات مثالاً على الخطأ الذى يُقْتَرَفُ بتطبيق مبدأٍ سَيْرٍ على أدوارٍ من التاريخ لا قيمةَ له فى غير أدوارٍ أخرى ، وكان يُمْـكن أن يُلْجَأَ إلى مبدأ القوميات فيما مضى ، ولـكنه قام مقامه منذ قرونٍ كثيرة مبدأٌ أكثرُ ملاءمةً للحاجات الجديدة ، أى مبدأُ جمعِ الدول الصغيرة ضِمْنَ دولٍ كبيرة .

ولو كان الألمانُ غالبين لأمكنهم أن يَزْعُموا ، باسم مبدأِ القوميات ، أن بريتانية ونُوْرماندية وأُڤِرْنية وبُوْرغُونية ، إلخ . ، إذ كانت تشتمل على عروقٍ مختلفـةٍ وجب أن تؤلِّف دولاً مستقلة ، وبذلك تـكون فرنسة قد

قُسِّمَت كما وَقَع للإمبراطورية النمسوية فى الوقت الحاضر .

* * *

ومن بين الأمثلة على نفوذ الأوهام النفسية فى التاريخ يُمْكِن أن تُذْكَر السياسةُ التى اتبَعَتها أوربة نحو تُركية ، هذه السياسةَ التى تَظْهر بين علل الحرب العظمى .

أجَلْ ، ما فَتِئَ بعض ولايات شبه جزيرة البلقان ، كالبوسنة وبلغارية ، إلخ. ، يُدَارُ ، منذ فتح القسطنطينية من قِبَل الترك ، بإدارةٍ عثمانية شديدة ، غير أن هذه الإدارةَ تتصفُ بملاءمتها تماماً لنفسية أهليها ، من أنصاف البرابرة ، الخاضعين لقوانينها ، والواقعُ أن تركية وُفِّقَتْ لإقامة سَلْمٍ تامٍّ بين أممٍ لم تحْلُمُ فى الماضى بغير تَذَابُحها وسلبِ بعضها بعضاً .

ولا جِدالَ فى هذه النتيجة ، بيد أنه كان يساور سياسِيِّ أوربة ، الذين استحوذ عليهم تخاصمُ الصليب والهلالِ التقليدىُّ من حيث لا يَشْعُرُون ، خيالُ نَزْعِ بعض الولاياتِ من تركية على الدوام ، وهكذا قَبَضت النمسة على البُوسْنة وقبضت إنكلترة على قبرس ، إلخ . ، وقد أصبحت ولاياتٌ أخرى ، كبلغارية وصربية على الخصوص ، مستقلةً .

واتبعت هذه الدولُ الجديدة عادةَ أهل البلقان فلم تلبث أن اشتبكت فى صِراعٍ مع جاراتها ، وكان أقلُّ هذه الدويلات أهميةً يحاول نَيْل عون دولة كبيرة ، ومن ذلك أن صربية وضعت نفسها تحت حماية روسية فرأت هذه الدولةُ نفسَها ملزمةً بتأييد تلك فى نزاعها مع النمسة ، وهنالك اشتعلت الحرب التى لم يكن أحدٌ لِيَتَمَثَّل بها استمرار الترك على الحكم فى البلقان .

إذَنْ ، قد انتهى سياسيو أوربة إلى النتيجتين الآتيتين بنزعهم من تركية ولاياتِها بالتدريج : (١) انفجار الحرب الطاحنة المخربة لأوربة ، (٢) تَوَقُّع نشوبِ منازعاتٍ جديدة بين دُوَيْلات البلقان التى أُقيمت على حساب تركية والتى هى من العجز التامّ ما لا تَسُودُ معه سَلْمٌ كانت تتمتع بمثله أيام الحكم العثمانىّ .

وقد استمرت أوهامُ أقطابِ الدول السياسيةُ حِيالَ تركية على ما كانت عليه قَبْلَ السَّلْم ، وقد أَمَلَ وزيرٌ إنكليزىٌّ بالغُ القدرة أن يُطْرَد المسلمون من أوربة نهائيًّا فأَغرى بهم الأغارقةَ الذين كانوا يحتلون إزمير ، فلما أبصرت تركية ما يَحِيقُ بها من خَطَرِ المَحْوِ من خريطة العالم السياسية جَمَعَتْ ما بَقِىَ عندها من الكتائب وانتهتْ بعد قتال المستميت إلى طرد بُغَاة اليونان من أرَضيها على الرغم من كثرة عددهم .

وقد تُوِّجَ هذا النصرُ الباهر بمعاهدةِ لوازن المُخْزِية لأوربة كثيراً ، والواقعُ أن هذه المعاهدةَ أباحت للترك أن يُخْرِجوا الأجانبَ من جميع المراكز التى يَشْغَلُونها فى الإدارة العثمانية ، وأنها حرَمتهم امتيازاتِهم الأجنبيةَ التى هى نتيجةُ عملِ قرونٍ كثيرة ، وهكذا تَغْدُو استنبولُ مدينةً تركيةً حَصْراً مع أنها عادت لا تكون كذلك منذ زمن طويل .

ومن ثَمَّ ترى أن أوهام الوزير الإنكليزىِّ السياسيةَ أدت ، من حيث النتيجةُ ، إلى مَنْحِ تركية ، هذا البلدَ الذى قُهِرَ فى الحرب العظمى ، مركزاً ممتازاً ما كان لينالَه من حلفائه الجِرْمان لو خَرَج هؤلاء من هذه الحرب غالبين .

وتدلُّ الأمثلة السابقة دلالةً واضحة على أن المدافع إذا كانت تُمَثِّلُ

دوراً عظيماً فى حياة الأمم فإن من الممكن أن يَغْدُوَ دورُ الأوهام السياسية أكبرَ من ذلك أيضاً ، فتأثيرُها الدائمُ من أكثر ما تُحَقِّقُه فلسفةُ التاريخ وقفاً للنظر .

* * *

ويتجلَّى اصطراع الأوهام السياسية ، أيضاً ، فى النزاع بين الأُممية والقومية وفكرةِ الوطن التى تُشْتَقُّ منها .

تَنِمُّ الأُمميةُ التى يَحْلُمُ الطاغيةُ الأحمرُ بنشرها فى العالَمَ بأَسرِه على خطأٍ فاحشٍ فى علم النفس فضلاً عن الوهم السياسىّ نظراً إلى التباين العميق فى مزاج مختلف الأمم النفسىِّ .

وعلى العكس تَبْدُو القومية ، التى هى نتيجةُ ما للأموات من سلطانٍ قوىٍّ على الأحياء ، آخرَ عنصرٍ قادرٍ على حفظ حياة الأمة ، فإذا ما قهرتها الأُمميةُ حُكِمَ على المجتمع ، الذى تكون القومية قد أُصيبت فى صميمه بمثل ذلك الحبوط ، بالزوال من فَوْره ، ولم يَحْدُث قَطُّ أن كان لحُبِّ الإنسانية فى الأمة من القوة مثلُ ما يَمْنَحه حبُّ الوطن .

ولا رَيْبَ فى أن الاشتراكيين الأُمميين يقولون موكِّدين للعامل إن وطنه الحقيقىَّ هو طبقتُه ، وإن أفرادَ الطبقة نفسِها إذ كانوا ذوى مصالحَ واحدةٍ فى مختلف البلدان فإن من الواجب أن يتحدوا فيما بينهم غيرَ مبالين بالحدود التى تَفْصِل بعضَهم عن بعض ، ومع ذلك يكفى أن يواجَه بين ممثلى ذات الطبقة فى مؤتمرٍ ، ولكن على أن يكون هؤلاء الممثلون من أمم مختلفة ، ليُرَى مقدارُ ما يَفْصِلُ بينهم من تباينٍ عِرْقىّ ، ولسرعان ما يقضى تباينُ

المشاعر والأفكار هذا على المنافع المشتركة ، فلا يُعَتِّمُ أولئك أن يتباغضوا كثيراً عن عدمِ تفاهمٍ .

وإذا كان قد أَمكن مجتَمَعنا أن يدوم على الرغم من الفوضى الغارقِ فيها فذلك لأن عوامل الماضى تُمْسِك كيانَ المجتمع القديمَ على الدوام .

* * *

وتدلُّ هذه النظرةُ الخاطفة فى حياة الأمم على أن الأوهام ما انْفَكَّت تُمَثِّلُ دوراً بالغَ الأهمية فى التطور الحديث كما فى الماضى ، وما فَتِئَت هذه الملِكةُ الحقيقيةُ للتاريخ ، والمسيطرةُ على الأفكار والعزائم ، تَسُود العالمَ .

وتقوم دراسة الماضى ، خاصةً ، على تفسير الأوهام التى ساسَتِ الأممَ ، وعلى نتائج مصارعتِها للضرورات التابعة لطبيعة الأمور ، لا لإرادة الرجال .

الفصل الثالث

اصطراعُ المبادئ الحديثة فى المساواة
وزيادة التفاوت فى الذكاء

تُعَدُّ الحاجةُ إلى المساواة من مُمَيِّزات الزمن الحاضر ، والحقيقةُ هى أن هذه الحاجة قديمةٌ قِدَمَ العالَمَ .

وتَجِدُ هذه الحاجةَ باديةً منذ فجر التاريخ فى قصة قَتْلِ هابيلَ من قِبَلِ قابيلَ الذى حَسَد أخاه على نصيبه ، ثم تُعَدُّ الحاجة إلى المساواة أهمَّ سببٍ فى سقوط أعظم الحضارات ، ولا سيما حضارةُ اليونان والرومان .

واليومَ تَجِدُ هذا الميلَ الأصيلَ إلى المساواة فى نزاعٍ صريحٍ مع مقتضيات التطور الحديث الذى يؤدى إلى تباين الناس بدلاً من تساويهم .

وإذا كانت المساواةُ سُنَّةَ الأمم الابتدائية فإن التفاوت نتيجةٌ لازمة لتقدم الحضارات ، واليومَ ترى مختلفَ طبقاتِ الأمة عينِها على درجاتٍ بالغةِ التفاوت ، والواقعُ أَن المجتمع الحديث يتألف ، بسبب ارتقائه فقط ، من أُناسٍ يُذَكِّرون بالأدوار المتعاقبة التى جاوزتها البشرية ، وهى : زمن المغاور والقرون الوسطى وعصر النهضة ، إلخ .

* * *

ومهما تكن قيمةُ مبدأ المساواة النفسيةُ فقد صار أَساسَ النُّظُم الديموقراطية ،

وهو يُمَثِّلُ دوراً عظيماً فى السياسة الحاضرة .

ولما حَلَّت النصرانيةُ محلَّ السلطة الرومانية قام الأملُ فى مساواةٍ سماوية مقام الحاجة إلى المساواة الدنيوية لبضعة قرون ، وقد حَوَّل الإيمانُ بهذه المساواة القادمة حياةَ الأمم فى جميع القرون الوسطى ، ومع ذلك فقد ذَوَى هذا الإيمان بالتدريج فلاح الصراعُ الأبدىُّ بين الغنىّ والفقير ، وبين القوىّ والضعيف ، وبين القادر والعاجز ، ذلك الصراعَ الذى هَزَّ العالَمَ كثيراً .

وتُعَدُّ الثورةُ الفرنسية من أهمِّ المحاولات التى بُذِلَت للوصول إلى المساواة الاجتماعية التى سَجَّلها التاريخ ، وإذْ لم يَجْرُؤ نظريُّوها على الجِدال فى التفاوت الطبيعىِّ الواضحِ أمرُه فقد اكْتَفَوْا فى البُداءة بتوكيدهم فى « إعلان حقوق الإنسان لسنة ١٧٨٩ » : « أن الناس يُولَدُون ويَبْقَوْن أحراراً متساوين فى الحقوق » .

ولما حَلَّت سنة ١٧٩٣ تَقَدَّموا خُطْوةً إلى الأمام فزعموا فى تصريحٍ جديدٍ أذاعوه « أن جميع الناس متساوون طبيعةً » .

وأخيراً أُلْقِىَ مبدأُ المساواة فى العالم فاستولى على النفوس شيئاً فشيئاً .

ومن بين الشِّعار الثورىِّ : « الحرية والمساواة والإخاء » تَرَى مبدأ المساواة وحدَه هو الذى استمرَّ على النموِّ ، ومبدأُ الإخاء ، وإن حافظ على شىء من النفوذ ، لم يَلْبَث أن أضاع قوته ، وقد داومت الأممُ ورجال السياسة على امتداحه مع أن تعاقب الحروب الكثيرة دلَّهم على موطن الخطر فى اعتقاده .

وأما الحريةُ فقد نَزَع تقدم الحضارة منها ، فى كلِّ يومٍ ، إمكانَ بقائها ، فقد أُحيط الإنسانُ من مهده إلى لحده بشبكةٍ من الأنظمة والقَهْر والالتزامات تستعبدُه مقداراً فمقداراً ، وكلُّ رفاهِيةٍ أوجدتْها الحضارةُ تؤدِّى إلى تعقيدٍ فى الحياة جديدٍ ، ومن ثَمَّ إلى تَعْبيدٍ جديد ، وفى كلِّ يومٍ تَعْظُم مجموعةُ النُّظُم والقوانين التى تُعَطِّلُ آخرَ ما بَقِىَ من قوة المبادرة ، ومن شأن انتصار الاشتراكية الحكومية إزالةُ كلِّ أثرٍ للحرية .

وفى اليوم الذى يُحَقَّقُ فيه الاشتراعُ الخيالىُّ بأكداسٍ من القوانين والأناظيم يَظْهَرُ واضحاً ما بين مبدأِ المساواة ومبدأِ الحرية من تباينٍ عظيم .

* * *

وما فَتِئَ مبدأُ المساواة بين أفراد الأمة الواحدة ، وبين مختلف العروق أيضاً ، يؤدى إلى كثيرٍ من الانقلابات .

فباسم هذا المبدأِ ، على الخصوص ، اكتوت الولاياتُ المتحدة بحرب الانفصال الأهلية التى اشتعلت لإلغاء الرِّقِّ ، وقد دامت هذه الحربُ أربعَ سنين ، وكادت تَقْضِى على تلك الجمهورية العظيمة ، وفى ذلك الزمن ، البعيدِ قليلاً على الخصوص ، عُدَّت جميعُ العروق متساويةً ، وظَلَّت الولايات المتحدة مُفَتَّحَةَ الأبواب لأنواع المهاجرين ، خلا الصينيين واليابانيين الذين يَعْمَلُون راضين بأجورٍ أقلَّ من أجور العمال الأمريكيين ، فيقومون بمزاحمةٍ خَطِرة ، لا لأنهم من عروقٍ متأخرة .

ومما ذكرتُ سابقاً أن مديرى السياسةِ الأمريكية رَجَعُوا اليومَ عن مبدأ المساواة القديم بين الناس ، فهم قد انتهوْا إلى الاعتراف بأن اختلاط العروق

المتفاوتة الذى لم تُدْرِكْ أمريكة اللاتينية خَطَرَه بَعْدُ كان مصيبةً على الأمة لتحديد مستواها فى الحضارة حتماً ، واليومَ إذ اعترِفَ ، عن تجْرِبةٍ ، بأن من المتعذر أن يُمَثَّلَ[1] ملايينُ الزنوجِ الثلاثةَ عشرَ الذين يقيمون بالولايات المتحدة فإنهم عُزِلوا عن البِيض تماماً .

* * *

ومن المُمْتع ، كما هو واضحٌ ، أن تُعَيَّن الفروقُ التشريحية التى يُشْتَقُّ منها ما يَفْصِلُ بين الناس من تفاوتٍ نفسىٍّ ، غير أن العلم لم يَبْلُغ من التقدم ما يَصِلُ به إلى هذه المعرفة ، ومع ذلك فإن من الثابت كما يَظْهَر كونَ الذكاء فى العالم الحيوانىِّ على نسبة ثِقَل الدماغ الموزونِ مباشرةً أو المستنبطِ من حجم الجمجمة ، وهكذا قُضِىَ بالبحث فى أن نموَّ الذكاء فى النوع البشرىِّ يكون على نسبة ثِقَل الدماغ .

وإذا أُهمل كثيرٌ من الشَّواذِّ لاح ثبوتُ هذه النسبة على العموم ، وقد أُتيحَ لى سابقاً أن أقابل فى مُتْحَف باريسَ بين مجموعةٍ من جماجم مشاهير الرجال كبوَالُو ولافُونْتِن وديكارت ، إلخ . فوجدتُ أن حجم دماغهم كان يختلف عن حجم دماغ الرجل المتوسط كاختلاف دماغ هذا الأخير عن دماغ القرد الكبير .

وبين الملاحظات التشريحية المتعة ، التى جَمَعْتها فى مذكرةٍ خاصة ، يَبْدُو الأمرُ الآتى الذى ألمعتُ إليه فى غضون هذا الكتاب ، وهو أن أفضلية أحد العروق الحقيقيةَ تقوم على حيازته عدداً من أرباب الذكاء الرفيع لا تحُوزُه

---

(١) Assimiler

العروقُ الدنيا ، ولو كُتِبَ النصر للبلشفية فى بلدٍ متمدن كبير فأدى ذلك إلى إهلاك جميع الأدمغة التى تجاوِز المستوى المتوسط ، كما وقع فى روسية ، لعاد هذا البلدُ إلى درجةٍ منحطةٍ من الحضارة فى سنين قليلة .

وليس مبدأُ التفاوت النفسىِّ بين العروق الذى قال به الأنغلوسَكْسُون هو ما عليه الأممُ اللاتينية مطلقاً .

وفى أمر هذا التفاوت بين مختلف العروق أثبتت المشاهدةُ إثباتاً كافياً كونَ كثيرٍ منها ، كالزنوج والپُورُوج (الحُمْرُ) ، إلخ . ، لا يستطيع أن يجاوز مستوًى مُعَيَّناً من الثَّقافة ، ويساعد انحطاطُ جمهورية هايتى التى يَسْكُنها الزنوج حصراً على بيان كَوْنِ كلٍّ عرقٍ لا يَقْدِرُ أن يَبْلُغ غيرَ درجةٍ من الحضارة مناسبةٍ لدماغه .

* * *

وما انفكَّ شأنُ الذكاء يَعْظُم بما أوجبته الحضاراتُ الحديثة من تعقيدٍ فى العلم والصِّناعة ، وقد نشأ عن هذا وجودُ أهميةٍ للتفاوت الذهنىِّ أعظمَ فى الوقت الحاضر مما كان له بدرجات ، وتصبح الفروق الدماغيةُ بين الأفراد والعامل والمهندس ، مثلاً ، كبيرةً ، ولا يُمْكِن إلاَّ أن تَزيد ، والحقُّ أن المجتمعاتِ تَسِيرُ نحو تفاوتٍ متزايد على الرغم من فَوْزِ المبادئ الديموقراطية ظاهراً .

وإذا كان هذا التفاوت لا يَبْدُو جليًّا بَعْدُ فذلك لأن سلطان الجموع يُلْقِى وهماً حَوْلَ قدرتها .

ومبادئُ المساواة لم تحوِّل السياسةَ الحديثةَ وحدَها ، بل تُغَيِّرُ نظرياتِ

التربية أيضاً ، فبما أن التفاوت بين أفراد البلد عينه لا ينشأ ، عند نظريّ التربية ، إلاَّ عن فروق التربية فإنه يَكفِي ، لبلوغ المساواة ، أن يُنْعَم على جميع الأولاد بالتربية عينها ، فمن مثل هذا الوهم خَرَج مبدأ المدرسة الواحدة .

وتكُون ألمانية أقربَ إلى الحقائق كأمريكة فتُقْدِم ، بالعكس ، على تزويد الولد بتربيةٍ ملائمةٍ لأهلياته النفسية .

وتَنِمُّ مساواةُ النظريين الوهميةُ ، التى يَزْعُمون أنها تَرُدُّ جميعَ المواطنين إلى مستوًى واحدٍ ، على تهديدٍ بالانحطاط ، لا على حالٍ تَقَدُّمىّ .

* * *

وينطوى مبدأُ المساواة البسيطُ نظريًّا على عناصرَ معقدةٍ ، ومتناقضةٍ أيضاً .

والواقعُ أن الحقائقَ المستترة تحت هذه الكلمة إذا ما حُلِّلت أُبْصِرَ أن مبدأ المساواة يَقترنُ باحتياجٍ شديدٍ إلى التفاوت على العموم ، فإرضاء هذا الميل المضاعف من أعظم المصاعب التى تَقْرَعُ الحكوماتِ ، ولم تَمْضِ أعوامٌ كثيرة بين الزمن الذى كان رُوبِسْپِيرُ يساوى فيه بين الناس تحت ساطور المِقْصَلَة والزمنِ الذى أعادت الإمبراطوريةُ فيه ألقابَ الشرف .

وكان ناپليونُ على علمٍ تامّ بحقيقة مبادئ المساواة ، فقد قَبِلَ منه أصلبُ اليعاقبة عُوداً ، قبولَ فَرِحٍ بَلَغ درجةَ الهَذَيان ، ألقابَ شرفٍ ازْدَرَوْها أيَّما ازدراء منذ بضع سنين ، ولكن فى الظاهر ، وفى أيامنا تُثْبِتُ كثرةُ

مُلْتَمِسى أوضعِ الأوسمة ، التى هى وليدةُ التفاوت ، مقدارَ اقتران الحاجةِ إلى التفاوت بالحاجة إلى المساواة .

وإذا كان حُمَاةُ مبدأِ المساواة لا يُبْصِرون الحاجةَ إلى التفاوت وراء أشواقهم إليه فى كلٍّ وقتٍ فإنهم يعتنقونه ، مع ذلك ، عند النظر إلى جماعةٍ ، فكلمةُ « دِكْتاتوريةِ الصعلكة » تَنْطَوى بحكم الضرورة على تفاوتٍ بالغٍ بين أفراد فريق الصعاليك ومن ليسوا منه .

والاشتراكيةُ والشيوعيةُ مدينتان بقوتهما لمبدأِ المساواة ، ومع ذلك فإن من الممكن ألاَّ يكون مِثْلُ هذه القوة غيرَ موقت ، وذلك لأن المساواةَ ، أى الحقدَ على الأفضليات ، أى الهدفَ المشتركَ بين جميع الديموقراطيات ، كان يؤدى ، بما لا مَفَرَّ منه ، إلى نهاية هذه الديموقراطيات .

والعالمُ ، فى حال الحضاراتِ الحاضرِ ، بَلَغَ من شِدَّة التعقيد ما يحتفظ عدمُ القابلية معه بسلطانٍ مكتسبٍ وقتيًّا ، وهذا من الوضوح ما تُدْرِكُه عناصرُ الصَّعْلكةِ المُثَقَّفةُ إدراكاً جيداً جِدًّا ، وكان من تعبير بعضهم عنه فى الأسطر الآتية بجلاء ما أنقلها معه هنا أيضاً لسَدادِها ، وإن كنتُ قد استشهدتُ بها فى أحد كتبى :

« مبادئكم خياليةٌ ، فهى تَمْنَح قوةَ الدولةِ القسريةَ مالا تنطوى عليه من قيمةٍ إبداعية . . . لن تُخْرِجوا مجتمعاً كاملاً بين عشيةٍ وضُحَاها ، ولن تُنْعِموا على العمال بقدرةٍ على إدارة الإنتاج والمقايضة ، أَجَلْ ، ستكونون سادةَ الساعة ، وستَقْبِضون على جميع السلطة التى كانت بالأمس خاصةً بالبُرْجوازية ، وستُكَدِّسون مراسيمَ فوقَ مراسيمَ ، ولكنكم لن تأتوا

بالمعجزات ، ولن تجعلوا من العمال أناساً قادرين على القيام مقام الرأسماليين بغتةً » .

وعلى العموم عُدَّتْ أحزابُ فرنسة الكبيرةُ مُوَاصِلَةً للثورة الفرنسية ومُلْهَمَةً من مبادئها ، ومن دواعى الرِّثاء لهـا أن يُوَاصِلَ التطورُ سَيْرَه ضِمْنَ معنًى مخالفٍ لمبادئها فى المساواة مخالفةً تامة .

الفصل الرابع

شأن الجماعات الحاضر

ترى المجتمعاتُ نفسَها خاضعةً بالتدريج لسلطانٍ جديدٍ ، أى لسلطان الجماعات ، وذلك بعد أن سيطر عليها الآلهةُ والملوكُ والخواصُّ بالتعاقب .

ويواجه العالَمُ الحاضرُ هذا الأمرَ المتناقض ، وهو : إخضاعُ الخواصِّ لعزائم الجماعات مع أن الحضارةَ لم تتقدم قَطُّ إلّا بنفوذ الخواصِّ وعلى الرغم من الجماعات .

وقد دَلَّت مباحثُ علم النفس الحديثةُ على تأصل أوهام محترفى السياسة الكثيرِ حولَ قُدرة العدد المفروضة ، وقد أَثبتت هذه المباحث كونَ آراءِ الجماعات خاليةً من مستندٍ عقلىٍّ ، فالإنسانُ فى الجماعة يَرْجِعُ إلى همجية ما قبل التاريخ .

ولا يؤثِّرُ فى الجماعات إلّا بمخاطبة مشاعرها خلافاً لِماَ يساوِر محترفى السياسة المعاصرين من أَوهامٍ عقلية .

وإذْ تَعْجِزُ الجماعاتُ عن الإدراك فإنها لا تلتمس الإدراكَ ، وإذا صار الفردُ جزءاً من جَمْعٍ نال قدرةً قاهرةً تُغْنِيه عن التأمل والتعقل قَبْل السَّيْر ، فضعيفو الذكاء من الأفراد إذا ما تَجَمَّعُوا نالوا قدرةً موقتة ، ولكنها عظيمةٌ جدًّا .

ولم يُعْرَف انحطاطُ الجماعات النفسىُّ إلّا منذ أبحاث علم النفس الحديث ، وقد جَهِلَ مؤرخو الماضى هذا الانحطاطَ على العموم ، ومن ذلك أن عَزَا

مِيشْلِهِ إلى الجماعات قابليات عاليةً ، فهو يَرَى أن الناس عُرْضةٌ للخطأِ إذا كانوا منفردين ، فيكفى أن يُجْمَعُوا لينالوا استعداداً عظيماً ، وهكذا فإن هذا المؤرخ الشهير كان يفتخر بعَدِّه الشعبَ بطلًا بدلًا من أن يَحْذُوَ حَذْوَ القدماء فيكتبَ تاريخَ الأبطال وقادةِ الشعوب ، ومن قوله :

« لقد تناولتُ التاريخَ من الأسفلِ فى صميم الجماعات ، أى فى غرائز الشعب فأظهرتُ كيف قاد زعماءَه » .

وبما أن جرائم الجماعات ظاهرةٌ ظهوراً لا جِدالَ فيه فإن مِيشْلِه لا يجادِلُ فيها ، ولكنه يَعْزُو هذه الجرائمَ إلى عواملَ مَرَضيةٍ عابرة دَعماً لرأيه ، « فعلمٌ للأمراض النفسية المُعْدِية » وحدَه يُمْكِنُه أن يُفسِّرَ الهَوْل على حسَب نظرياته .

* * *

ويُرَى فى جميع أدوار الفوضى ، أى فى الأدوار التى تنحلُّ الروابطُ الاجتماعية فيها ، تجلِّىَ عملِ الجماعات المُفْسِدِ للنظام ، غير أن شأنها كان موقتاً دائماً ، فلَسُرْعان ما كان يتوارى عاملُ التخريب .

وكان عملُ الجماعات أَقلَّ عنفاً ، فى الظاهِر أحياناً ، فصار أكثرَ خَطَراً فى الوقت الحاضر ، لأنه أكثرُ استمراراً ، ويَلُوح أن الشيوعية ، التى هى أقصى شكلٍ لقدرة العدد ، تُمَثِّلَ آخر تطورٍ للديموقراطيات ، منتظرةً خاتمتَها بدِكْتاتورياتٍ شخصية وَفْقَ سنةٍ صَوَّرها أفلاطونُ وحُقِّقَتْ غيرَ مرةٍ فى غضون التاريخ .

ويَنِمُّ تفوقُ العوامل الجماعية على تأخُّرٍ حقيقىٍّ مؤدٍّ إلى تلك الأشكال

المنحطة التى تلاحَظُ لدى الهَمَج الفطريين ، هؤلاء الذين يكون تَحَرُّرُ روحهم من الروح الجماعية من القِلَّة ما يُعَدُّ معه جميعُ أعضاء نَفْسِ القبيلة مسؤولين عن أعمال أحدهم ، وتُوَاصَلُ هذه الحقوقُ الجماعيةُ ، الكثيرةُ المبايِنَةِ للمبادئ الأوربية ، من قِبَل كثيرٍ من الشعوب ، ولا سيما الأنَّامِيُّون .

* * *

ومن دواعى الأسف أن ظهرت الجماعاتُ فى زمنٍ يُصْبِحُ فيه شأنُ الخواصِّ المُوَجِّهين أمراً ضروريًّا مقداراً فمقداراً ، ومما لوحظ منذ زمن طويلٍ أنه إذا ما حُذِف من بلدٍ ما ، كفرنسة مثلًا ، بضعةُ آلافِ الأفراد الذين يتألَّف منهم خِيَارُ جميع الطبقات ، ومنها طبقةُ العمال ، سَقَط هذا البلد من فَوْره إلى مستوى الصين .

أجلْ ، إن العدد يُوجِدُ القوة ، غير أن قوةَ العدد هذه لا تقوم مقام التوجيه الذى يتمُّ على يد الخواصّ .

وقوةُ العدد هَدَّامةٌ على الخصوص ، ولو سيطرت الجماعاتُ على العالَمَ منذ أصل الأجيال ما خَرَج الإنسان من الهمجية ، ولم يَتَفلَّت الإنسان من الهمجية إلاَّ بفضل بعض الأدمغة البالغة من القدرة ما حققت به كلَّ تقدم أساسيٍ أدى إلى ظهور الحضارات ونموِّها .

وتصبح الأخطارُ ، التى تُعَرَّضُ لها الأممُ بفعل سلطةِ العدد المتصاعدة ، أكثرَ ظهوراً يوماً فيوماً ، فيُمْكِن أن تنشأ حروبٌ طاحنة عن حركةٍ بسيطة فى الرأى تَشِيع بين الجموع بفعل العَدْوَى النفسية .

ولا مِرَاءَ فى أن القُوَى الاقتصاديةَ التى تَصْدُر عن اختلاط الأمم

تسيطر على العزائم الجَماعية بالتدريج ، بَيْدَ أن هذا التطور ليس فى غير أوائله .

* * *

وتكون الجماعاتُ خَطِرةً بنفوذها المحافظ أحياناً أكثر مما بعملها الثوريّ .
وقد جَرَّبت فرنسة ذلك عِدَّةَ مراتٍ منذ الثورة الفرنسية حتى أيامنا ، وعن المحافَظةِ الشعبية نشأت الإمبراطوريةُ الأولى والإمبراطوريةُ الثانية مع نتائجهما المشؤومة .

وينطوى عمل الجماعات على هَوْلٍ متساوٍ ، سواء أكان هذا العمل ثوريًّا أم محافظاً ، وذلك لِماَ يلازم الحركاتِ الشعبيةَ من عُنْفٍ فى كلّ حين ، ولِماَ تُصْبِح به هذه الحركاتُ أشدّ خَطَراً فى كلّ يوم بفعل اكتشافات العلم الحديثة ، ولو أضحى الكومونُ سيدَ باريس فى سنة ١٨٧١ وكان حائزاً لوسائل التخريب الحديثة لتحوَّلت هذه العاصمة العظيمة إلى رُكامٍ من الأنقاض ، ولم يَتَفَلَّت اللُّوفرُ وعجائبُه الفنية من الحريق الذى قَضَى على دار البلدية والتويلُرى وغيرهما من مبانى باريس إلاَّ لنَقْصِ وسائل التخريب المعروفة فى ذلك الحين ، ولو سقطت هذه المدينة القديمة بين يَدَىْ جماعةٍ ثوريةٍ مرةً أخرى لخُرِّبت تماماً على ما يحتمل .

وإذْ لم يُبَالِ محترفو السياسة بهذه الممكنات ، وإذْ يحاولون استغلالَ صَوْلاتِ الشعب ، يَدُلُّون على جهلٍ نفسىٍّ فيهم يُلْقِى الحيرة فى مؤرخى المستقبل .

وتَجِدُ الجماعاتُ فى عناصر الشعب المُنَوَّرة دعامةَ استحسانٍ لطَلَباتها ، والواقعُ أنه ينتصب اليومَ ضِدَّ الدولة جَحْفلٌ من الموظفين الذين يجب عليهم أن يؤيدوها وجحفلٌ من المُرَبِّين الذين يُعْهَدُ إليهم فى تثقيف الجموع .

ولو تَمَّ النصر لهؤلاء العصاة فى فرنسة لسقطت من فَوْرِها فى حالٍ مُنْحطةٍ من الفوضى التى كادت إيطالية تَسْقُط فيها حينما ظَهَر لإنقاذها من مصيبةٍ نهائيةٍ جَبَّارٌ فَعَّال .

* * *

وتجاوز أوربة دَوْراً من التردد ما انفكت الأوهامُ الديموقراطية تُغَذِّيه أكثرَ مما تُغَذِّيه الحقائق ، واليومَ يُحَقِّق ذلك جميعُ أقطاب السياسة ، وقد أبان ذلك جيداً أحدُ مشاهيرهم ، جورج كلِيمَنْسُو ، فى السطور الآتية التى اقتطفناها من كتابٍ كبيرٍ له كَثَّفَ فيه نتائجَ ملاحظاته ، قال كلِيمَنْسُو :

« ما فَتِئَتْ نفسُ المسائل تُوضَعُ منذ القرون القديمة على شكل مباحثَ أبديةٍ من غير أن تَدْنُوَ من حَلٍّ نهائىّ .

« . . . وقد أمكن القضاء على الأُلِيغارْشيات التاريخية القائمة على الوجاهة والثروة ، وهى تُبْعَثُ من رُفاتها ضِمْنَ أُلِيغارْشيات جديدة من غير ما كانت عليه من نفوذ القِدَم الذى ينطوى على سِرِّ قُوَّتها . . . وكلٌّ منها يعترف بالشعب حَكَماً ، ولكن مع جَعْلِهِ يتكلم .

« . . . وغُوسْتَاف لُوبون ، إذْ بَيَّن لنا بياناً قاطعاً كيف أن الأكثرياتِ عاجزةٌ عن القيام بغير أدنى دَرَكاتِ الذهن ، أتاح لنا فرصةَ إيضاحِ أوضعِ النتائج للحكومات القائمةِ على الأكثريات . . .

« وعلى العموم تُرَى أُلِيغارْشياتُ الديموقراطية تحت الاختبار ، وهى تَحْمِلُ ، مع مساوئ السلطة الشخصية أيضاً ، مساوئَ الغُفْلِية غيرِ المسؤولة بألفاظ المسؤولية[1] » .

(١) كتاب « مساء الفكر » لجورج كليمنسو .

* * *

إذا لم تكن ممكناتُ التطور من السرعة ما تلائم الحياةُ الاجتماعيةُ به ضروراتِ الوقت عَقَبتْ ذلك اضطراباتٌ عميقة ، ويُعَدُّ عدمُ الملاءمة هذا من عِلَلِ فوضى العالَمَ الحاضرة ، فالإنسانيةُ ، تحت ضغطِ سلسلةٍ من الاكتشافات العجيبة كتحولِ العمل الميكانيِّ وتواصلِ الأمم الاقتصاديِّ والتجاريِّ نتيجةً لإزالة المسافات ، إلخ . ، تَبْدُو فى أيامنا متنازعةً تنازعاً زائداً مع إنسانيةٍ متأخرة تُعَدُّ بقيةً موروثةً من أجيال سابقة وتؤلِّفُ كتيبةً عظيمةً من عديمى الالتئام ، ويقوم خيالُ هذا الجَمْع على تقويض الحضارات الرفيعة بالعنف فى سبيل ذوى الأمزجة النفسية المنحطة .

ويقَعُ بسرعةٍ متصاعدةٍ فى الوقت الحاضر ذلك التطورُ الذى كان يتمُّ ، فيما مضى ، ببطء بالغٍ فيجب مرورُ عِدَّةِ قرونٍ لتُبْصَرَ نتائجُه ، وتُقَدِّم ملاءمةُ أحوالِ العيش الجديدةُ ، السهلةُ على الأدمغةِ الناميةِ بما فيه الكفاية ، مصاعبَ شديدةً على أكثرية الناس الساحقة التى لم تَنَلْ مستوًى نفسياً بَعْدُ ، فينشأُ عن هذا اختلافٌ كبيرٌ بين العَدَد الحائز للقوة والخواصِّ المتصفين بالذكاء .

ففى كتب التاريخ القادمة وحدَها يُمْكِن ذَرَارِينا أن يُدْركوا نتائجَ مثلِ هذا الصِّراع .

* * *

ولا يقوم سلطانُ العدد على ما يُعْزَى إليه من قدرةٍ مادية فقط ، بل يقوم ، أيضاً ، على ما كان يُفْرَض له من قابليات إلى أن أثبتت الأبحاثُ

الحديثة فى روح الجماعات انحطاطَ الجماهيرِ النفسىَّ ، وكان نظريُّو الثورة الفرنسية يقولون « إن الشعب لا يخطئُ مطلقاً » ، ويَبْقَى هذا الاعتقادُ ركناً من أركان المذاهب الديموقراطية ، والزمنُ وحدَه هو القادر على إزالته ، وفى أيامنا يُتْرَكُ للجماعات أن تَعْتقد إمكانَ قيامِ العدد مقام المزايا الفنية التى ارتقت الحضاراتُ بها حتى الآن ، فبتأثير هذا الوهم زَعَم كثيرٌ من بلاد أوربة الكبيرة ، كإيطالية و إسپانية واليونان و پُولُونية ، إلخ . ، إعادتَه تنظيمَ حياتهِ الاجتماعية ، فأدى ذلك إلى الفوضى بسرعةٍ ، فوجب ظهورُ دكتاتورياتٍ لإعادة النظام إلى نصابه .

أَجَلْ ، يَظْهَرُ أن النظرياتِ القائلةَ بحقِّ العدد فى الحكم قد فازت فى روسية ، ولكن الحقيقةَ تقول بأن الحال لا يستقيم فى روسية إلاَّ لأن العَدد فيها غيرُ ذى سلطانٍ حقيقىّ ولأن ضروبَ السلطة فيها قبضةُ دكتاتوريةٍ شُرْطية أشدَّ وطأً من دكتاتورية القياصرة السابقين .

وقد انتشر الإيمانُ بقدرة العدد على التوجيه بين الأمم ، واليوم يطالب الصينيون والهندوس والمصريون ، إلخ . ، بالخلاص من حكومة الأمم الراقية ، ومن المؤسف أن ظَهَرت هذه الحاجةُ إلى الخَلاَص فى دورٍ من أدوار تاريخ العالم لم يُضْطَرَّ إلى المعارف الفنية كما اضْطُرَّ فيه ، فسيكون خُسْرُ المصريين والأناميين والهندوس كبيراً بتوارى الإدارة الأوربية (!)

ومن الواضح ، مثلاً ، كَوْنُ الحكومة الإنكليزية قد حوَّلت الهندَ ومصرَ تحويلاً تامًّا فيه نَفْعٌ لأهليهما ، وكَوْنُ الحكومة الفرنسية قد مارست ذاتَ النفوذِ الملائم فى الهند الصينية ومَرَّاكِش (!)

ومن ذلك مثلاً قولُ جريدةٍ ألمانية كبيرة عن مصر : « إن إنكلترة جعلت فى خمسين سنةً من هذا البلد الشرقىِّ ، الفقيرِ المَدِينِ الخالى من وسائلِ النقل والفريسةِ للفِتَن الداخلية ، دولةً منظمةً عجيبةَ الرِّىِّ ذاتَ خِصْبٍ منقطعِ النظير ، مع ماليةٍ متينة وإدارةٍ رائعة وطُرُقٍ عصرية » .

وستكون مشكلةُ المستقبل الكبرى فى معرفة ضرورة إعادة تنظيم المجتمعات حتى تكونَ على مستوى عديمى الائتلاف ، وذلك تجاه تعذر رفع هذا الجَحْفل من عديمى الائتلاف إلى شىء من النشوء ، وذلك إلى أن هؤلاء لا يَكْسِبون شيئاً من ذلك ، فمهما يكن من حقدهم على الخواصِّ يَتوقَّف على الخواصِّ دائماً ما يَنْتَفع به العددُ الأكبر من تقدم .

ويَظْهَرُ من حال العالَم الحاضرة أنه عاد لا يُمْكِن أن يكون للحكومة غيرُ واحدٍ من شكلين : سيطرةِ الخواصِّ أو دكتاتوريةِ الصعاليك ، فإلى هذا الشكل الثانى تميل أوربة مقداراً فمقداراً ، وإلى الشكل الأول ستَسِيرُ بعضُ الأمم ذاتَ يومٍ ، فيكون فى هذا الخيار سِرُّ عظمتها .

البَابُ السَّادِسُ

عَوامِل التّاريخ الجَديدَة

الفصل الأول

تطورُ العالَمِ الاقتصاديّ
وعناصرُ اليُسرِ الحديثةُ

اختلفت العواملُ التى وَجَّهَتْ نشاطَ الأمم فى مختلف أدوار تاريخها ، فكانت عواملَ حربيةً حيناً وعواملَ دينيةً أو سياسيةً حيناً آخر ، وبين هذه العوامل المختلفة ، أى العِرْقية أو الدينيـة أو السياسية أو الحربية أو الاجتماعية ، التى أَثَّرَت فى مختلف مراحل التاريخ ، مَثِّلت العواملُ الاقتصادية دوراً لم تزَل أهميته تَعْظُمُ ، وقد بَلَغت هذه العوامل الاقتصادية من النفوذ ماجَعَل أنصارُ المذهب المعروف بـ « المادية التاريخية » منها جوهرَ جميع الحضارات .

وترَى الشأنَ الحديث للعوامل الاقتصـادية مَدِيناً ، على الخصوص ، لاكتشافات العلم التى غَيَّرت شروط الحياة تغييراً تامًّا .

واليومَ ، إذا عَدَوْتَ زِرَاعةَ بلدٍ وجدتَ ثروتَه تتوقف على مقدار ما يتصرف فيه من قوةٍ بخارية ، فما كانت إسپانية وإيطالية والبلقان ، الفقيراتُ فى الفحم الحجرىِّ ، لتُساوِىَ ، اقتصاديًّا ، إنكلترة وأمريكة الغنيتين به مثلاً ، ولو عرَفَت القرونُ القديمة أمرَ الفحم الحجرىِّ ما بَقِيَتْ بلادُ اليونان وإيطالية قُطْبَىِ الحضارةِ الكبيرين لا رَيْب .

* * *

وقد جعلت كثرةُ وسائل النقل الحديثةُ مختلفَ الأمم من كثرة التضامن ما يكون عملُ حكوماتها معه دون عَمل صِلاتها التجارية .

وتشاهَد نتائجُ مثلِ هذا التواصل يومياً حتى بين البقاع البعيدِ بعضُها من بعض ، ومن ذلك أن مُرَبِّى الحيوانات الأُسْتراليين ، مثلاً ، يُضْطَرُّون ، عن عدم وجود الفحم الحجريِّ الضروريِّ للمصانع ، إلى إرسال صُوف ضَأْنهم إلى إنكلترة ليُنْسَجَ فيها على الرغم من نفقات النقل المضاعَفة .

ولا يستطيعُ بلدٌ فى الوقت الحاضر أن يعيش من مُنْتَجاته حَصْراً ، وكان أُوليسُ فى جزيرته قائماً بحاجات نفسه مستعيناً بِپِنِيلُوپَ و بعضِ الرُّعاة ، والآن يتطلب صُنْعُ ثوبٍ بسيط تعاونَ قارَّاتٍ كثيرة ، واليومَ ترانا محاطين بأشياءَ تأتى من جميع أجزاء العالم ، فتُبْصِرُ أحقرَ مواطنٍ مديناً بحياته اليومية للعالَم بأَسرِه .

ولسهولة العلاقات الأُممية ، الحديثةِ فى التاريخ كثيراً ، نتائجُ لا يُمْكِن إلا أن تَعظُم ، فكلُّ أمةٍ مُضْطرَّةٌ إلى البحث فى الأقاصى عما يُعوِزُها ، وهى تَدْفَع ما يفيضُ من إنتاجها ثمناً له ، ولا تعيش الأمم الحاضرة إلا بتبادلها ما تُنْتِج ، وقد بَلَغ الإصدارُ من فرنسة عشرَ مرات زيادةً على ما كان عليه سنة ١٨٤٠ ، وقد بلغ الإصدار من الولايات المتحدة عشرين مرةً زيادةً على ما كان عليه فى تلك السنة .

وهكذا تقوم الأممُ بمزاحمةٍ اضطرارية يُحَدَّد بها ثمنُ بَيْعِ السِّلع ، ومن ثَمَّ عادت الأجور لا تُعيَّن بإرادة العامل ، ولا بإرادة صاحب المصنع ، بل بإمكانيات البيع ، وفى الاقتصاد السياسىِّ تكون للحوادث الباديةِ النفع ، فى

الغالب ، نتائجُ مخالفةٌ للمَرْجُوِّ منها ، ومن ذلك أن نال عمال الإنكليز ارتفاعاً عظيماً فى الأجور بواسطة نِقاباتهم فأدى هذا إلى زيادة ثمن التّكلِفَة فإلى بِطالةٍ واسعةِ المَدَى لِماَ حَدَث من صعوبة البيع تَبَعاً لذلك ، أى جاءت هذه النتيجةُ المخالفةُ مخالفةً مطلقة لِماَ كان العمال وزعماؤهم يعتقدون نَيْلَه .

* * *

يوجد بين الحوادث الاقتصادية التى تصبح ناظمةَ العالم الكبرى ماسيكون أعظمَ من العوامل السياسية القديمة بمراحل ، ومن ذلك ، مَثَلاً ، نَقْصُ الأسواق الخارجية بالتدريج ، هذا النقصُ الذى يَزِيدُ يوماً بعد يوم ، والواقعُ أن جميع البلدان تُجَهَّزُ بالآلاتِ مقداراً فمقداراً لتقوم بحاجات نفسها وتَصِيرَ مُصْدِرةً .

وفى أيامنا تَبْدُو التدابيرُ الاشتراعية البالغةُ النفع فى طفولة الأمم من عدم الجَدْوَى مالا تُحَلُّ المشاكلُ الاقتصادية معه .

وتُعَدُّ البِطالةُ التى تشاهد لدى كثيرٍ من الأمم الأوربية ، كإنكلترة مثلاً ، نتيجةَ إغلاقِ الأسواق الخارجية بالتدريج .

وتعتقد بعضُ الدول قدرتَها على معالجة أخطار هذا الوَضْع برسوم الجمارك التى تَحُول دون مزاحمةِ المُنْتَجات القومية ، ولكن هذه الدول إذْ تَخْشَى المقابلَة بالمثل فإنها تُضْطَرُّ إلى عدم الإيغال فى هذا السبيل ، ولارَيْبَ فى أن آخر حاصلٍ للإفراط فى الإنتاج لدى مختلف الأمم هو حدوث نقصٍ كافٍ فى السكان يكون به مناسباً لوسائل العيش .

ويُمْكِن تَمَثُّلُ مقدارِ ما تؤدِّى إليه البِطالة من خراب عند التفكير فى

اضطرار إنكلترة إلى تموين ثلاثة ملايين بَطَّال ، وتُعَدُّ هذه المشكلةُ من أصعب مشاكل الحياة الاقتصادية فى العالم ، وقد لَخَّصت « الطَّانُ » ناحيةَ هذه الأَزْمةِ العامةَ فى السطور الآتية :

« . . . مرضٌ مزمنٌ لدى بعض الدول ، حادٌّ لدى الأخرى ، من غير أن يُمْكن التفريقُ بين الدول الرأسمالية والدول الشيوعية ، وإذْ أن هذه الدول تُصَاب بهذا المرض على نَحْوٍ واحد فإنه يُهَدِّد بإهلاك أقوى الأمم ، وذلك بتَعَرُّضها لعدم صبر الجمهور أو لأن هذه الأمم تَسَعُ تلك الدول فى مقابل تضحياتٍ مُبيدة .

« . . . ونَرَى أنه يوجد لدى البلاشفة من البَطَّالين بمقدار عمال الإنكليز ومُمَوّلى الأمريكيين ، وما سببُ هذا المرضِ ، الذى يَبدو الخبراء الاجتماعيون عاجزين تِجاهه ، إذَنْ ؟ . . .

« . . . ومع ذلك لم يَصِلِ الإنكليزُ ، الذين يُعَانُون هذه المصيبةَ منذ ثمانيةِ أعوامٍ ، إلى نتيجةٍ عملية حتى الآن ، خلا ما هو واقعٌ من دفعهم فى كلِّ سنةٍ مليارات ٍ إلى عمالٍ يائسين يَفْقِدُون ذوقَ العمل وعادتَه شيئاً فشيئاً .

« . . . وعند سكرتير المالية السابق ، مستر صموئيل ، أن البِطالة ناشئةٌ عن نَقْص المَبيعات الإنكليزية فى الأسواق الخارجية نتيجةً لارتفاع ثَمَن التَّكْلِفة ، فقد قال : « إن عمالنا أرادوا تعيينَ أجورهم إجمالاً مع أن المشترين من الأجانب هم الذين يُعَيِّنُون هذه الأجور » .

« . . . والوضعُ فى جميع البلدان هو أن الصِّناعات التى تقوم بالخِدَم هى مما تؤلّف به بالتدريج طبقةٌ ممتازة إجحافاً بالزُّرّاع أولاً ، وبالعمال ثانياً ،

والخلاصةُ هى أنه كلما ثَقُلَتْ وطأةُ الاستخدام العامِّ والخاصِّ على الأمة قلَّ إنتاجها ، وهى تصبح بذلك كالمصنع الذى يعتصر نفقاتِه العامة .

« . . . وقد تَذَرَّعت فرنسة بما لم تتذرَّع به إنكلترة من حكمةٍ فلم تُضَحِّ بزراعتها فى سبيل صِناعتها ، ولا رَيْبَ فى أنها عاشت ضِمْن أحوالٍ أقلَّ رَغَداً وأنها لم تُثْرِ على ذات الوَزن ، ولكنها تمتعت باستقرارٍ يَحْسُدها عليه جميعُ العالم ، وليس أقلَّ من هذا صحةً كونُ سكونِ تناسلها يهيئ لها فرصةَ زيادة العمل وإن كان يجعلها على مستوًى متأخرٍ فى المسابقات العسكرية » .

وكيف تُعَدُّ وسائل العيش لِجَمْعِ البَطَّالين المتكاثر ؟ تقترب الساعةُ التى لا تستطيع ميزانيةٌ أن تُمَوِّنهم فيها ، ولا يُمْكِن أن يُوجَدَ ما لا نهاية له من الأعمال العامة لإعاشتهم ، والآن يُكْتفى بإيجاد طُرُقٍ لذلك ، ومن ذلك أن قَلَّلَتْ إيطالية رواتبَ جميع موظفيها ، ومنهم الوزراء ، بمقدار اثنى عشرَ فى المئة ، ومن ذلك أن كثيراً من الشركات فى إنكلترة يحاول خَفْضَ الأجور على السواء ، ولا بُدَّ من انتحال هذا الحلِّ الموقت بحكم الضرورة فى جميع البلدان التى يزيد عدد سكانها على وسائل العيش فيها .

* * *

وتكفى الملاحظاتُ السابقة ، على اختصارها ، لبيان كون الحوادث الاقتصادية فى أيامنا تؤلِّف شَبَكةً من العِلَل والمعلولات أعلى من جميع العزائم ، فيَخْضَعُ لسلطانها جميعُ عناصر الحياة الاجتماعية المترجِّحةِ بين عدد السكان وأدقِّ جزئيات العيش .

ومن ذلك أن أصبح عددُ سكان ألمانية ٦٧ مليوناً فى سنة ١٩١٤ ، بعد أن كان ٣٦ مليوناً فى سنة ١٨٧١ ، أى إنه صار ضِعْفَ ما كان عليه تقريباً ، فوَجَب لتغذية سكانٍ أخذوا يجاوزون وسائلَ عيشهم بهذا المقدار أن يُبْحَث عن منافذَ فى البلدان البعيدة ، فأدت هذه الضرورة إلى إيجادِ بحرية تجارية ثم إلى إيجادِ بحرية حربية لحمايتها .

ووَجَدَ هؤلاء الواردون الجدُدُ على الأسواق الاقتصادية الأجنبية أنفسَهم مزاحمين لأمم أخرى مُصْدِرَةٍ مستقرّةٍ منذ زمن طويل ، فنشأت عن ذلك منازعاتٌ كانت من أسباب الحرب الأخيرة .

ومع أن الحروبَ السابقة كانت حروبَ ضَمٍّ ناشئةً عن طموح الملوك على العموم فإن الحروب الحاضرة تنشأ عن مصالحَ اقتصاديةٍ على الخصوص .

* * *

وبما أن أجور العمال تحَدَّد بثَمَن التَّكلِفَة ولا تَتْبَع إرادةَ العمال ولا إرادةَ أصحاب المصانع فإنه صار يُبْحَثُ عن إمكان زيادة الأجور من غير أن يُزَاد ثَمَنُ التَّكْلفة .

حُلَّت هذه المُعْضِلةُ المستعصيةُ حَلاًّ جزئيًّا بتجارِبَ أدتْ إلى ما سُمِّىَ مذهبَ العمل العقلىَّ ، وقام هذا المذهبُ على سلسلة من الطُّرُق التى يُزَادُ بها الإنتاج من غير أن يزاد العمل ، فإذا ما أُفْرِطَ فى توسيع مَدَى هذا المذهب الرائع فى ذاته أمْكَنَ أن يؤدِّىَ إلى زيادةٍ فى الإنتاج مُوجبةٍ بطالاتٍ جديدةً .

وكان من النتائج النهائية لمقتضيات الاقتصاد ، التى أشرنا إلى بعض عناصرها ، ولاسيما هبوطُ ثمن التَّكالِفة ، إيجادُ مصانعَ واسعةٍ حيث يؤدى

التخصُّص فى العمل إلى دخلٍ أكثرَ اقتصاداً ، وقد أدى هذا الاحتياج إلى مصانعَ أكثرَ اتساعاً ، ومن ثَمَّ أغلى ثمناً ، إلى جَعْل إيجادها جماعيًّا ، فبما أن قليلاً من المستصنِعين يكون على شىء من الثَّراء ما يُنشِئها معه فإن مُعْظم المصانع المهمة وُضِع على شكل شركات مُغفلة يَمْلِكها ألوفٌ من أصحاب الأسْهم .

إذَنْ ، تُسْفرُ مقتضياتُ الاقتصاد التى نُعَدِّدها إلى تَحَوُّل الرأسمالية الفردية إلى رأسمالية جَماعية ، وتختلف هذه الرأسمالية الجماعية عن الرأسمالية الحكومية التى يَحْلُم بها الاشتراكيون فتؤدِّى ، دائماً ، إلى زيادة ثمن التَّكلفة ، ومن ثَمَّ تؤدى إلى نَقْص أُجور العمال .

وقد أثبتت الوقائع ، خلافاً لزعم كارْل مارْكس ، أن أسهم مواثقاتِ الولاياتِ المتحدة العظيمةَ موزَّعةٌ بين عدد متصاعد من الأيدى ، ومما لاحظه مسيو پُول رِينُو « أن عدد أصحاب الأسهم فى شركة الزيت بلغ ٧٧٢٠٠ فى سنة ١٩٢٦ بعد أن كان ٧٦٥٩ فى سنة ١٩١٧ . . . فالمشروعُ الكبير يتحول إلى شىء مشترك بين العامل والمستصنِع » .

و بذلك يُمْكِن تصوُّرُ مقدارِ الازدراء الذى ينظر به العمالُ الأمريكيون إلى الاشتراكية الأوربية ، فهى لا تُعَدُّ عندهم غَيرَ عُنوان لتعطيل كلِّ جهد وللاستعباد الحكومىّ وللمساواة فى البؤس .

* * *

ومن أشدِّ العوامل الاقتصادية الحديثة فعلاً هو زيادةُ السرعة باستمرارٍ فى جميع ناظمات الحوادث ، ويُشْتقُّ تأثيرها من السُّنَن العلمية التى

لا يَخْلو ذِكرُها من فائدة .

تقوم معادلاتُ السكون الكُبرَى على الحركة ، أى القوة ، وعلى مقاومة الحركة ، أى السكون ، أعنى خاصِّيَّةَ المادةِ الجوهريةَ .

وتدلُّ المعادلةُ الميكانِيَّةُ الأساسية(١) على ما للجِرْم والسرعة من شأنٍ متقابل ، وعلى الوجه الذى يقوم به كلٌّ من هذين العنصرين مقام الآخر من غير تغييرٍ فى النتيجة ، ومن الممكن ، إذَنْ ، أن يَحُلَّ صِغَرُ الأجرام محلَّ زيادة سرعتها ، ومن ذلك أن قام تقدمُ المدفعية على إحلال القنابل الصغيرة ذاتِ السرعة العظيمة محلَّ القنابل الضخمة ذاتِ السرعة الضعيفة .

وقد بينتُ فى كتابٍ آخرَ أن من الممكن تصوُّرَ آلةٍ نظرية مؤلَّفةٍ من كُرَيَّةٍ دقيقة تَدُور فى دائرةِ فَصٍّ خاتَمٍ فتُنْتِج بسرعةِ دورانها حَوْل المركز من القوة ما يَعْدِل قوةَ ألفِ قاطرةٍ بخارية .

ويتمُّ إحلالُ السرعة محلَّ الجِرْم فى الصِّناعة مقداراً فمقداراً ، ففى الماضى كانت تُسْتَخْدَمْ دواليبُ ضخمةٌ ذاتُ محورٍ عموديٍّ يَدُورُ بالمياه الجارية ، وفى الزمن الحاضر تَتَّخذ المصانعُ المائية القائمةُ فى أسفل الجبال دواليبَ يَبْلُغ قطرُها بضعةَ سنتيمترات فقط ، ولكن مع تزويدها بحركةٍ دوَرانية سريعةٍ جِدًّا ، فيُنَالُ الإنتاجُ نَفْسُه بفصل ارتفاع الحوْض الذى يُمِدُّها .

وإلى زمنٍ قريب كانت سرعةُ الآلات محدودةً جِدًّا ما قامت المحرِّكاتُ على قوة الإنسان والحيوان والرِّيح والماء فقط .

ولما اكْتُشِفَت الطاقةُ المُحَرِّكة الكامنة فى الفحم الحجريّ زادت سرعةُ

---

(١) $T = \frac{mv^2}{2}$

الآلات وعددُها زيادةً عظيمة ، فبالنظام الآليِّ ظَهَر عصرُ السرعة ، أَجَلْ ، استمرَّت المصانعُ على استخدام عددٍ من العمال المنظورين ، ولكنه يَعْمل بجانبهم جَمْعٌ من العبيد الخافِين الذين يَزِيدون الإنتاجَ زيادةً هائلة ، ويتألَّف هذا الجَمْعُ من القُوَى المستخرَجة من الفحم الحجريِّ ، وفى كتاب « المعارف النفسية حَوْل الحرب » بَيَّنْتُ أن ما يُنْتِجه العملُ حين الصِّراع بالـ ١٩٠ مليون طن من الفحم الحجريِّ ، الذى تستخرجه ألمانية من أرضها ، يَعْدل إنتاجَ ٩٥٠ مليون عامل ، ولذلك يُمْكِن أن يقال إن عدد عمال ألمانية الخافِين فى ذلك الحين كان ٩٥٠ من الملايين ، أى أكثرَ بمراحلَ من ملايين السكان الـ ٦٥ الذين أشارت الإحصاءاتُ إليهم .

* * *

ويبْدُو شأنُ السرعة العظيمُ فى جميع حوادث الحياة الحاضرة ، ولا سيما فى إيجاد الثروة ، ويَظْهَرُ هذا الإيجاد مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً فى سرعته تداول النقد .

والواقعُ أنه يُمْكِن استبدالُ سرعةِ التداول بضخامة رأس المال ، كما أنه يُمْكِن أن يُعْتاض من صِغَر الجِرْم بزيادة سرعته ، وليس المُهِمُّ فى التجارة الحديثة مقدارُ الربح من بَيْعِ إحدى السِّلَع ، بل سرعةُ تجديد هذه السلعة ، ومن الممكن ، كما هو واضح ، أن يؤدىَ ربحُ خمسةٍ فى المئة من بَيْعِ السلعة بيعاً مُكرَّراً فى الغالب إلى ثمرةٍ أعظمَ من ربْح خمسين فى المئة من ذاتِ السلعة التى تُترَك زمناً طويلاً فى المخزن .

والسرعةُ تُمَثِّلُ دوراً مهمًّا فى العلاقات الدَّولية أيضاً ، فهى إذ قَلَّلَت المسافاتِ عمليًّا أسفرت عن تماسٍّ أممٍ غير متعارفة سابقاً ، فغَيَّرت أحوال

معايشها غالباً ، وإلى وقتٍ قريب كان لا بُدَّ من مدةِ خمسةَ عشرَ يوماً يُقْضَى فى السفر بين باريسَ ومَرْسِلْية ، فصار يكفى قضاء ما بين ثلاثِ ساعاتٍ وأربع ساعات لقَطْع عينِ المَسافة .

ولكن تقريبَ المساوف إذا كان قد أوجب جَمْعَ ما بين مصالح الأمم فإنه لم يُوَحِّدْ بين مشاعرها بَعْدُ ، فالتواصلُ الاقتصادىُّ لا يُحْدِث تواصلاً نفسيًّا .

وقد امتدت زيادةُ السرعة من العالَم المادىِّ إلى العالَم النفسىِّ ، ويلوح أن الإنسان العصرىّ حائزٌ نَمَطاً أشدَّ سرعةً فى الرؤية والإحساس والترجيع ، ولو أمكن أن تُقَاسَ مدةُ أيامنا بمقدار العمل المُنْجَزِ ومجموعِ المشاعرِ المتراكمة فى هذه الأيام لأمكن أن يقال إن طولَ الحياة زاد زيادةً بالغةً باكتساب السرعة .

* * *

والسرعةُ ، على الخصوص ، هى التى تَميزُ الحضارةَ الحاضرة من الحضارات السابقة ، وهى تَبْرُز بين أهمِّ القُوَى الاقتصادية التى تَميلُ ، إذْ ينضمُّ بعضُها إلى بعضٍ ، إلى تكوين سلطةٍ عالمية مُغْفَلَةٍ بالغةٍ من القدرة ما تسيطر معه على إرادة الأمم والمشترعين والملوك ، وتؤدى هذه القُوَى الجديدةُ إلى تقدم من يَعْرِف ملاءمتها من الأمم ، وتَسُوق إلى انحطاطٍ مُقَدَّرٍ مَنْ يَعْجِزُ عن ملاءمتها من الأمم .

وإذ أننى لا أستطيع هنا أن أبحث فى سلسلة التحولات الاقتصادية التى يعانيها العالَمُ فى الوقت الحاضر فإننى أُلَخِّصُ أهمَّها ضِمْنَ تأملاتٍ قصيرة ، فأقول :

∴ لم يَكَدْ يَمُرُّ قرنٌ على الزمن الذى كان بعضُ الأمم فيه مستقلاً عن بعض، واليومَ لا يستطيع بعضُ الأمم أن يَسْتغنى فى الحياة عن بعض.

∴ من الأدلة على تواصل الأمم فى الوقت الحاضر ما حَدَث من اشتراك الولايات المتحدة فى الحرب ، وكانت هذه الحربُ التى لاح أنها لا تكترث لها من نتائج تطور العالَم الاقتصادىِّ حديثاً .

∴ من نتائج تواصل الأمم أن تؤدى حربٌ بين أمتين إلى حرب بين جميع الأمم .

∴ يؤلِّفُ مختلفُ بلدان العالَمِ إمبراطوريةً صِناعيةً عظيمةً فى الوقت الحاضر وإن كان بعضُها منفصلاً عن بعضٍ ظاهراً .

∴ يتوقَّف غِنَى الأمة أو فقرها ، فى الغالب ، على الصِّلات التجارية البعيدة المستقلةِ عن الحكومات تماماً .

∴ تميل قدرةُ بعض البلادِ الماليةُ إلى تمثيل دورٍ أعظمَ بمراحلَ من الدور الذى كانت تمثله قدرتُها الحربية ، وينشأ قسمٌ من تفَوُّق الأمريكيين الحاضر عن أنهم أصبحوا أصحاباً لعددٍ كبير من الصِّناعات الأوربية ، وقد تكون هذه الظاهرةُ أكثرَ تأثيراً فى حفظ السِّلْم من جميع القرارات الفقهية التى تصدر عن جمعية الأمم .

ويكفى التعدادُ البسيطُ السابق لإثباتنا قلةَ أهميةِ عزائم الملوك والمشترعين ونظريى جميع الأحزاب تِجاه الضرورات الكبرى التى تهيمن على سَيْر العالَمَ الاقتصادىِّ فى الوقت الحاضر، ولم يُسَجِّل التاريخ ، قَطُّ ، معلوماتٍ أصحَّ من هذه .

الفصل الثانى

الوَضْعُ الحاضر لأهمِّ دول العالَمَ

كان العالَمُ ، إلى وقتٍ قريب ، خاضعاً لمبادئَ دينيةٍ وسياسية واجتماعية بسيطةٍ إلى الغاية مقبولةٍ على العموم ، ولم تَصْنَع الثَّوْراتُ غيرَ تغيير الأسماء فى الغالب .

والأمرُ غيرُ ذلك فى هذه الأيام ، فما أَبْصر العالَمُ ظهورَه من قُوًى جديدةٍ حَوَّلَ شروطَ حياةِ الناس واحتياجاتِهم ومشاعرَهم وأفكارَهم تحويلاً تامًّا .

ويجاوِزُ العالَمُ كلُّه دوراً من أَسْودِ أدوار تاريخه الطويل وأنورها معاً ، من أنورها لِمَا تَمَّ فيه من الاكتشافات العجيبة التى حوَّلت وَجْهَ الحضاراتِ المادىَّ ، ومن أَسْودها لِمَا يُحيطُ بالأمم من وعيد .

وإذْ لم يَعْنِ لى أن أَعْرِض مُفَصَّلاً وَضْعَ مختلف البلدان فإننى أُخَصِّص بعضَ السطور لكلٍّ منها ، فهى تكفى لبيان الفوضى العامة الناشئةِ عن التطور الصِّناعىِّ والاقتصادىِّ والسياسىِّ البالغِ من السرعة ما لا يلائم مزاجَ الأمم النفسىَّ الموروث .

* * *

وَضْعُ فرنسة — عانت فرنسة ستَّ ثَوْراتٍ ونُظُمٍ فى أقلَّ من قرنٍ ونصفِ قرن ، وقد بلغتْ أُخرى حكوماتِها من الانقسام ما لم تبْقَ معه

إلا بمعجزات التوازن المُجَدَّدة بلا انقطاع .

واليومَ يُوجَدُ فى فرنسة أحزابٌ كبيرةٌ كثيرةٌ يَفصِل بينها تناظرُها ، ويُعَدُّ الحزبُ الجذْرِىُّ (الراديكالىُّ) والحزبُ النقابىُّ والحزبُ الاشتراكىُّ والحزبُ الشيوعىُّ أكثرَها نفوذاً ، ويقترب الحزبُ الجذْرىُّ من الاشتراكية شيئاً فشيئاً وسيندمج فيها ذاتَ يومٍ حتْماً .

وقد استحوذت على هذه الأحزاب المختلفة أوهامٌ يتعذَّر تحقيقُها ويَعُدُّها أنصارُها من الحقائق الساطعة .

ومع ذلك فإن هذه الانقساماتِ السياسيةَ ليست فى غيرِ الظاهر ، فالواقعُ أنه لا يُوجَدُ فى فرنسة غيرُ حزبٍ واحدٍ ، غيرُ الحكومية ، وإن اختلفت الأسماء ، كما كَرَّرْتُ ذلك غالباً .

فالفرنسيون ، من أىِّ مذهبٍ كانوا ، يَطْلُبون تدخُّلَ الدولة فى أدقِّ الأمور ، والاشتراكيةُ هى أكثر الأحزاب طَلَباً لتدخُّلِ الدولة ، وليس فى غير هذه النقطة ما تختلفُ عن أقلِّها تقدماً .

ويُعَدُّ الاشتراكيون خَطِرين بأوهامهم كما يُعَدُّون بمذاهبهم ، ومما لُوحِظَ فى الغالب كَوْنُ الاشتراكيين هم الذين حَملُوا على الجيش عَشِيَّةَ الحربِ وعلى خدمة السنين الثلاث ، وهم الذين أسقطوا الحكومة فى يونيه سنة ١٩١٤ متذرِّعين بأنها كانت تبالِغ فى تصوير الخطَر الخارجىِّ .

وفرنسة هى ، على الخصوص ، ضحيةُ أغاليطِ سياسييها وما ينشأُ عن هذه الأغاليط من القوانين ، ومما رُئِىَ ذلك المثالُ البارزُ فى تطبيق قانونِ التأمينات الاجتماعية المشؤوم الذى وُضِع لغَرَض إنسانىّ فأدى من حيث

النتيجةُ إلى فِتَنٍ وإضرابات، وإلى ارتفاعٍ مفاجئٍ فى أثمان الأَقْوات فى كلٍّ مكان .

وبما أن العمال رَفَضُوا ، كما كان يُمْكِن أن يُبْصَر ، تأديةَ ما يَطْلُبه القانون من دَفَعَاتٍ على أُجورهم فقد نشأ عن ذلك بحكم الضرورة اضطرارُ رؤساء المشروع إلى الدفع بدلًا منهم ، ومن ثَمَّ إلى رَفْع ثمن المُنْتَجات رفعاً مؤدياً إلى زيادة مُعَدَّل الحياة حالًا وتَعَذُّرِ إصدارِ السِّلَع التى يُوجِبُ ارتفاعُ ثَمَنِ التَّكْلِفَة بيعَها بأغلى مما يبيعها به المنافسون من الأجانب .

وبأساليبَ تختلف عن تلك كثيراً عَرَف مُسْتصنِعو الولايات المتحدة أن يَضْمَنُوا للعمال ما تقتضيه شيخوختهم من رواتب تقاعد .

ومن الصواب أن قيل إن تطبيق قانون التأمينات الاجتماعىّ عُدَّ من قِبَل جميع أعداء المجتمع ، ولا سيما الشيوعيون والاشتراكيون ، مرحلةً إلى الثورة الاجتماعية التى يَحْلُم بها جَحْفَلُ عديمى الالتئام .

وكثيرٌ عددُ هؤلاء الأعداء البالغى العَمَى ، أى الشديدى الخطر على المجتمع الحاضر ، وكثيرٌ من الصُّحُف رَوَى أنه أُنْشِدَ فى المؤتمر الذى عُقِدَ فى رِنيمَ فى شهر يوليه سنة ١٩٣٠ ، جامعاً لممثلى ثمانين ألفَ مُدَرِّس تابعٍ للنِّقابة القومية كما تُسَمَّى ، النشيدُ المعروفُ باسم « الأُمَمِىِّ » والقائلُ بتقويض المجتمع .

وزيادةٌ جديدةٌ فى الرواتب هى ما يَطْلُبه هؤلاء المدرِّسون ، هذه الزيادةَ المتعذرةَ لأن الزيادةَ المتصاعدة فى النفقات العامة هى ، كما قال رئيس الوزراء ، تَقْفِزُ بالميزانية من المليارات الخمسة التى كانت عليها قبل

الحرب إلى اثنين وخمسين ملياراً فى سنة ١٩٣٠ .

ويضيف هذا الرئيسُ إلى ذلك قوله : « لا يَصْنَع المجلسان غيرَ زيادة النفقات بدلاً من تحديدها » .

* * *

وضعُ إنكلترة — تَلُوح إنكلترة أقلَّ ارتجاجاً بسبب ثباتها المتأصل ، ومع ذلك فهى مضطربةٌ كثيراً فى حياتها القومية لِمَا تقاسيه من إضراباتٍ وبِطالةٍ ، ونزاعٍ شديد بين أنصار حرية المبادلة وأنصار نظام الحماية ، وعصيانِ ممتلكاتها ومستعمراتها .

ومن أهم نتائج الحرب وجميعِ المؤتمرات التى عَقَبَتْها نقصانُ سلطانِ إنكلترة السياسىِّ والحربىِّ ، فهى بعد أن أضاعت إِيرلندة رَضِيَت بأن تُصْبح مستقلةً تقريباً مستعمراتُها السابقةُ التى صارت ممتلَكاتٍ ، ولاسيما كَنَدَة وأُسْترالية ، واليومَ تطالِبُ مصرُ والهندُ بمثل هذا الاستقلال الذاتىِّ .

وتكون أحكامُنا حَوْلَ الأمم الأجنبية مُخْتَلَّةً حتماً ، وذلك لاشتمالِ هذه الأمم على عروقٍ وأديانٍ ولغاتٍ مختلفة ، كما هى حالُ الهند مثلاً ، فالهندُ قارَّةٌ واسعةٌ يُمْكِن أن يُبْصَرَ فيها ، عند التَّنَقُّلِ البسيط ، جميعُ وجوهِ حياة الإنسان منذ عصر الحجر المنحوت حتى عصر التلفون ، فوحوشُ نِلْغِيرى ، ومحاربو راجپوتانا المُدَجَّجون بالسلاح ، والعُبَّادُ الذين تطالبهم إلهتُهم القاتمة ، على شواطئ أوريسَّا ، بأن يَسْحَقُوا أنفسَهم تحت عَجَل عَرَبتها ، ينتسبون إلى أمثلةٍ من البشر لا تَرْبِط بينها أيةُ رابطة

كما يُمكِن أن يقال ، وذلك إذا عدَوْتَ الأوهامَ التى يَعزُوها إليهم مُصلحون صِبْيانيون .

واليومَ تشتمل الهند على ٣١٩ مليون آدميٍّ ، أى تحتوى خُمسَ سكان العالَمَ بأَسْرِه ، ويتكلم هؤلاء الأهلون أكثرَ من مئتى لغة يختلف كثيرٌ منها اختلافاً أعظمَ مما بين اليونانية والفرنسية ، وتَقْتسم سبعةُ أديانٍ ، أو ثمانيةُ أديانٍ ، عظيمةٍ روحَ المؤمنين ، ويَفصِل أكثرُ من ألفى طائفةٍ بعضَ هؤلاء السكان الكثيرين عن بعضٍ بحواجزَ محكمةٍ ، وتَبْلُغ هذه الفروق الاجتماعية من الشِّدة ما لا يُمْكِن معه عقدُ زواجٍ بين أعضاء من طوائفَ مختلفةٍ ، ويعيش سبعون مليونَ منبوذٍ منفصلين عن بقية الأهلين وخاضعين لقوانينَ خاصةٍ ، فجميع هذه العناصرِ المتباينة يَجْعَل من المتعذر ما يَحْلُمُ به مصلحو الهندوس من حكومة مستقلة .

وليس وضعُ إنكلترة الداخلىُّ أصلحَ من ذلك ، فهى قد رأت نفسَها مضطرةً إلى معاناةِ حكومةٍ اشتراكية وتموينِ ثلاثة ملايين بَطَّالٍ ثقيلى الوطأة على الميزانية ، وتَظْهَرُ حكومةُ العمال الإنكليزيةُ فى وضعٍ حَرِجٍ جِدًّا ، وذلك أنها كانت ، قبل قَبْضِها على زمام الأمور ، تَعِدُ بمعالجة جميع الأمراض التى يألم منها البلد ، ولا سيما البِطالةُ ، غير أن من الطبيعىّ ألاَّ تستطيع تغييرَ وضعٍ ناشئٍ عن ضروراتٍ مستقلة عن جميع العزائم .

* * *

وَضْعُ ألمانية — قطعت ألمانية بعد الحرب دَوراً عصيباً جِدًّا ، فقد اضْطُرَّت إلى مكابدة إفلاسٍ مالىٍّ جَلَبَ الخرابَ إلى عدد كبير من

المواطنين ، ولسُرْعانَ ما نَهَضَت بفضل قدرة أرباب صِناعتها ورجالها السياسيين على التنظيم فأخذت تَبْدُو ، من فَوْرها ، أولَ دولةٍ فى أوربة من الناحية الاقتصادية .

ونَمَتْ بحريةُ ألمانية وجيشُها وطيرانُها نموًّا يقضى بالعجب ، وتَفُوق ألمانية منافِستَها القديمةَ ، إنكلترة ، في الأسواق العالمية .

وخيالُ ألمانية فى التفوُّق الاقتصاديِّ أنعم عليها بنهضةٍ صِناعية عظيمة ، والآن تُجَهِّزُ مصانعُها جميعَ الأمم بالآلات الزراعية والخطوط الحديدية التى كانت تشتريها من الولايات المتحدة ، ويَزِيد دَخْلُ العامل الألمانىِّ على دخل العامل الفرنسىِّ بمقدار الثلث ، وينشأ هذا عما يكتسبه العامل الألمانىُّ فى المدرسة وفى الثُّكْنة من نظام ، ويَنْشَأُ عن هذا كونُ أثمان التَّكلِفة فى ألمانية أقلَّ منها فى البلدان الأخرى ، وهذا ما يُسْفِرُ عن تفوقٍ تجاريٍّ لا جِدالَ فيه .

ووضْعٌ رائعٌ مثلُ هذا مما يَضْمن لألمانية عظمةً جديدة مع نهوضها ، بَيْدَ أنها تنقاد ، بتأثير المتطرفين من جميع الأحزاب ، لأفكارٍ قائلةٍ بالانتقام وتعديلِ المعاهدات مُهَدِّدةً أوربة بحربٍ أشدَّ هَوْلاً من السابقة مؤديةٍ إلى ختام حضارات الغرب لا رَيْب .

والمسئلةُ هى أن يُعْرَفَ هل تَتَّفِقُ على إيقادِ حربٍ جديدةٍ ألمانيةُ الراغبةُ فى الإفلات من الغرامة الثقيلة المفروضة عليها ، وإيطاليةُ الطامعةُ فى التوسع ، وروسيةُ التى ترجو نشرَ إيمانها .

ومن يُمْنِ سكونِ أوربة عجزُ ألمانية عن تجديد تسلحها حتى الآن وعجزُ روسية عن القيام بحربٍ خارجَ حدودها ، وليس تحالفُ ألمانية وإيطالية وروسية الممكنُ نظريًّا مما يَسْهُل تحقيقُه فى هذه الأيام ، أَجَلْ ، سيَقَعُ هذا التحالفُ فى بضع سنين ، غير أن من المحتمل أن يُدْرِكَ الألمانُ ، حينئذٍ ، إمكانَ إغناءِ النزاعِ الاقتصادىِّ للغالبين مع أن مصيرَ الغالب والمغلوب إلى الخراب التامِّ فى النزاع الحربىِّ .

* * *

وَضعُ بُولَونية — اليومَ تَنِمُّ بُولُونية على ناحيةٍ قاتمةٍ من الحياة الأوربية ، ويُعَدُّ هــذا البلد الكبير من البلدان التى تَدُلُّ أكثرَ من غيرها على ما تصير إليه الأمم المقسومةُ بين أحزابٍ سياسية متنافسة ، فبعد أن قُسِّمت بين جيرانها ومُحِيَتْ من التاريخ السياسىِّ أُعيدت إلى الوجود بالحرب ، غير أن الوَحدة المادية لم تُنعِم عليها بالوَحدة الأدبية ، وهى لم تحافظ على كيانٍ تهدِّده روسية وألمانية كلَّ يوم إلاَّ بنظامٍ دكتاتورىٍّ فقط ، وإليك كيف دَلَّت إحدى الصحف الأجنبية فى الأسطر الآتية على الأخطار التى تُطَوِّق حياة بولونية :

« أصبحت پروسية الشرقية واقعةً ضمن پولونية ، وفُصِلَت دَنْزِيغُ ، الألمانيةُ بنسبة ٩٧ ٪ ، عن الريخ مراعاةً لبُولونية ، وخَسِرَ سكانُ التخوم الألمانية الشرقية ما وراءها ووُجِدُوا فى حالٍ من الانحطاط الاقتصادىّ . . . والآن لا تزال الحــالُ الروحية المعاديةُ لبُولُونية والسائدةُ لألمانية نَكِدَةً

جِدًّا ، فيجب أن يقال إن العلاقاتِ الألمانيةَ البُولُونية من أَسود نقاطِ السياسة الأوربية » .

وكان يُمْكِن أن يصبح شأنُ پولونية السياسىُّ عظيماً لو دُعيتْ مع رومانية إلى تأليف حاجزٍ أمام ما يُمْكِن وقوعُه من غَزَوات الجيوش البلشفية .

* * *

وَضْعُ النمسة — ذهبت النمسة ضحيةَ خطأٍ سياسىٍّ اقترفه رجلُ النظر الأمريكىُّ الذى ظَهَرَ دكتاتورَ معاهدة الصلح الحقيقىَّ ، فقد فُصِلَت عن أجمل ولاياتها وأخذت تقضى حياةً صعبةً جِدًّا ، ومن الطبيعىِّ أن تَحْلُمَ بضمِّها إلى ألمانية التى تعيد إليها ازدهارَها الماضى ، ويُعَدُّ هذا الضمُّ الذى لا مَفَرَّ منه من أعظم المشاكل السياسية فى الوقت الحاضر ، ومن الواضح أن يُقْلِقَ هذا الضمُّ بالَ إيطالية وبالَ أممٍ ظافرةٍ أخرى ، ومع ذلك فسيتمُّ بالتدريج ضِمْنَ مدةٍ لا تزيد على ستٍّ سنين لا رَيْب .

وستكون نتيجةُ هذا الضَّمِّ النهائيةُ جعلَ ألمانية أكثرَ قوةً وأعظمَ مما كانت عليه قبل الحرب ، وهنالك يُرَى تجَدُّدُ « إمبراطوريةٍ جرْمانيةٍ ، إمبراطوريةِ شارلكنَ ، التى كانت مستقرةً بڤينة فتستقرُّ الآن ببرلين » كما أنبأَ به مسيو تِيِيرُ بعد معركة سادُوَا .

* * *

وَضْعُ بلجيكة — تُعَدُّ بلجيكة ، أيضاً ، مثالاً للمصاعب التى تعانيها الأمم الأوربية حتى تفوزَ بشىء من الاستقرار السياسىّ ، فهى مقسومة إلى قسمين

متساويين بعقائدَ دينيةٍ واجتماعيةٍ متباينة ، ويَزيدُ هذا التنافسُ تعقداً بتنافس العروق .

وكذلك المشاكلُ الاجتماعيةُ زادت فى بلجيكة ، وذلك لأن العرقيْن اللذين يَعْمُرانها ، وهما فلامانُ الشمال وڤالُّون الجنوب ، يتكلمان لغتين مختلفتين ويُظْهِران مشاعرَ مختلفةً أيضاً ، وللفلَامانِ مناحٍ انفصاليةٌ يُمْكِن أن تكون خَطِرَةً على مستقبل البلد ، وتبدو مطالبُهم السياسيةُ عظيمةً جدًّا أيضاً ، فهم يطالبون بأن تكون مدةُ الخدمة العسكرية ستةَ أشهر وبأن تُفْتَح مدارسُ فلامانيةٌ خالصة ، إلخ .

* * *

وَضْعُ إسپانية وإيطالية — لم يُفْلِتْ هذان البلدان من الفوضى ، التى تنشأ عن تحقيق الاشتراكية ، إلّا بفضل دكتاتورياتٍ شديدةٍ رَضِىَ بها جميعُ من أَتعبهم عدمُ النظام .

ولكنه يُجْهَل ما يصير إليه هذان البلدان الكبيران إذا عاد لا يكون على رأسهما أولئك السادة الفعَّالون الذين وُفِّقُوا للقضاء على الفوضى .

والآن تقضى إيطاليةُ حالَ سعادةٍ لا عَهْدَ لها به أيام كان مختلفُ الأحزاب السياسية ، كما هو أمرُها فى فرنسة ، يناضل للوصول إلى السلطة ، لا لزيادة سعادة البلد ، وكذلك الصِّناعةُ قد نَمَتْ ضِمْنَ نِطاقِ الإمكان لدى هذه الأمة التى ليس عندها فحمٌ حجرىٌّ ، وما كان قد ضاع من جهودٍ فى الخصومات السياسية سابقاً خُصِّصَ اليوم لإصلاح الوضع الاقتصادىِّ .

ومهما يكن مستقبلُ الدكتاتورية فإنها تؤدى إلى نتيجةٍ ثابتةٍ تُمْنَحُ بها

إيطاليةُ عاداتٍ فى النظام والتدريب وحبٍّ العمل واحترام السلطة ، أى أموراً لا يستطيع بلدٌ حديثٌ أن يزدهر بغيرها .

* * *

وَضْعُ دول البلقان الجديدة — لم يكن الرئيس وِلْسُن ليَتَمَثَّل ما كان يُعِدُّ من مصائبَ حينما كان يتصرف ، عند وضْع معاهدة الصلح ، فى سلطانه المطلق الذي هَيَّأته له الأحوال فيُقَسِّمُ أوربة الوسطى إلى دُوَيْلاَتٍ مستقلة باسم مبدإِ القوميات الخائب ، فدولُ البلقان ، كشِيكُوسلُوڤاكية و يُوغُوسلاَڤية ، التي أقيمت على وجهٍ مصنوع هكذا ، والتى كانت تعيش هادئةً أيام كانت من أجزاء النمسة ، تتخاصم دائماً ويتألَّف منها خطرٌ جِدِّيٌّ يُهَدِّد سَلْمَ أوربة ، وما فتئت كِرْوَاتية تكون على خصامٍ مع صربية منذ سنة ١٩٢٨ مطالبةً بانفصالها عنها ، فيتشاجرُ نُوَّاب الصِّرب والكرْوات فى البرلمان ، ويطالب الكرواتُ بالاستقلال الذاتيِّ ويُعلِن الصرب مقاومتَهم ذلك بالقوة ، ويُصَرِّح الكرواتُ بأن « يُوغُوسلاڤية لا تستطيع البقاء تحت الطغيان الصربيِّ » .

وفى حديثٍ بين زعيم اتحاديى الكروات ومراسل « الدِّيلى اكسپرس » يقول هذا الزعيم :

« هذه هى خاتمة المطاف ، فمن المتعذر تمامًا أن نداوم على إخلاصنا الماضى نحو الصرب . . . نحن لا نفكِّر فى تجزئة المملكة ، ولكننا نطالب بأن تُحَرَّر كرواتية من تدخُّلِ بلغرادَ وفسادِها ، وأنتم ترَوْن بأنفسكم أننا أمةٌ غربيةٌ تمامًا وأننا ذوو مزاجٍ نفسيٍّ يختلف عن مزاج الصرب اختلافاً تامًّا » .

وليس الوضعُ فى بقية البلقان أحسنَ من هذا ، فما بين بلغارية

ويُوغُوسلاَفية من اختلافٍ يَحْمِلُ بذور الوعيد دائماً .

* * *

وهنالك عواملُ شقاقٍ كثيرةٌ أخرى تُهَدِّدُ السَّلْمَ الأوربية ، ومن بينها ذكرتْ جريدةٌ كبيرة ما يأتى :

« حسرةُ إيطالية التى تألم من سوء إنصافها ، وسخطُ هنغارية المبتورة البادى ، وغضبُ بلغارية المُضيَّقة ، ووضعُ لِتْوانية تجاه پولونية ، ووضعُ لِيتُونية تجاه روسية ، وادعاءاتُ الألمان حَوْل ممرِّ دَنْزِيغ ، وليس من شأن مطاليب هذه « القسائم السيئة » ، مضافةً إلى ألوف الحوادث التي قد تنشأ كلَّ يوم عن الحدود الجديدة البالغة سبعةَ آلاف كيلومتر ، أن تُسَهِّلَ الهدوءَ والوِفاقَ الأوربيين اللذين يَصْعُب بغيرهما تصورُ قيامِ السَّلْمِ الأوربية ، حتى مع تدخل جمعية الأمم وتوسُّطها » .

وتَبْذُل بلدانُ أوربة العظيمةُ ، بتأثير جمعية الأمم ، جهوداً مستمرة فى سبيل اتحادها ولو قليلاً ، ومما يُورِثُ النفوسَ يأساً من أسباب العقل ألاّ ينتهىَ أقطابُ السياسة المجتمعون فى جِنِيف إلى إدراك ضرورة التعاون تجاه الأخطار المتوعِّدة من كلِّ جانب .

* * *

وَضْعُ روسية — من العبث أن تُفَصِّل حالُ البؤس التى غَرِقت فيها هذه الإمبراطوريةُ الواسعة بفعل الثورة البُلْشفية ، وتَجْعَلُ حكومتُها الشرْطيةُ ، القائمةُ على الهَوْل فقط ، أمرَ الحياة قاسياً جِدًّا لدى جميع المواطنين ، فقد قامت اشتراكيةٌ حكوميةٌ مبالِغةٌ فى التدقيق مقامَ الصِّناعة الخاصة وزادت وطأَةُ

الأزمة الاقتصادية التى تَعْقُب أدوارَ السلب والقتل ، وقد وُقِفَتْ مصادر بيت المال على إيجاد جيش يَقُوده متعصبون يُمْكِنُ عقائدَهم السياسيةَ ذاتَ الشكل الدينىِّ أن تكون بالغةَ الخطرَ على سَلْمِ أوربة ، وعلى سلام العالَمَ أيضاً .

* * *

وَضْعُ آسية — آسية فريسةُ مصاعبَ أعظمَ من التى تَقْلِبُ أوربة ، والصينُ ، على الرغم من قِدَم نُظُمها ، وبسبب هذا القِدَم البالغ على ما يحتمل ، تَذْهَب منذ سنينَ كثيرةٍ ضحيةَ الحروب الأهلية التى تُهَدِّد بتخريبها .

وإذا عَدَوْتَ الحقدَ على الأجنبىِّ ، المشتركَ بين جميع الأحزاب ، لم تجِدْ بَعْدُ ظهورَ أىِّ مبدأٍ جديد فى هذه الإمبراطورية الضخمة قادرٍ على تأليف ما بين النفوس .

* * *

وَضْعُ اليابان — لا يزال الدورُ الذى ستمثله اليابان فى العالَمَ الآسيوىِّ مشكوكاً فيه بعدُ ، ففى الشرق الأقصى ، على الخصوص ، قد أصبحت مُعْضِلةُ السكان هائلةً ، ومما ذكرتُه فى كتابٍ سابق كَوْنُ زيادة السكان فى ذلك الطرف الأقصى من العالمَ ستؤدى إلى حروبٍ جديدة حتماً .

وتَرَى اليابانُ ، الزاخرةُ بالأهلين ، سكانَها يزيدون مليوناً فى كلِّ عامٍ باستمرار ، فعادت لا تَدْرِى ما تَصْنَع لإعاشتهم ، ومن المتعذر إرسالُهم ، كما كانت تحلُم ، إلى الولايات المتحدة التى استطاعت ، بفعل الحرب الأوربية ، أن تَبْنِيَ أسطولاً وتُنْشِئَ جيشاً يجعلانها فى مأمنٍ من جميع الغارات ، وبما أن الصينَ نفسَها أكثرُ زَخْراً بالسكان ولا تستطيع أَن تَتَقبل فائضاً من الأهلين فإن اليابان

ستوجِّهُ جهودها إلى جهة مَنْشورية عَلَى الأرجح .

ولا يُوجَدُ ما يُخْشَى كثيراً من معارضة الرُّوس لذلك ، فقد أصبحت حضارةُ اليابان وقوتُها العسكريةُ أعلى مما عند روسية .

* * *

وَضْعُ الجمهوريات اللاتينية فى جَنوب أمريكة — أوضحتُ فى كتابٍ قديمٍ بعضَ القِدَم كونَ الجمهوريات اللاتينية الأمريكية عُرْضةً لفوضى دائمةٍ بسبب توالد العروق الأهلية الأصلية بعِرْق الفاتحين من الإسپان .

وما انفكت هذه النبوءةُ تتَحقق ، فقد رأينا فى سنينَ قليلةٍ أن الپيرُو وبُوليفيَة والأرجنتين والبرازيل ، دَعْ المكسيكَ ، فريسةُ الحروب الأهلية وصولاً إلى تغيير حكوماتها مرةً أخرى ، ومع ذلك فإن هذه الحكوماتِ ليست غيرَ دِكْتاتورياتٍ بسيطة على أشكال مختلفة وإن اتخذتْ نُظُمَ الولايات المتحدة نماذجَ لها ، وما كان ليوجدَ مثالٌ أصلحُ من هذا لإثباتِ مقدارِ اتبِّاَع النُّظُم السياسية لنفسية الأمم التى تدْعوها إلى الحكم ، لا للأوهام التي يتصوَّرها النظريون البالغو الجهل للضرورات التى تُسَيِّرُ الناسَ فى الحقيقة .

ومع ذلك فإن تَدَخُّلَ حكومةِ الولايات المتحدة بالتدريج أمرٌ لا مفرَّ منه إزاء انحطاط الجمهوريات اللاتينية الزائد ، وذلك كما صنعتْ تجاه كوبا وهايتِي، إلخ .

وقد بدأ نفوذ الشمال الأمريكيِّ بالتحكيم ، وسينتهى بالاستعمار لا رَيْب .

* * *

ويعتقد ممثلو جمعية الأمم أنهم يستطيعون إقرار السلام فى العالَم بنزعٍ عامٍّ للسلاح ، ومع ذلك فإن نزعاً للسلاح كهذا لا يُجْدِى نفعاً ، فمما يَلوح وضوحُه

بالتدريج ، كما هو واقعٌ ، أن الحروب القادمة ستكون حروباً جويةً تقتصر أسلحتها على قنابلَ مشحونةٍ بالمتفجرات أو على غازات سامّة ، والحقُّ أن الطائرة الحربية لا تختلف عن الطائرة التجارية إلّا بما تَنْقُل من موادَّ فلا يُبْصَرُ مقدارُ ما يَنْطوى عليه نزعُ السلاح من صحةٍ فى الوقت الحاضر .

وبما أن الحروب القادمة تَلوحُ أكثرَ تقتيلاً من الحروب الماضية بدرجاتٍ فإن من الصواب بذلَ الدِّبلميين جهودَهم لاجتنابها ، وقد وُفِّقُوا لذلك حتى الآن ، غير أن عجزهم عن خَلْقِ جَوٍّ سَلْمِيٍّ كان من الثبوت ما يُسْأَل معه عن إمكان حدوث هذا نظراً إلى نفسية أمم أوربة فى الوقت الحاضر ، وسينشأُ عن هذا كثيرٌ من الصعوبات ، وذلك للقوة الهائلة التى تنطوى عليها المشاعر الجماعية : السخطُ والحقدُ والكرامةُ المكلومة ، إلخ . ، ويُعْرِبُ كثيرٌ من البلاد العظيمة فى أوربة ، مع التوكيد ، عن عزمه على اتخاذ العنف وسيلةً لتلافى الإجحاف الذى يعتقد ذهابَه ضحيةً له ، حتى إن إيطالية وألمانية لا تحاولان كَتْمَ مشاعرهما من هذه الناحية ، وتُرَى روسية ، التى استحوذت عليها أوهامٌ سياسيةٌ بالغةٌ قوةَ الأوهام الدينية ، مستعدةً للاشتراك مع الأمم التى تخوض غِمار الحرب .

وتقوم المُعْضِلة الحاضرة الكبرى على إحلال سَلْم الوِفاق محلَّ السَّلْم المسلَّح ، ولا يزال حَلُّ هذه المُعْضِلة غيرَ بادٍ .

الفصل الثالث

سادة العـالم الجُدُد

التَّفَوُّقُ الأمريكىّ

أمريكةُ الشمالية وحدَها هى تشتمل ، وَسَطَ الانقلاب العالَمىِّ ، على سعادةٍ نَقَصَتْ قليلاً فى الوقت الحاضر ، ولكن مع زيادتها زمناً طويلاً فى الماضى ، وتقوم هذه السعادةُ ، خاصةً ، على كَوْنِ الولايات المتحدة قد لاءمتْ بالتدريج مقتضياتِ الاقتصاد التى لم يُدْرِكْ مُعْظَم الأمم أمرَها حتى الآن .

وعَرَفت أمريكةُ ما يُهَدِّد الحضاراتِ الأوربيةَ من مخاصمات ، فقد عانت حرباً أهليةً هَلَكَ فيها صَفْوَةُ مواطنيها ، وكذلك عَرَفتْ ما بين رأس المال والعمل من نزاع ، كما عَرَفتْ استبدادَ النقاباتِ ووعيدَ الاشتراكيين ، ثم خَرَجت الولاياتُ المتحدة من دَوْر الفوضى نهائيًّا واهتدت بذوى البصائر من أبنائها فأحلَّت تعاونَ جميعِ الطبقات محلَّ المنافسات والأحقاد التى ما فتئ الاشتراكيون يهددون بها أوربة ، وتكاد الولاياتُ المتحدة تجهل دِيانة عديمى الائتئام هؤلاء ، ويخضع عديمو الائتئام فى الولايات المتحدة للقانون بدلاً من أن يَضَعُوه .

وإذا حُكِم فى قيمة النظام بنتائجه ، لا برَوْعة نظرياته ، اعْتُرِفَ بأن مبادئَ الولايات المتحدةِ الحكوميةَ أشدُّ تأثيراً من مبادئ الاشتراكيين الأوربيين .

وأسفر تضامنُ العمل ورأس المال عن منح الطبقات المُجِدَّة يُسْراً لا عهد

لأكثريةِ البُرْجوَازِ الأوربيين الساحقة بمثله .

ويحاولُ قادةُ الولاياتِ المتحدة إبقاء المُثُلِ العليا القائمة على ما فيها من وَهْمٍ لِماَ يعْرِفون من شأنِ المثل الأعلى فى مصير الأمة ، وهذا تطبيقٌ اجتماعىٌّ لذرائعية الجامعات الأمريكية القريبة من نَفْعِيَّةِ فلاسفة الإنكليز ، وإذْ أصبحت المنفعة مقياسَ القِيَمِ الاجتماعية فإن الأمريكىَّ يعانى كثيراً فى المحافظة على معتقداته القديمة كما يعانى العقلىُّ اللاتينىُّ فى تقويضها .

أجَلْ ، إن الولاياتِ المتحدةَ لم تُدَوِّن حقوقَ الإنسان باحتفالٍ ، غير أنها تَجْهَل فروقَ الطبقات التى حافظت عليها أوربة بنظام المسابقات القائمة على الاستظهار ، فالعاملُ والقاضى والمحامى والأستاذ يتمتعون باعتبار واحد ، ويَسْهُل الانتقالُ من طبقةٍ إلى أخرى لأن مُعْظَم الوظائف انتخابىٌّ ، وصار أناسٌ من العَتَّالة حكامَ ولايةٍ ، ورؤساءَ جمهوريةٍ أيضاً ، ويَرْضَى فِتْيانٌ من أُسَرٍ صالحة أن يكونوا خَدَمةَ قهوةٍ مساءً ليدفعوا أجرةَ دروسهم .

وما تَمَّ من تجديدٍ فى العمل أدى إلى جَعْل العامل الأمريكىِّ متخصصاً كثيرَ الإنتاج بالتدريج ، ويَبْقَى هذا الوضعُ نافعاً جِدًّا إلى أن يُسْفِرَ عن فَرْطٍ فى الإنتاج ويؤدىَ إلى الاستهلاك الأدنى الموجب للبِطالة ، ونُبْصِرُ بُداءةَ هذا الدور ، ومن الممكن أن يَنْجُم عنه استياءٌ شعبىٌّ شديد من النوع الذى كان مقدمةً للانقلابات السياسية فى جميع أزمنة التاريخ .

واليومَ تَرَى الولاياتِ المتحدةَ دائنةً لأوربة بعد أن كانت مَدينةً لها ، وهى إذْ تبْدُو فخوراً بنجاحها فإنها تتعود مخاطبتَها بالتدريج كما يخاطِب السيدُ مولاه ناظرةً بازدراء إلى هذه القارّةِ القديمة التى يَقْرِضها

وعيدُ الصِّراع بين الأمم وتنازعُ الطبقات فى قلب كلِّ أمة .

ولهم أن يُبْدُوا هذا الازدراءَ بلا عِقاب بمقدار ما تؤدى إليه قروضُ الحرب المتتابعةُ من انتقال مُعْظم الثروة الأوربية إلى الولايات المتحدة ، وبفضل هذه القروض استطاعت ألمانية أن تؤدِّىَ قسماً من دَيْنها كما أصاب مستر كولِدْج فى ملاحظته .

بَيْدَ أن خطأَ الولايات المتحدة يتجلَّى فى زيادة التعريفات الجمركية التى تجعل الإصداراتِ متعذرةً تقريباً فى آخر الأمر ، فكلٌّ يَعْلَمَ أن الاستيراد عند كلِّ الأمة لا يُمْكِن دَفْعُ ما يقابله إلاَّ بالإصدار ، فإذا ما أَغلقت أمريكةُ حدودَها دون المُنْتَجَاتِ الأجنبيــة جَعَلَتْ من الصَّعْبِ على أوربة دفعَ الديون المعقودة .

ومع ذلك فإن حكوماتِ الولايات المتحدة تَعْرِف جَيِّداً أن العالمَ القديم إذا كان لا يستطيع أن يستغنىَ عن بعض المنتَجات الأمريكية كالقطن فإن أمريكةَ المشتملةَ على ١٢٣ مليون إنسانٍ تستطيع الاستغناءَ عن المبادلات التجارية ، ما دام ٩٢ ./ من منتجات أرضها وصِناعتها يُسْتَهْلَك من قِبَل سكانها .

* * *

ويستند ما يَدَّعيه الأمريكيون من تفوقٍ سياسىٍّ واقتصادىٍّ وأدبىٍّ إلى قوةٍ عسكريةٍ هائلة تَزِيدُ كلَّ يوم على الرغم من التصريحات السِّلمية الكثيرة ، وبالكلمة الآتية أشار الرئيس كولِدْج إلى قوة بلده العسكرية قبل انتهاء سلطته :

« لَدَى بلدنا من الوسائل والأخلاق والروحِ اللازمة لجَمْعٍ ، وتجهيزٍ ،

وحفظٍ ، ما يحتاج إليه جيشٌ وبحريةٌ ساعَدَا ، بقَذْف أكثرَ من مليونى نفسٍ فى ميادين القتال بأوربة ، على تقرير هُدنة ١١ من نوفمبر سنة ١٩١٨[1] » .

وإذ نُظِرَ إلى قوة الولايات المتحدة البرية والبحرية ، التى هى نتيجةُ الحرب الأخيرة ، لم يُوجَدْ ، إذَنْ ، غيرُ ما قد تخشاه فى زمنٍ قريبٍ أو بعيد من أخطارٍ يُمكِن أن تنشأ عن فَضْلةِ سكانٍ أو غزوٍ يابانىٍّ .

وكان اكتشافُ قوةِ الولايات المتحدة الحربية إلهاماً نافعاً لأوربة وأمريكة معاً ، فاسْمَعْ قولَ مستر كُولِدْج :

« لا تَجِدُ بلداً ، فى موضوع القوة وموضوع وَحْدةِ بلدنا ، أبدى روحاً أروعَ مما أبدينا وأظهر شعوراً وطنياً أرفعَ مما أظهرنا ، فما اتصف به أربابُ صِناعتنا من قدرةٍ كبيرةٍ على التنظيم ، وما تنطوى عليه وسائلنا المالية من طاقةٍ لا رَيْبَ فيها ، وما بَذَله الجميعُ من مساعدةٍ حَوْل الخدمة العسكرية الإلزامية والزراعة والصِّناعة والخطوط الحديدية والبنوك ، وما كان من وجود أربعة ملايين رجلٍ تحت السلاح ووجودِ ستة ملايينِ رجلٍ احتياطىٍّ ، أمورٌ أسفرت عن قدرةٍ صائلة لمواصلة الحرب ، وقد تألف من هذا المجموع قوةٌ أعظمُ مما قَدَرَتْ على جمعه أيةُ أمةٍ كانت » .

ومما لا مِراءَ فيه أن نفقاتِ أمريكة فى سبيل الحرب كانت ضخمةً كما ذَكَرَ مستر كُولِدْج ، فقد مَثَّلَت « نصفَ مجموع ثروة البلد حين اشترا كه فى الصِّراع » .

وفى الخُطبةِ نفسِها أسهبَ رئيسُ الولايات المتحدة ، على الرغم من تحفظه

---

(١) من الخطبة التى ألقاها مستر كولدج فى ٣ من نوفمبر سنة ١٩٢٨ .

السياسىِّ ، فى بيان اختلافِ وجهات النظر بين أوربة وأمريكة ، ومع ذلك فإن مبادئ الحكومة الأمريكية حَوْلَ نزعِ السلاح تختلف كثيراً عن المبادئ التى يُجادَل فيها فى جمعية الأمم .

قال مستر كُولِدْج : « تُثْبِتُ تجارِبُ الإنسان ، كما يَلوُح ، أن البلد الذى يُعِدُّ دفاعَه إعداداً معقولاً يُعَرَّض قليلاً لهُجُومٍ مُعَادٍ ، كما يَقِلُّ تَعَرُّضُ حقوقهِ لانتهاكٍ مؤدٍّ إلى حرب .

« . . . وتقتضى سُـنَّةُ التقدمِ الأولى أن يواجِه العالَمُ الحقيقةَ ، ومن الواضح أيضاً كونُ العقل والوجدان لم يسيطرا على أمور البشر حتى الآن ، ومن البعيد جدًّا أن تُلْغَى غريزةُ الأَثَرَةِ الموروثةُ عن الأجداد ، فقُوَى الشَّرِّ بالغة القدرة » .

وحَوْلَ أوربة وحدَها يُصَرِّح عَيْنُ الخطيب بأن من المفيد تحديدَ التسلحِ ، فقد قال :

« إننا نتمنى السِّلْمَ عن اعتقادِ صوابها فضلاً عن أن الحرب تَعُوقُ تقدمَنا ، وقد بلغت مصالحنا فى كلِّ مكانٍ من العالم ما يَضُرُّ بها ضرراً بالغاً كلُّ صِراعٍ ساطعٍ حيثما يقَع ، ولو لم نشترك فى الحرب العالمية ، على الرغم من بعض الفوائد التى نلناها منها بالإصدار ، لأصابنا خُسْرٌ كبير ، وذلك بقطع النظر عن الفريق الغالب فى نهاية الأمر » .

وهذا التصريحُ يوضحُ السببَ فى انضمام الولايات المتحدة إلى الحلفاء فى الحرب الأخيرة ، ومن السذاجة أن افْترَضْنا اشتراكَها فى الصراع العالمىِّ دفاعاً عن النظريات اللاتينية الموصوفة بالحقِّ والحرية ، والواقعُ أن أمريكة

ترددتْ حيناً من الزمن حوْل معرفة فريق المحاربين الذى تنحاز إليه ، فإذا كانت قد انضمت إلى الحلفاء نهائيًّا فذلك لأن مبدأ المنفعة ، أى الدفاعَ عن مصالحها الخاصة ، قد أملى عليها هذا الخيار .

ونشأ دخولُ أمريكة فى الحرب عن اضطرارها إليه كما اعترف بذلك الرئيسُ كُولِدْجُ نفسُه ، غير أن هذا القطبَ السياسىَّ أخطأ فى توكيده فى قسمٍ من خُطبته أن أمريكة لم تَفُزْ بغير فائدةٍ قليلة من وراء ذلك .

ومن فَوْرها أصبحت هذه الأمةُ الصِّناعيةُ والتجارية المحميةُ بمليشيا ضعيفةٍ حتى ذلك الحين والمُهَدَّدَةُ من قِبَل المكسيك ، ولا سيما اليابانُ الراغبةُ أن تَصُبَّ عليها ما يَفِيضُ من سكانها ، أُولَى دول العالَم الحربية ببحريتها وجيشها ، وذلك فى مقابل نفقاتها التى عادت لا تَعُوقُها اليومَ ، فصارت اليابانُ ، التى كانت تخشاها كثيراً فيما مضى ، لا تَبْدُو لها غيرَ عَدُوَّةٍ صغيرة ، ولم يَبْقَ على أمريكة إلاَّ أن تَبْسُط يَدَها للاستيلاء على ثَرَواتِ المكسيك الضخمة ، وتخاطِبُ أمريكةُ العالَمَ بلهجة السيد ، وأصبحتْ لا تخاف أحداً مع أن جميع العالَمَ يخافُها .

وإذا نُظِرَ إلى الأمر من الوجهة التجارية حَصْراً وعُدَّ التفوقُ العالَمىُّ قَدَراً تجاريًّا أمْكَنَ الولاياتِ المتحدةَ أن تقول إنها حَقَّقَتْ ، بنَيْلِها مثلَ هذا التفوقِ ، فائدةً واسعة غيرَ منتظرة .

وعلى العكس خَرِبَتْ أوربة بالحرب ، واجْتِيحَتْ أغنى ولاياتِ فرنسة فتعيش اليومَ بالقروض ، وسيتمُّ خرابُها إذا ما دَفَعَتْ إلى أمريكة ما هى مدينةٌ به من المبالغ تجاريًّا ، ولكن مع كَونِ استخدامها أوجب قدرةَ

هذا البلدِ العظيمِ الحاضرةَ على الخصوص .

وفى الكلمات الآتية الصائبة بَيَّن السياسىُّ الفرنسىُّ النَّفَّاذُ ، مسيو تارْديو ، ما يَفصِل بين القارَّتين فى الوقت الحاضر من اختلاف :

« تَفصِلُ هُوَّةٌ من الأحوال المتناقضة بين العالَم الجديد والعالَم القديم الدامِى المُعْوِز ... وكَسَبتْ أمريكةُ كلَّ ما خَسِرَته أوربة ، وكانت الحربُ نافعةً لها قبل دخولها ، وأيامَ اشتراكها فيها ، وبعد خروجها منها ، فبالحرب أصبحت قوتُها أكثرَ من ضعفين ووَضَعت أُسسَ إمبراطوريةٍ جديدة ، وبالحر أَسْفَر رخاؤها الذى أُثْنِيَ عليه منذ زمن السِّلْم السعيد عن معارضة تقدمها بفاقة أوربة ... وتزيد قدرتُها على الإنتاج ، ويزيد إنتاجُها نفسُه ، زيادةً متوازية ، وتَنْقُص مدةُ العمل الأسبوعيةُ على حين تزيد الأجور التى يَسبِقُ ارتفاعُها ارتفاعَ الأثمان ... ويوجد بين القارَّتين تفاوتٌ يفوقُ الحَدَّ ... وتُحِسُّه الأمزجة ، وتَقْلَقُ أوربةُ كالضعفاء ، وتتحكَّم أمريكةُ كالأقوياء ... ويَسْكُنُ الصراعُ الاجتماعىُّ ، وتَثِقُ ملايينُ العمال بالمُسْتَصْنِعِين الذين أوجبوا رفاهيتَها بعبقريتهم ، ولا تنال الاشتراكيةُ غيرَ آخر مكانٍ فى الولايات المتحدة حينما تُوَسِّعُ رُقعتَها فى أوربة » .

وبما أن المبادئ الموجِّهَةَ لسياسةِ الولايات المتحدة جعلت من هذه الجُمهورية العظيمة أولَ دولةٍ سياسيةٍ فى العالَمَ فقد نشأ عن هذا ذلك الميلُ إلى الصَّدارة التى يؤدى إلى حدوثها حِسٌّ القوة .

غير أن النتيجةَ النهائيةَ لصدارة إحدى الأمم هو أن تتألّب على هذه الأمة جميعُ الأمم التى تذهب ضحيتها ، وقد شَعَر بهذا كلٌّ من إسپانية وإنكلترة

وفرنسة وألمانية مناوبةً وستجرِّبُ الولاياتُ المتحدة ذلك ذاتَ يومٍ لا رَيْب ، ومن المحتمل أن تساعد الهَيْمَنةُ الشديدةُ الوطأةِ بالتدريج على إحداثِ ولاياتٍ متحدةٍ أوربية مع صعوبة هذا ، وذلك على الرغم من المزاحمات العميقة والأحقاد المتأصلة التى تُفرِّق بين أجزاء القارَّة القديمة فى هذه الأيام .

* * *

أُوضِحَتِ المبادئُ الموجِّهةُ لسياسة الولايات المتحدة فى الوقت الحاضر ، والتى هى أساسُ عظمتها ، إيضاحاً حسَناً ، من قِبَل الرئيس مستر هُوفِر ، وذلك فى نشرةٍ أستعير خلاصتَها من السيد فِرْمِن روز :

« يُشْتَقُّ التقدمُ الجَماعىُّ من التقدم الفردىِّ ، ويقوم خطأُ الاشتراكية على الاعتقاد بأن محبة الآخرين واستبدادَ الدولة يكونان دوافعَ كافيةً للنشاط ، فيجب أن يُضْرَب بكلٍّ رغبةٍ فى تأميم الصناعة عُرْضَ الحائط .

« وقد كَذَّبت جميعُ المشاهداتِ مبدأَ المساواة ، فإمكان التقدم يتوقف على التفاوت .

« ويُعَدُّ اصطفاء القابلياتِ المُوَجِّهةِ أمراً ضرورياً لازدهار البلاد .

« ويتمُّ التقدمُ بصَفْوة الرجال ، ولاعَمَل للجَماعة فى التقدم ، فالجماعةُ لا تَخْضَعُ لغير اندفاعات الإحساس ، ولا يتمسكُ زعماء الفِتَن بغير هذه الاندفاعات ، ويُحرِّكُ هؤلاء الزعماء رغائبَ الشعب التى لا تُعبِّر عن الاحتياجات الحقيقية .

« ولا تُدْرَكُ احتياجاتُ الشعب إلاَّ من قِبَل القادة الذين يتصفون بروح البناء .

« ويُعَدُّ حَقُّ التملك الذى يريد الاشتراكيون هدمَه من أقوى عوامل نشاط الأفراد .

« وتُصْبِحُ المصانع التى يَزِيدُ نموُّها على إمكانيات الأفراد جَماعيــةً قَسْراً ، وتُوَزَّع الأسهمُ ، التى تُمَثِّلُ رؤوسَ الأموال الضرورية لإنشائها ، بين كثيرٍ من الناس ، فترى لبعض الأعمال من المُسْهِمين مَنْ يَبْلُغ عددهم مئتى ألف .

« وليس التعاونُ سَيْراً نحو الاشتراكية مطلقاً .

« ووجودُ صفوةٍ من القادة أمرٌ ضرورىٌّ ، وليست الاشتراكية والجَذْرية غيرَ شكلين من أشكال الحكومية ، ولا يَصْدُر التقدم عن الدولة ، بل عن ارتقاء الفرد باستمرار » .

وتدلُّ الخلاصةُ القصيرة السابقة على أن العالَمَ إذا كان يواجه مُعْضِلاتٍ أكثرَ تعقيداً من جميع التى يُحَدِّث عنها التاريخ فإنه يَظَلُّ خاضعاً لبعض المبادئ المُوَجِّهة النفسية ، فمن تطبيق هذه المبادئ تنشأ عظمةُ الأمم وانحطاطُها .

* * *

ولا ريب فى أن الكتب الخاصةَ بتاريخ القرن الذى نرى سَيْرَه ستُحَدِّثُ عن الانقلابات ، ولا رَيْبَ فى أن أكثرَ هذه الانقلاباتِ تعقيداً سينشأ عن صعوبة الحكم بتواصل الأمم الزائد والأوهامِ السياسية الشاملة ، وتزول أشكالُ الحكومةِ القديمةُ واحداً بعد الآخر بتطور الأفكار وسرعةِ تبادلها ، وقد حَلَّت عزائمُ الشعب محلَّ نفوذِ الخواصِّ المتأصلِ فى كلِّ مكان ، بيد أن عجز الحكومات الديموقراطية يتجلَّى بالتدريج مع مصاعب الزمن الحديث ،

وبما أن العَدد لم يُوَفَّقْ للقيام مقامَ الذكاء فقد وجب أن يُبْحَثَ عن الوسائل التى يُجْتَنَبُ بها عجزُ الجماعات ، وهنالك ظَهَر فى كثيرٍ من بلدان أوربة طُغَاةٌ كثيرون أُعِدُّوا للحلول محلَّ الحكوماتِ العاجزة ، ومن دواعى الأسف أن عُدِّلَتْ فوائدُهم بمحاذيرَ بالغةٍ من الشِّدَّة ما تَحُول دون بقائهم زمناً طويلاً .

إذَنْ ، قَصِرَتِ الأممُ الحديثة الكبرى على مواصلة البحث فى الأشكال الجديدة للحكومة ، ويَنْدُر أن تُسْفِرَ الأصواتُ الشعبية عن قابلياتٍ ، وكان بعضُ الفلاسفةِ الأنسِكْلُوپيديين يَحْلُمُون بمجامع العلماء ، وما تَمَّ لهم من زيادة التخصص لم تَبْدُ به أبصارُهم الضيقةُ أعلى من أبصار الجماعات ، ولذلك ظَلَّت مُعْضِلةُ الحكومات ذاتِ الصلة باحتياجات العالَمَ الحديث أمراً يتطلَّب حَلاً .

الفصل الرابع

تطور الحضارات

لقد عانت جميع الموجودات منذ ظهور الحياة على وجه الأرض سُنَّةَ الولادة والنموِّ والانحطاط والموت ، وتعانى الحضاراتُ هذه السُّنَّةَ أيضاً .

ويتصف التطور الحديث بسرعته العجيبة إذا ما قيست ببُطْء الحضارات السابقة العجيب .

واقتضى تحولُ المادة الجامدة إلى مادةٍ حيةٍ أكداساً من الأزمان ، وكان لا بُدَّ من انقضاء ملايينَ من السنين لخروج الأشكال الحيوانيـــة ، التى سَبَقَتْ ظهورَ الإنسان ، من الخَلِيَّات الابتدائية التى بدأت بها الحياة على سطح الكُرَة الأرضية ، وكان لا بُدَّ من انقضاء أقلَّ من مئة ألف سنة حتى وُفِّقَ الإنسانُ للخروج من دَوْر ما قبل التاريخ والوصولِ إلى عَتَبَة الحضارات .

وكذلك كان التقدمُ بطيئاً جِدًّا فى سِنِي الحضارة المترجحة بين السبعة آلاف سنة والثمانية آلاف سنة التى عَمَّتْ تلك .

ومنذ قَرْنٍ واحدٍ تقريباً ظَهَرَ البخارُ والكهربا وجميعُ الاكتشافات التى حَوَّلت حياةَ الأمم تحويلًا تامًّا .

وجميعُ الاختراعات العظيمة مَدِينةٌ لنموِّ الذكاء فقط ، ولم يَعْقُب نشوءَ الذكاء نشوءٌ مماثلٌ فى المشاعر ، ومن هذه الناحية لم يجاوِزِ الرجلُ العصريُّ

مستوى الأجداد الفطريين كثيراً ، وكل ما حُقِّقَ من تقدمٍ فى هذا المضمار هو اكتسابُ قدرةٍ على مقاومة الاندفاعات الابتدائية قليلًا بتَمَثُّل نتائجها البعيدة تَمَثُّلاً زاجراً ، بَيْدَ أن المشاعر حافظت علَى قوتها ، ويُجَهِّزُها الذكاء ، العاجزُ عن السيطرة عليها دائماً ، بوسائلِ تخريبٍ قادرةٍ على إهلاك العالَم .

وهكذا يُحَرِّكُ الإنسانُ الحاضر بنوعين من الاندفاعات يَرْجِعُ أحدُهما إلى ما قَبْلَ التاريخ ويَرْجِع الآخرُ إلى أصلٍ قريب .

* * *

وللحضارات العُظْمى كيانٌ موقتٌ نسبيًّا ، فالحضاراتُ تَذْبُلُ ، ثم تَزُول ، بعد ازدهارٍ يدوم قليلًا أو كثيراً ، وتَرَى نِينَوَى وبابلَ ومدناً أخرى مدفونةً تحت الغُبار .

ومن الطبيعىِّ أن اختلفت سرعةُ تطور الحضارات باختلاف شروط الحياة ، وفى بعض الأحيان يَعْقُب أدوارَ الانقلاباتِ العميقةَ وجوهٌ للتطور البطىء ذاتُ ثباتٍ فى المَظْهَر .

وفى الغالب تُمَثِّلُ أزمنةُ السكون النسبىِّ هذه أدوارَ تاريخ الأمم العاليةَ ، شأنُ اليونان فى عَهد پِرِكْلِيس ، والإمبراطوريةِ الرومانية فى عهد أُغسطس ، وإسپانية فى عهد فِلِيپَ الثانى ، وفرنسة فى عهد لويسَ الرابعَ عشرَ .

ومع ذلك فإن أدوار السكون الموقت خاتمةٌ للحوادث السابقة ، وكان لا بُدَّ من سلسلةِ منازعاتٍ اجتماعية لتظهر دكتاتوريةُ أُغسطس ، وكان

لا بُدَّ من سلسلةِ منازعاتٍ دينية وسياسية لتمام مَلَكيةِ لويسَ الرابعَ عشرَ المُطْلَقةِ .

وتُجاوِزُ أوربة الحديثةُ دورَ انقلابٍ شُوهِدَ مثلُه غيرَ مرةٍ فى مجرى تاريخها ، أى شُوهِدَتْ انقلاباتٌ فى المعتقدات السياسية والدينية وانقلاباتٌ فى الأفكار ، وقد أوجب ضَعْفُ المُثُل العليا القديمةِ المُوَجِّهةِ والبحثُ عن مُثُلٍ عالية جديدة اضطراباً عميقاً فى النفوس ، ويَهُزُّ الجزَعُ والهَلَعُ النفوسَ ، ويَظْهَرُ الوعيدُ فى كلِّ مكان ، ولا يُبْصَرُ أملُ السكون النسبىِّ أيضاً .

* * *

ومن العوامل الأساسية فى انحطاط الحضارات ذلك العاملُ الذى يلاحَظُ فى جميع الأزمان ، وهو ذُبُول مبدأِ السلطة ، وما يوجبه من نفوذٍ ، شيئاً فشيئاً .

وسواء أكانت هذه السلطةُ سلطةَ الآلهة أم سلطةَ العادات أم سلطةَ الملوك تُنْعِمُ وحدَها على الأمة بالتحامٍ لا تستطيع أن تدوم بغيره .

وبما أن الناس يحتاجون احتياجاً عامًّا إلى الشعور بأنهم مَقُودون عند عدم اتباعهم عدداً قليلاً جِدًّا من الأفراد قادراً على توجيه نفسه بنفسه فإن من الثابت أن النُّظُمَ السياسية لا تزول بزيادة الاستبداد ، بل بضَعْفِها ، وكان لويسُ الرابعَ عشرَ سيداً لأنه عَرَف أن يسيطر على طبقة الأشراف والإكليروس والبرلمان ، وعاد لويسُ الخامسَ عشرَ ، ولويسُ السادسَ عشرَ على الخصوص ، لا يكونان سيدَيْن لأنهما تَرَكا السلطاتِ المتنافسةَ تسيطر عليهما بالتعاقب مع أن سَلَفهما عَرَفوا أن يَزْجُروها .

وعملُ مبدأِ السلطةِ الأساسيُّ هذا ينشأ عن كونه وحدَه هو الذى ينطوى على القدرة الضرورية لإيجاد وَحدةِ الفكر والفعل التى تُحَوِّل نَقْعاً من الناس إلى جماعةٍ متجانسة، ولِذَا يُمْكِن عَدُّ مبدأِ السلطة، فى السياسة والدِّين والأخلاق، من القواعد الأساسية لحياة الأمة.

وكان من أكثر العوامل التى يتوارى بها مبدأُ السلطة تأليفُ أحزابٍ مختلفةٍ ذاتِ منافعَ متباينةٍ ضِمْنَ المجتمع، ومتى شَعَرَت هذه الأحزابُ المتنافسةُ بأنها بَلَغت من القوة ما تَدْخُل معه الصِّراعَ ضَعُفَ مبدأ السلطة وبدأ دَوْرُ الأُفول، وهكذا هَلَكت اليونانُ فى الزمن القديم عندما أضاعت استقلالَها بعد ازدهارٍ لا يزال يَبْهرنا، وهكذا هَلَكت الجمهورية الرومانية عندما حُمِلَت، بعد سلسلةٍ من المنازعات التى لا تَعْرِف الرحمة، على معاناةِ دكتاتوريةِ الأباطرة المهيمنة.

وهكذا هَلَكت، فى القرون الوسطى، جُمهورياتُ إيطالية، ولا سيما فلورنسةُ، نتيجةَ مخاصماتٍ داخلية، فبما أن الخصوماتِ بين النقابات المتنافسة كانت يوميةً فى هذه المدينة الأخيرة فإن حياتها أصبحت مثلَ الجحيم فكان من عوامل السُّلْوانِ الشامل قَبْضُ آل مِدِيسِيس على السلطة وقضاؤهم على الجمهورية.

وهكذا هَلَكت بُولُونية بعد حينٍ عندما قُسِّمَت بين جيرانها نتيجة انقساماتٍ ومنازعاتٍ داخليةٍ مستمرة.

* * *

وإذا أمكن أن يكون انحطاطُ الحضارة سريعاً جِدًّا فإنه يَقَعُ بطيئاً

جدًّا فى بعض الأحيان ، شأنُ الإمبراطورية الرومانية تماماً ، ولا مِراءَ فى أن دِكتاتوريةَ الأباطرةِ وَضَعَتْ حَدًّا للمنازعات المدنية ، ولكنها لم تَصْنَع غيرَ عَوْقِ الانحطاط ، وقد أصبح هذا الانحطاطُ تامًّا عندما جُهِلَ أمرُ السالطة فانتحلت الكتائبُ حَقَّ انتخاب الأباطرة وعزلِهم بعد أن كان خاصًّا بالسِّنَات .

ويَلُوحُ أن أوربة الحديثة محكومٌ عليها بقَطْع أدوارٍ مماثلةٍ ، وتُجَاوِزُ أوربة دوراً من أعقد أدوار التاريخ على الرغم من وجوهها الساطعة المدينةِ بها لتقدم العلم ، وتَغْرَق أوربة فى فوضى عميقةٍ ، فيَزِيدُ فيها كلَّ يومٍ حقدٌ بين الأمم وحقدٌ بين طبقات الأمة الواحدة .

وبَلَغت الفوضى مقداراً اضْطُرَّ معه كثيرٌ من الدول كإيطالية وإسپانية واليونان ، إلخ . ، إلى معاناة دكتاتورياتٍ ثقيلة ، وليس وَضْعُ بلاد أوربة الأخرى أحسنَ من ذلك ، وتحاول دُوَيْلات شِبْهِ جزيرة البلقان استئنافَ منازعاتِها المتأصلة ، وتُخَرَّبُ روسية تماماً بتطبيق أحلام المتعصبين الذين يَوَدُّون فَرْضَ دينهم الجديد .

ولا تزال فرنسة وإنكلترة وألمانية تقاوم الفوضى بفضل بُنْيانها القديم ، ولكنها تُقْضَمُ مقداراً فمقداراً بفعل أوهام الاشتراكية التى يَعْظُم نفوذُها يوماً بعد يوم ، وتَقُومُ قوةُ أمريكة البالغةُ على قليلٍ من المبادئ الصائبة التى يُوَجَّهُ بها سَيْرُ أناسٍ فُوِّض إليهم توجيهُ مصيرها .

وكان يَلُوح بقاء أوربة مركزاً للحضارة وارثةً للإغريق ولرومة ولعشرين قرناً من الجُهُود ، وتُبْصِرُ أوربة ، بغتةً ، ابتعادَها عن أن تكون قطبَ

العالَم ناظرةً فى النصف الآخر من الكُرَة الأرضية قيامَ عالَم جديد يختلف فى أفكاره ومشاعره ومختلفِ عناصرِ حياته عما لديها اختلافاً تامًّا .

* * *

ويَبْدُو العالَم الحديثُ مُثْقَلاً بما لم يكن له عهدٌ به من المُعْضِلات بفعل تطورِ شروط الحياة الناشئ عن اكتشافات العلم ، وسرعةِ وسائلِ النقل على الخصوص ، وترَى الشعوبُ ، التى كان بعضُها مفصولاً عن بعضٍ بحواجزَ يَتَعَذَّر اقتحامُها ، اتحادَ مصالحها أو تصادمها ، ويَنْحلُّ بالتدريج مختلفُ عناصرِ المجتمعات المُسِنَة التى وَحَّدَت بينها ، لزمنٍ طويل ، سلطةُ الآلهة أو الملوك ، أو العاداتِ فقط ، وبما أن أشدَّ البلاد ثباتاً نُظِّمَ بماضٍ لم يتَغيَّر قَطُّ فإنه يواجه أحوالاً غيرَ منتظرة .

ولَمَّا تَعرِفِ الأحزابُ السياسيةُ أنْ تلائم الضروراتِ التى نشأتْ عن تحولات العالَم ، ومن العبث محاولةُ الجذْريين والاشتراكيين والمحافظين وغيرِهم حَلَّ المُعْضِلاتِ الحديثة بصِيَغِهم القديمة ، وما فتئت المبادئ البسيطة تسيطر على الحياة السياسية ، وبما أن مبـدأ الدولة الرَّبَّانية أكثرُ ما يُسِيغهُ ذكاء الجماعات الأوربية فإن الحكومية قد امتدَّ أمرُها على صِيَغٍ مختلفة فى نهاية الأمر ، واليومَ كلٌّ يطالب الدولةَ بما لا تَقْدِر عليه من حَلِّ المشاكل .

أجَلْ ، إن العالَم سيلائم فى نهاية الأمر شروطَ الإنتاجِ والمبادلةِ الجديدةَ ، غير أن الانقساماتِ العميقةَ باقيةٌ بين دول أوربة حيث يتألفُ من طبقاتِ كلِّ بلدٍ عاملُ تهديدٍ بالانحطاط ، ويقترح فريقٌ من ذوى الفضل معالجةَ ذلك بإقامة اتحادٍ أوربيٍّ بين الحكوماتِ التى تَهْدِف إلى إيجادِ نظامِ تضامنٍ

مادىّ وأدبىٍّ ثابت ، ومن الصواب أنْ لُوحِظَ أن مِثلَ هـذا الاتحاد يقوم فقط على تعميمِ شركةٍ موجودةٍ لبعض الخِدَم الأُمَمِيَّة منذ حينٍ ، كالبريد والبرق والهاتف والطرُق والقَنَوات والخطوط الحديدية ومسائل النقود ، إلخ .

ولا تقُوم صعوبةُ تحقيقِ هذا البرنامج الواسع على اقتحام الفروق النفسية التى تَفْصِل بين الأمم فقط ، بل تقوم على اختلاف المصالح الاقتصادية أيضاً ، ومع ذلك فإن الضرورةَ قوةٌ نفسية بالغةٌ من العِظَم ما قد تنتهى به الأمم الأوربية إلى إدراكها وجوبَ تفاهمها فى آخر الأمر خَشْيةَ أن تَرَى زوالَ حضارتها .

وهنالك مصاعبُ مختلفةٌ ، ولكن مع إمكان تذليلها ، تَعْتَرِض كذلك مشروعَ الاتحادِ الفِدِرالىِّ الجديدَ ، ومن ذلك ، مَثَلاً ، أن إنكلترة تُفضِّلُ على الوَحدةِ الأوربية وحدةً بريطانية يؤلَّف بها بين مختلف أجزاء العالَمِ الخاضع لنفوذها ، ولذلك فهى تَنْظُر بتمليلِ عطفٍ إلى مشروع اتحادٍ يُمْكِنُ أن يؤدِّىَ إلى تَخَلِّى كلِّ دولةٍ عن قسمٍ من سلطانها فى سبيل الدولة العليا .

ولا يُمْكِنُ أن ينشأ توحيدُ أوربة عن مناقشاتٍ كالتى تَقَعُ فى جمعية الأمم ، بل ينشأ عن جمعياتٍ اقتصادية ذاتية عَرَض ما بينها من صِلاتٍ صناعيةٍ أمثلةً كثيرة .

ونتائجُ مثلُ تلك أعلى ، تماماً ، من التى ظُفِرَ بها بعد جهودِ عشرِ سنين بَذَلها اثنان وخمسون ممثلاً فى جمعية الأمم ، فهؤلاء إذْ غاصوا فى نظرياتٍ

وهميةٍ ظَهَرَ أنهم يَجْهَلون ما يُسَيِّرُ العالَمَ من ضرورات .

وإذا عَدَوْتَ هذا الاتحادَ الاقتصاديَّ بين الأمم الأوربية وجدتَ المناهجَ الوحيدةَ التى اقتُرِحت حتى الآن لحفظ السِّلْم مؤلفةٌ من مشروعاتِ نزع السلاح ، بَيْدَ أنه لم يكن من الصعب أن يُعتَرَف أمام الأخطار التى تحيط بجميع الأمم بأنه لا يُمْكِنُ أمةً أن تَبْقَى عزلاءَ من السلاح .

وعُقِدَتْ مؤتمراتٌ كثيرة فى عواصمَ كثيرةٍ بالتتابع فأثبتت تعذرَ نزع السلاح فعلاً ، كما دَلَّت على ضرورة استقرار نزع السلاح بالنفوس فى بدءِ الأمر .

* * *

كان غليومُ الصَّمُوتُ يقول : « لا ضرورة للأمل فى الإقدام . . . » ، وقد أثبت الفوزُ صحةَ هذا المثل .

ومما يَزِيدُ فى تَمَنِّى إقامةِ سَلْمٍ دائمةٍ فى أوربة كونُ كلِّ حربٍ جديدة تعتمد على تقدم الأسلحة الحديثة تؤدِّى إلى تخريب عواصمِ العالَمِ القديم الكبرى وتدلُّ على نهاية حضارته .

وكانت حروب الماضى تتمُّ بأسلحةٍ قليلة العدد لا يَكترِث لها غيرُ قسمٍ ضئيل من الأهلين ، ولا تُوَاجِهُ الحروبُ الحديثة بين بضعة آلافٍ ، بل تقابِلُ بين ملايينَ من الآدميين ، ولا تُعتِّمُ أن تَعُمَّ مختلفَ بلدان القارَّة .

وحتى الآن لم تُسْفِرْ عن نتيجةٍ جميعُ الجهود التى بَذَلها السياسيون وُصُولاً إلى نَزْع السلاح فى البرِّ والبحر واستبدالاً للتحكيم بما يَقَعُ من

نزاعٍ مسلَّح ، ومن الصواب قولُ رئيس جُمهورية الولايات المتحدة إن أمل الأمة العزْلاء ، أو السِّيئةِ السلاح ، فى ألَّا تهاجَم ضعيفٌ جِـداًّ ، ومن الواضح ، مَثَلاً ، كَوْنُ روسية ، التى تَحْلُم بوقوع حربٍ عالمية لتَضْمَن نَصْراً لمبادئها ، شديدةَ الخطر بجيشها المؤلف من ستمئة ألف رجل على أوربة العزلاء من السلاح .

وفى معارفنا الحاضرة يقوم الأملُ الوحيد فى سَلْمٍ دائمةٍ على اكتشاف أسلوبٍ فى التخريب بالغٍ من السرعة ما لا تريد أمةٌ معه أن تُعَرِّض نفسَها لنتائجه ، ومن ذلك ، مثلاً ، اكتشافُ وسيلةٍ لجَمْع الموجات الهِرْتِزِية فى نقطة واحدة[1] .

ومنذ زمنٍ بعيـد أبصر مُونْتسكيو ، كما يَظْهَرُ ، هذه الاكتشافاتِ الخطِرَة حينما قال :

« أرتجفُ ، دائماً ، من الانتهاء فى آخر الأمر إلى اكتشاف شىء مكتوم يُجَهِّزُ بأسلوبٍ وجيزٍ يَهْلِكُ به الناس ويُقْضَى به على جميع الأمم والشعوب » .

---

(١) ما انفكت هذه الفكرة تساورنى منذ زمن طويل ، ولذلك قمت بتجارب ذكرتها فى كتابى « تطور القوة » ، فقد استعنت بأجهزة ذات تمدد بالغ الارتفاع فاستطعت أن أستحصل ، لمسافة ، على تيارات كهربية إنتاجية يمكن أن تظهر على شكل شرر حول جميع الأدوات المعدنية فى غرفة طولها عشرة أمتار .

وبما أن الموجات الهرتزية تخرق جميع الحواجز غير المعدنية فإنه يفجر بالقذف على هذا الوجه مستودعات البارود فى حصن والمهمات وفرقة الجنود .

ولا تزال هذه النتيجة متعذرة الوقوع لما يجب وجوده من مرايا عظيمة يجمع بها إشعاع كهربى على مسافة كبيرة .

ومع ذلك فإن اكتشافاتٍ مِثْلَ تلك حُقِّقَتِ اليومَ تقريباً ببعض المتفجِّرات ، ومما لاحظه وزيرٌ إنكليزيٌّ أن من الممكن أن يتمَّ تقويض الحضاراتِ الأوربية نتيجةً لها .

* * *

وفى أقلَّ من نصف قرنٍ أبصرَ العالَمُ فى ميدان العقل تقدماً أعظمَ من جميع ما حُقِّقَ منذ أقدم الأزمان حين كانت تُرْسَمُ الحضاراتُ الأولى على ضِفاف النيل وسهول كَلْدة .

وما حُقِّقَ من تقدمٍ فى حَقْل المشاعر التى ما انفكَّت تسيطر باندفاعاتها على الناس كان ضعيفاً جِدًّا ، وما كان العقل الذى يجب أن يُوَجِّه الأممَ لِيَنْفَع ، غالباً ، فى غير تحقيق النواحى اللاعقلية لسَيْرِها .

وأثبتت الحربُ العالمية ، التى خَرَّبت أوربة باندفاعاتٍ غريبةٍ عن البديهيات العقلية ، إثباتاً جليًّا مقدارَ الشكِّ فى المبادئ السياسية والأدبية التى تَصْلُح للحكم .

وإذا نُظِرَ إلى اختلاطات الساعة الحاضرة وُجِدَ تَعَذرُ كلِّ شعورٍ بالأطوار القادمة لتطورِ حضاراتنا أو بما ستعانيه من أوجه الأفول ، أجَلْ ، إن من الممكن أن تُوَجَّه حياةُ الأمم ، باكتشافاتِ العلم ، توجيهاً شافياً ذات يومٍ ، غَير أن العلم لا يزال من الجِدَّةِ ما لا تُبْصَرُ معه نتائجُه ولا سيما حدودُه ، وليس مجهولُ قدماء الفلاسفةِ سوى حاجزٍ موقتٍ يتقهقر أمام العلم كلَّ يوم ، فنحن نعيش فى عالمٍ من الظواهر يَظَلُّ تفسيرُها الوهميُّ على حَسَبِ ذكائنا دائماً .

ومع ذلك فإن من غير المفيد أن يُبْحَثَ فى مستقبلٍ مجهول يَقَعُ متأثِّراً بعواملَ خارجةٍ عن عقلنا ، أَجَلْ ، إنه مشحون بما لا يُعْرَف ، ولكنْ مع الأمل أيضاً ، وقد زال الآلهةُ ، الذين عَمَرُوا السماء منذ فجر الحضارات ، واحداً بعد الآخر ، والأملُ هو الربُّ الوحيد الذى ظلَّ باقيًّا ، ولن يزول الأمل إلاَّ مع آخر إنسان ، وإذ يُوحى الأملُ بجميع الاكتشافات فإنه ينتقل من المعابد إلى المختبرات ويَدْعَم الجهودَ التى تنشأ عنها تحولاتُ العالم الذى نَرَى كمالَه .

ويُمْكِن أن يُشْعَر من الآن بِعظَمِ التحولاتِ القادمة ، فلما وُفِّقْتُ ، بعد جهودٍ متصلةٍ دامت عشرَ سنين ، لإثباتى أن المادةَ الجامدةَ لم تكن فى الحقيقة غيرَ تكثيفٍ عظيمٍ لقوةٍ لا جِدال فيها وأن من الممكن ، ذاتَ يومٍ ، أن تنطلق الطاقةُ الذَّرِّيةُ الكامنةُ أعلن من فوق المِنْبَرِ البرلمانىِّ أستاذُ الاشتراكية الأكبرُ فى هذا الزمن أن نتائجَ مثلِ هذه المباحث قد تؤدى إلى تَحَوُّلٍ تامٍّ فى أحوال الحياة الاجتماعية .

لا جَرَمَ أن العلم لا يزال فى دور البحث ، ولكنه يُبْصِرُ الطريقَ التى يجب أن يَسْلُكها بالتدريج ، ويتطور العلمُ ، بفعل الاكتشافات المفاجئة ، بسرعةٍ لا مثيلَ لها مطلقاً ، وقد تَمَّ للفكر البشرىِّ من التحولات فى أقلَّ من قرنٍ أكثرَ مما تَمَّ له فى ثمانية آلافٍ من سِنِى التاريخ التى مرَّت قبله ، وإذا ما حُكِم فى الأمر بما تَمَّ من فتحٍ حتى الآن كَشَفَتْ لنا المِنْطقةُ المجهولة التى يتقدم العلمُ فيها خُطوةً كلَّ يومٍ عن أسرارٍ يُمْكِن أن تُبْصَر عَظَمتُها .

ولذلك يمكننا أن نَحْلُمَ بإِنسانيةٍ قادمةٍ تختلف عن الإنسانية الحاضرة اختلافَ هذه الأخيرة عن آدمي ما قبل التاريخ الابتدائيين ، وهذا حُلُمٌ لا رَيْب ، ولكنه حُلُمٌ أقربُ إلى الحقيقة من الأحلام التى سيطرت على العالَم حتى الآن فلا ينبغى أن يُطْعَن فيها ما رَفَعَت الإنسان من الوحشية إلى الحضارة .

-

تعليقاتٌ خِتَامِيّة

١ — مختاراتٌ من رسائلَ تبادلها المؤلفُ وبعضُ أقطاب السياسة مع نقل آراءٍ لهم حوْل بعض المسائل التى جاءت فى هذا الكتاب

●

أُسُسُ الحقّ الصحيحةُ

ناقَشَ مسيو كلِيمَنْسو ، بالعبارة الآتية التى جاءت فى كتابه « فرنسة أمام ألمانية » ، كلمةَ غوستاف لوبون القائلةَ « إن الحقَّ قوةٌ تدوم » :

« كان غوستاف لُوبُون قاسياً فى تشريحه أحدَ آلهتنا الأخيرين حينما قال إن الحقَّ ليس غيرَ قوةٍ تَدُوم ، فيا للتدنيس فى تحليلِ الإنسان إلهَه !

« أوَليس حَقُّ الخلْقِ الآتى إلهَ الإنجيل الحديثِ الذى لم يَصْنَع غوستاف لوبونُ غيرَ رَدِّه إلى مصدر جميع آلهة الأرض ، وذلك بتوحيده مع قوة الأشياء الدائمة التى ينشأ عنها كلُّ نظامٍ للموجودات ؟ ولم يُمْكِن فى المذهب الجديد ، أكثرَ مما فى العلوم اللاهوتية الأخرى ، تعيينُ غيرِ المُعَيَّن ومَسُّ ما لا يُمَسُّ وبلوغُ ما يَفِرُّ وتثبيتُه » .

مبادئُ مختلفةٌ حوْلَ كلمةِ « ديموقراطية »

سألتُ أقطابَ السياسة الأفاضلَ : جورج كلِيمَنْسو ومُوسُولِّينى وهِرْيُو

وجان دُو كَسْتِلاَّن ، عن تعريفهم كلمة « ديموقراطية » إيضاحاً لمختلف المبادئ التى يُمكِن أن تدور حَوْلها ، فاسْمَعْ أجوبتَهم :

« أستاذى العزيز ، حقًّا أنك رجلٌ باهر ، ولكنك تسألنى عما يَقَعُ وراءَ وسائلى ، وأنت الذى تَجِدُ وقتاً للتأمل ووضعِ كُتُبٍ أمكننى أن أُقَوِّم بها كثيراً من أفكارى ، وهذا ما أُعرِب لك به عن شكرى .

« أنت تطلب منى أن أُعَرِّف الديموقراطية ، ولا تسألُنى أكثرَ من ذلك !

« لقد اعتصرتُ دماغى ، وإليك ما استطعتُ أن أجِدَه : زيادةُ أقسامِ الذكاء فى الأعلى مُصَفَّاةً بزيادة الذكاء فى الأسفل ، رجوعاً إلى نقطة انطلاقهما إلى جهاتٍ عامة مقبولة ميسورة فى سبيل مجموع الأمة .

« المُعْجَب بك :

« ج . كلِيمَنْسُو »

« أستاذى العزيز ،

« بصفتى جَذْرِيًّا[1] أقول إن الديموقراطية هى النظام الذى يبحث فى المجتمع عن تقويم مبدأِ العدل الذى أنعمت به الطبيعة ، ولكن بالعقل ، وإن شئت فقل إنه ذلك النظامُ الذى يَجِبُ أن يُبْحَثَ به عن تقريب ما بين الأخلاق والسياسة حتى تمتزجا .

« المُجِلُّ لكم :

« هريو »

---

(١) Radical

« أستاذى العزيز ،

« أُجيب عن كتابك ، فالديموقراطيةُ هى الحكومةُ التى تَمْنَحُ الشعبَ ، أو تحاول أن تَمْنَحه ، وَهْمَ كونهِ سيداً ، أَجَلْ ، إن أدواتِ هذا الوهم كانت مختلفةً باختلاف الأزمنة والشعوب ، غير أن الأساس والأهدافَ لم تتغير قَطُّ ، وهذا هو رأيي الصريح ، وهذا يُتِيح لى فرصةَ تقديم تحياتى القلبية إليك .

« موسولينى »

وإلى التعريفات السابقة أُضيف ما تَفَضَّل بإرساله إلىَّ رئيسُ مجلس بلدية باريسَ المفضالُ ، مسيو جان دو كَسْتِلاَّن ، فقد قال :

« دَلَّت التجرِبةُ على أن « الديموقراطيةَ » الحقيقية كانت تقوم على الحكم فى سبيل الأمة بواسطة صَفْوَةٍ تُضِيفُ إلى هِبَة السلطة مُحَصَّلًا من الفَنِّيَّة الكافية ، وذلك أكثرَ مما على الحُكْم بالشعب لتَعَذُّر هذا .

« وتزدهر ديموقراطياتُ المستقبل ضِمْنَ النطاقِ الذى تَتَكوَّن به هذه الصَّفْوَةُ وتُلْقِى به قِيادَها إليها .

« جان دو كَسْتِلاَّن »

ولم أحْتَجْ إلى سؤال البلاشفة لأعْرِفَ أن دكتاتورية الصَّعْلكة ، أى كونَ حُكْمِ الطبقاتِ العليا من قِبَل الشعب ، يُلَخِّصُ مبادئهم حَوْلَ كلمةِ الديموقراطية .

مبدأُ القوميات

يُوجِبُ مبدأُ القومياتِ ، الذى قُسِّمَتْ النمسةُ باسمه إلى دُوَيْلاتٍ منفصلٍ بعضُها عن بعضٍ ، نتائجَ جالبةً للنوائب ، ومن أشدِّ هذه النتائج خَطَراً تَوَسُّعُ ألمانية كثيراً بأن تَضُمَّ إليها جُمهوريةَ النمسة التى ضَعُفَتْ ببَتْرِها كثيراً لتَبْـقَى مستقلةً .

وبما أن هذه النتائجَ لمعاهدة السِّلْم تَلُوح واضحةً لى فقد أطلعتُ مسيو كلِيمَنْسُو على انتقاداتى ، فاسمع جوابَه :

« أستاذى وصديقى العزيز ،

« أُعْجَبُ بألمعيتكَ المدهشة دائماً .

« ولكن كيف تستطيع ألاَّ تبالىَ بما تنطوى عليه روحُ القوميات البعيدةُ الغَوْرِ والكثيرةُ الصواب ؟ أو لماذا تقول بها من أجْلِ بعضهم وتتجاهلها لدى الآخرين ؟

« المُجِلُّ لكم :

« ج . كليمنسو »

أَجَلْ ، كانت النمسة تشتمل على قَوْمياتٍ مختلفة كثيراً ، ولكن فرنسة تشتمل ، أيضاً ، على قومياتٍ كالبرِيتُون والنورمان والأُفِرْنيين والپُروفَنْسيين ، إلخ . ، فهذه القومياتُ كثيرةُ الاختلاف وإن كانت تَنِمُّ على عروقٍ أقلَّ انفصالاً من مختلفِ قوميات إمبراطورية النمسة على ما يحتمل ، فلو تَمَّ

النصر لألمانية فقَسَّمت فرنسة باسم القوميات كما قُسِّمت النمسة لقُضِيَ على عمل ألف سنة من التاريخ .

الانتفاع بالوثائق النفسية في حكومة الأمم

طَبَّقَ جميعُ أعاظم أقطابِ السياسة علمَ النفس تطبيقاً غريزيًّا ، غير أن هذا العلمَ بَقِيَ ، إلى حدٍّ ، كما كانت عليه الكيمياء قبل لاڤوازْيِه .

ومن ذلك ، مثلاً ، كونُ مدرسةِ العلوم السياسية بباريسَ ، المشتملةِ على عددٍ كبير من كراسي التدريس ، لا تحتوي أيَّ كرسيٍّ خاصٍّ بتعليم علم النفس .

ومع ذلك فقد أبصرتُ مقدارَ اكتراث رجال السياسة لعلم النفس بما رأيتُ من إقبال كثيرٍ منهم على مطالعة كتبي وترجمتها ، وقد تُرْجِمَ كثيرٌ من كتبي ، ولا سيما روحُ الجماعات والسننُ النفسية لتطور الأمم ، إلى كثير من اللغات الأجنبية ، فنُقِل إلى العربية من قِبَل وزير العدل بالقاهرة فتحي باشا[1] ، وإلى اليابانية من قِبَل سفير اليابان بباريس السيد موتونو ، وإلى التركية من قِبَل مدير أهمِّ صحف استانبول ، وإلى الروسية من قِبَل الدوك الأعظم قسطنطين الذي كان مديراً للمدارس الحربية ، وإلى الهندوستانية من قِبَل رئيس وزراء نظام حيدر آباد ، إلخ .

---

(١) أعدنا ترجمة ما نقله المرحوم فتحي زغلول إلى العربية لأسباب ذكرناها في مقدماتنا . (المترجم)

و « روحُ الجماعات » على الخصوص هو أكثرها مداراً لتأمل أقطاب السياسة ، ففى محادثةٍ وقعت مع السنيور موسولينى ونشرتها « آفاقُ العالم » تَجِدُ العبارة الآتية :

« لديكم فى الحقْل الفلسفىِّ والعلمىّ رجالٌ تفاخِرُ البشرية بهم كثيراً كغوستاف لوبون الذى قرأتُ جميعَ كتبه ، ومما لا يُحْصَى عددُ المرات التى طالعتُ فيها كتابه « روح الجماعات » فكنت أرْجِعُ إليه فى الغالب » .

وفى محادثةٍ أخرى نشرتها « الأنَّال » فى ٨ من يونيه سنة ١٩٢٤ عَبَّرَ رئيسُ جمهورية الشِّيلى ، دون أرْتُورُو ألِسَّانْدرِى ، عما فى نفسه بما يأتى :

« إذا أُتيح لكم ذاتَ يومٍ أن تتعرَّفُوا بغوستاف لوبون فقولوا له إن رئيس جمهورية الشيلى أشدُّ الناس إعجاباً به ، فقد تَغَذَّيت بكتبه ، وأطلبُ أن تبلِّغوه أننى ما فَتِئْتُ أجِدُ فى عملى السياسىِّ فرصةَ وقوفى على صحة ملاحظاته العجيبة » .

ومِثْلُ هذا الرأى ما أبداه غيرَ مرةٍ رئيسُ جمهورية الولايات المتحدة السابق ، مستر رُوزفِلْت ، حَوْل كُتُبِ غوستاف لوبون ، ولا سيما « السنن النفسية لتطور الأمم » ، هذا الكتابَ الصغيرَ الحجمِ الذى لم يفارقْه قَطُّ فى رِحلاته والذى كان يستوحيه فى سياسته كما قال .

وقد كَرَّر الادعاءَ نفسَه فى وليمةِ غَداء أقامها له مسيو هانُوتُو فى رحلةٍ له إلى باريسَ .

وكذلك رجالُ السياسة الفرنسيون يُعَدُّون من القراء المواظبين على

مطالعة روح السياسة ، وذلك كما يدلُّ عليه بوضوحٍ ما تلقيته من رسائلِ أكثرِهم فضلاً .

ولا يُحْصَى عددُ مُعْضِلاتِ علم النفس التى تعْرِضُ على رجال الحكم كلَّ يومٍ فيُمْكِن أن تتوقف على حَلِّها حياةُ الأمة ، ومما ذكرتُه فى كتابٍ آخرَ أن الصدر الأعظم العثمانىَّ كان قُبَيْلَ الحرب قد عَرَض علىَّ بواسطة سفيره بباريسَ أن أذهب إلى الآستانة لإلقاء عددٍ من المحاضرات فى روح السياسة .

ومما أثار أسفى كثيراً كَوْنُ حالتى الصحية لم تَسْمَحْ لى بقبول هذا العَرْض ، فهو يُثْبِتُ على الأقلِّ أن التُّرْك لم يكونوا سَيِّئِى الوَضْع نحو فرنسة .

ومن الراجح جِدًّا أنه لو وُجدَ فى الأسطول الفرنسىِّ قائدٌ بالغٌ من الإقدام ما يَتَعقب معه « غُوبْلِن » و « برسلاو » حين إبحارهما إلى الآستانة لظلَّ الترك محايدين ولكانت الحرب قصيرةَ الأَمَد .

تعيينُ التطور الاجتماعىِّ بدراسة أحوال الأمم

جاء فى تقريرٍ لمسيو دُلَاتُور تُلِيَ فى مَجْمَع العلوم الأدبية والسياسية فى ١٦ من مايو سنة ١٩٢٥ ما يأتى :

« دَرَسَ الدكتور غوستاف لوبون فى أحد كتبه الأولى ، « الإنسان والمجتمعات وأصلهما وتاريخهما » ، تطورَ الإنسان والمجتمعات منذ أصولهما

البعيدة حتى أيامنا ، ومما بحث فيه كيف وُلِدَت الصِّناعةُ والفنون والأُسرة والمجتمعات ومبدأُ الخير والشرِّ ، وكيف تكونت النُّظُمُ والقوانين ، وما عِلَلُ تحوُّلاتها مع الزمن ، ثم كيف كان طرازُ تفكير كلِّ دَوْرٍ وأمة ومعتقداتُهما وأخلاقُهما وحقوقُهما . . .

« و بدراسة الحضارات الأولى يُطَّلَعُ على الأطوار القديمة لنُظُمنا وعاداتنا ومعتقداتنا .

« . . . وفى كتابٍ عن « روح الأزمنة الحديثة » ، نُشِرَ فى سنة ١٩٢٠ ، ذَكَرَ الدكتور غوستاف لو بونُ كَوْنَ معظم المسائل السياسية والحربية والاقتصادية والاجتماعية من نِطاق علم النفس ، وكونَ الألمان خَسِرُوا الحربَ عن جَهْلٍ به ، وكون خَطَئهم فى روح الشعوب أقام ضدَّهم أمماً لم تطلب غيرَ البقاء على الحياد » ، (أثر غوستاف لو بون) .

الاشتراكيةُ معتقد دينىّ

أثبت غوستاف لو بون منذ زمنٍ طويلٍ كَوْنَ ما تنطوى عليه الاشتراكية من قوةٍ عظيمة ناشئاً عن أنه يتألف منها دينٌ جديدٌ قريبٌ من النصرانية فِى أوائلها ، لا عن أنها أمرٌ سياسىّ .

واليومَ عَمَّ هذا الرأى تماماً بعد أن كان موضعَ جَدَلٍ ، ويُمْكِن أن يُحْكَم فى هــذا بالكلمات الآتية التى اقْتُطِفَتْ من مقالةٍ نُشِرَت فى « صديق الشعب » :

« طاف ابنُ مستر رَمْسِى مَكْدُونَلْد بعد أبيه فى الولايات المتحدة ،

فَصَرَّح أمام أعضاء النادى الاشتراكىّ فى جامعة شيكاغو قائلاً : « ليس مذهبُ اشتراكيّي إنكلترة وعملُهم السياسىُّ لَعِباً أو عَرَضاً ، بل دِينٌ » ، وليست الكلمة جديدةً ، فقد قالها غوستاف لوبون منذ زمن طويل ، وذلك « أن الاشتراكية معتقدٌ دينىٌّ أكثر من أن تكون نظريةً عقليةً بدرجات . . . » ، ويتألف من الاشتراكية والبلشفية خطرٌ عظيم لانتشارهما على نَمَطِ الأديان ، « من غيرِ دليلٍ وبالتوكيدات والخيالات والوعود الوهمية » كما قال غوستاف لوبون » .

عجز المنطق العقلىّ تِجاه بعض القوى الجْماعية

يَبْرُز بين المصاعب العظيمة للسياسة الحديثة حركاتُ رأىٍ ناشئةٌ عن حَسَّاسية الكرامة الجماعية .

ومن أطرف الأمثلة على مِثْلِ هذا الصدام ما وَقَع فى المؤتمر البحرىّ بلندن فى يناير سنة ١٩٣٠ لنَقْصِ التسلُّح .

وكلٌّ يعلم أن محادثاتِ ثلاثة أشهر انتهت بحبوطٍ تامٍّ .

وقد استندتُ إلى مبدأِ عجز العقلىّ عن مناهضة الحَسَّاسيّات والبُطلانات الجماعية فأتيح لى منذ افتتاح المؤتمر أن أُنبِئَ سفير إنكلترة فى فرنسة بأن حبوطه سيكون تامًّا على الرغم من جميع جهود السياسيين .

حتى إن إيطالية وَجَدَت من مقتضيات نفوذها ألاَّ تُوَافِق ، بأى ثمنٍ

كان ، على رفض حَقِّها النظرىّ فى أن يكون لها أسطولٌ مساوٍ لأسطول فرنسة .

فأمام كلمة « المساواة » البسيطة تحطمت جميعُ جهود أرفع سياسيي العالَم .

مبادئُ التاريخ الممكنةُ

تَبْلُغ معارفُنا عن العالَم والموجودات من التَّجَزُّؤِ والتحول ما يُفِيدُ معه ، دائماً ، أن يُعْرَف ما يَصُوغه مختلفو الأمزجة من تفسيرٍ حَوْل الكون .

وإذْ تَصْلُح العواملُ العقلية والعواملُ الوجدية أساساً لهذه التفاسير فإنك تَجِدُها مُلَخَّصةً فى الرسالتين الآتيتين اللتين تبادلهما المؤرخُ المفضال غبريال هانوتو وغوستاڤ لوبون نتيجةً لسؤالٍ وضعه هذا الأخير .

ڤِيلولاَ رُوكْبرُون كاپ مارْتِن (ألپ ماريتيم)

فى ١٥ من فبراير سنة ١٩٣٠

« صديقى العزيز ، أَتَّخِذُ كلمةَ « الحكمة الإلٰهية » وكلمة « صادر عن الحكمة الإلٰهية » ضِمْنَ المعنى الذى كان يتخذها بُوسُويه وپَسْكال .

« هذه ضمانات !

« ولا أزعم أننى أُمَثِّلُ « المؤرخين المعاصرين » ، ولكن التاريخ عَلَّمنى أنه لا يوجد تَمَدُّنٌ إلاّ عند الأمم التى تحتفظ بالإيمان على أنه مَثَلٌ إلٰهىٌّ عالٍ ، أى بالإيمان بخالقٍ صانعٍ للناموس الأدبىّ .

« وهل حَرَّر العلمُ من غوامضه هـذا الأمر الخفيَّ أو ذاك ، أى أمرَ الخلقة وأمرَ الروح ؟ . . .

« ولا أدرى أهذا عن عدم عِلْمٍ ، ولـكنْ بما أننى أقتصر قبل كلِّ شىء على الانسجام العامِّ والأدبىِّ فإننى أظلُّ مخلصاً لِمَا اختاره آباؤنا وللمعتقداتِ التى أقامت المجتمعاتِ البشريةَ والتى تحفَظُها .

« أخافُ مُوسكو .

« صحةٌ وعافية ، فتعَمَّقْ ، إذَنْ ، فى هذه المُعْضِلات ! ولا تخَفْ ! وثِقْ بأننى صديقك البالغ الإخلاص :

« هانوتو »

والتأملاتُ الآتية هى ما أثاره هذا الـكتابُ لدى المرسل إليه :

باريس ، فى ١٧ من فبراير سنة ١٩٣٠

« صديقى العزيز ، إدراكُك للتاريخ سهلٌ جدًّا ، ولـكنه يبتعدُ كثيراً عما قال به كثيرٌ من العلماء .

« فالعالَمُ عند هؤلاء العلماء يَتَعَقَّدُ كُلَّما أُريد التَّبَحُّر فيه .

« وقد قام مقام مبدأِ الخِلْقَة مبدأُ كَوْنٍ لا نهايةَ له ، أى عالَمٍ لا أولَ له ولا آخرَ .

« يَفْصِلُنا سبعون مليون سنة عن الدَّوْر الذى نشأت فيه على السَّدِيم المُبَرَّد خَلِيَّاتٌ دقيقةٌ تُعَدُّ أوَّلَ الموجودات ، فكان آخرَ نَسْلٍ لها أولئك الأجدادُ الوُضَعاءُ الذين ظهروا قبل حضاراتنا التى هى بنتُ ستة آلاف سنة ، وذلك فى أثناء ما قبل التاريخ الذى دامَ مئةَ ألف سنة .

« وأما الناموسُ الأدبىُّ الذى تتكلمون عنه فإن من المستحيل أن يُتَصَوَّر كما كان يُصْنَع فى زمن كَنْت ، ولـكنْ كضرورةٍ اجتماعية تلاحَظُ فى جميع المجتمعاتِ ، حتى الحيوانية .

« ولم يَعْرِف مجتمعٌ بشرىٌّ أدباً أشدَّ من الذى يسيطر على بعض مجتمعات الحشرات ، وليس الأدبىُّ غريزياً فقط ما اختلف باختلاف مقتضيات الوقت ، أىْ بهذه الظاهرة التى هى من مميزات العقل .

« وتَجِدُون فى كتاب زميلكم الأستاذ فى المُوزِيُوم ، بُوفِيه ، صَفَحاتٍ مُمْتِعةً عن حياة الحشرات الاجتماعية ، حتى إنه انتهى إلى النتيجة القائلة بأن الإدراك لدى الحشرات مماثلٌ لِمَا عند الإنسان .

« وهكذا ترانا ، أيها الصديق ، بعيدين من الحكمة الإلٰهية ، كما أنك ترانا بعيدين من الأسباب الأولى للأشياء .

« وترى العالَمَ الذى كان يَسْهُل إدراكه فى زمن بُوسُويه مُعَقَّداً كثيراً فى هذه الأيام .

« إن اختلافنا حوْل فلسفة التاريخ كبيرٌ كما تَرَوْن ، ومع ذلك فهو غيرُ تامٍّ لاتفاقنا على الأمر القائل بضرورة وجود مثلٍ عالٍ لتوجيه حياة الأمم .

« ومع ما ينطوى عليه المَثَلُ الدينىُّ الأعلى من أوهامٍ فإنه بَقِىَ الأقوى حتى الآن .

« والواقعُ أن التاريخ يُعَلِّم أن الحضاراتِ الجديدةَ تُولَدُ مع الآلهة الجُدُد وأن هذه الحضاراتِ لا تَبْـقَى حَيَّةً بعد موت آلهتها .

« صديقكم القديم :

« غوستاف لوبون »

٢ — مختاراتٌ من كُتُب المؤلِّف السابقة
حَوْلَ بعض المسائل التى جاءت
فى هذا الكتاب

يتضمن التاريخُ معرفةَ مختلف العلوم التى لم يكن غيرَ جَمْعٍ لها فى الحقيقة ولو قُصِرَ على بَصَرٍ سطحيٍّ بالأمور المُدَوَّنة فى الكتب .

ويدلُّ البحثُ ، الذى هو أعمقُ من الذى رَضِيَ به الإنسانُ فى ألوفِ سِنِي الحضارة الستِّ ، على أن العالم بالغُ التعقيد ، ومما وُفِّقَ له هذا البحثُ ، على الخصوص ، إيجادُ بعضِ صُوًى[1] ساطعةٍ فى غابة الحوادث المُظْلمة .

وتُعَدُّ معرفة تفسير العالَم الصادرةُ عن المختبرات أمراً ضروريًّا لإدراك التاريخ .

ومباحثُ علم النفس ، أى العلمِ الذى يُفَسَّر به تكوين الأعمال ، هو ما يجب ذِكْرُه على الخصوص ، ولذلك وَجَدْنا من المفيد أن نَنْقُل بعضَ مختاراتٍ من الكتب التى نشرناها حَوْل فصولٍ مختلفة من هذا العلم .

---

(١) الصوى : جمع الصوة ، وهى الحجر الذى يكون دليلا فى الطريق .

القُوى المُوجِّهةُ للعالَم وإيضاحُ الحوادث

« يَلُوحُ العالمُ ، البسيطُ إلى الغاية فى الزمن الذى كان الآلهةُ يسيطرون فيه على مجراه ، أكثرَ تعقيداً مقداراً فمقداراً ، وذلك كلما بَحَث العِلْمُ عن الأسباب ، فقد أصبحت الحوادث البسيطة ظاهراً ، كسقوط الحجر وكهربةِ قضيبٍ من الصَّمْغ ، مسائلَ يتعذَّرُ على العالِمِ حَلُّها .

« ويَعْدِل العِلْمُ الحديثُ عن اكتشاف عنصرٍ ثابت فى العالَمَ ، أى صُورةٍ ثابتةٍ فى مجرى الحوادث ، وكلُّ شىء زال مناوبةً ، حتى إن المادةَ ، التى هى آخرُ عنصرٍ كان يُعْتَقَدُ إمكانُ الاعتمادِ عليه ، خَسِرَت أبديتَها ، وهكذا يَعْقُب الثباتَ عدَمُه ، فتقوم تقلباتُ التوازنِ الدائمةُ مقامَ السكون .

« و يتقهقر السببُ الأول للأشياء فى لا نهايةٍ منيعةٍ ، والصِّلاتُ بين الحوادث وحدَها هى ما يُمْكن أن يعْرَف .

« والعِلْمُ ، إذْ يَترُكُ الإيضاحاتِ الكثيرةَ الاختصار ، يقيم الآن تجَمُّعَ ما لا حَدَّ له من العِلَل الدقيقةِ إلى الغايةِ مقامَ النواميس العامة الكبرى ، والعِلمُ يُعَلِّمُ أن العالَمَ الفيزيوىَّ والعالَمَ البيُولوجىَّ والعالَمَ الاجتماعىَّ من عَمَلِ ذاتياتٍ بالغةِ الصِّغَر تكون غيرَ مؤثرة إذا بقيتْ منفردةً ، ولكنها تكون قويةً جِدًّا عند ما تقترن ، ومن الدقائق التى لا حَدَّ لصِغَرها ظَهَرت القارَّات ونَبَتَت الغَلَّات وقامت الحياة ، ويَبْقى مختلفُ الذاتياتِ ، كالذراتِ

الفِزْيوية والخلِيَّاتِ الحيَّة والوَحَدات البشرية إلخ ، لا عَمَلَ له إذا لم تأتِ قُوًى مُوَجِّهة لتوجبَ أعمالَه وتُقَنِّنَ أفعالَه .

« ولا يُهِمُّ كثيراً كونُ العناصر المقصودة من الحقل الفِزْيويِّ أو الحقل البيولوجيِّ أو الحقل الاجتماعيّ ، فلا بدّ من وجودِ عواملَ مُدبِّرةٍ لتوجيهها دائماً ، وتتحول العناصر الفردية إلى غُبارٍ لا طائل فيه عند ما تعود غيرَ متأثِّرةٍ بهذه العوامل .

« وفى خلِيَّات الجسم العضويِّ ينطوى التوجيه المُدَبِّر على الحياة ، وينطوى سكونُه على الموت ، وعَيْنُ هذه السُّنَّةِ أمرُ وَحداتِ الموجود الاجتماعيِّ .

« وفى الدائرة النفسية نَرَى تعاقبَ القُوَى المُوَجِّهة ، كالمعتقدات والمثل الأعلى ، إلخ . ، وذلك من غير أن تَزُول مطلقاً .

« أَجَلْ ، يُمكِن أن تُغَيِّرَ اسمَها ، ولكن مع بقائها دائماً ، ولا بُدَّ ، فى التوجيه بالإيمان ، من السيف أو العلم أو الفكر فى جميع وجوه التاريخ ، فحِرْمانُ المجتمع قُوًى موجِّهةً أو إخضاعُه لقُوًى تابِعَةٍ للهوَى ، مترجحةٍ دائماً ، يَعْنى الحكمَ عليه بالهلاك » ، (روح السياسة) .

غيرُ المُنْتظَرُ فى التاريخ

« يسيطر غير المنتظر على التاريخ .

« أَجَلْ ، كان يُمكِن الرجلَ البصيرَ أن يُنَبِّئَ قبل الحرب بانحلال النمسة ، وكذلك بانحلال روسية وتركية على ما يحتمل ، ولكن كيف كان يُمكِنه أن يتصوَّرَ مصيبة ألمانية الهائلة بغتةً ؟ كانت ألمانية قد بلغت أوْجَ القدرة ، وكان العالمَ يَلُوح مهدَّداً بمعاناة سلطانها ، ثم غُلِبَتْ فى كلِّ مكانٍ فانهارت فى بضعة أسابيعَ بين الخِزْى والحزن .

« ويؤدى توالى الانقلابات هذا إلى غَدٍ هائل لا ريب ، ولكنْ ما يكون هذا الغَدُ ؟ وفى النمسة ما يُصْبِح ، مثلاً ، هذا النَّقْعُ من الأمم الصغيرة المتخاصمة التى خَرَجتْ من الدولة العُظْمى بعد أن جَمَعَتْ بينها فى قرونٍ من الجهود كثيرةٍ ؟

« وإذا كانت دروسُ الماضى صالحةً لتكون دليلاً أَمْكن أن يقال إن أوربة مهددةٌ بحروب تذكرنا بما اشتعل منذ القرون الوسطى وذلك ليؤلَّف من الدول الصغيرة ما انحلَّ اليوم من الإمبراطوريات العظيمة .

« بَيْدَ أن العالمَ بَلَغَ من التطور ما لا تَكْفِى معه سُنَنُ ماضٍ بسيط جِدًّا لإيضاح مستقبلٍ كثير التعقيد ، وقد ظَهَرَ بعضُ المبادئ الجديدة ، وباسم هذه المبادئ ستُعانِى النُّظُمُ والمعتقداتُ تحولاتٍ غيرَ منتظرةٍ لا رَيْب » ، (روح الأزمنة الحديثة) .

العوامل النفسية

« تتحول جميع العوامل الخارجية التى تؤثِّرُ فى الناس ، كالعوامل الاقتصادية والتاريخية والجغْرافية ، إلى عواملَ نفسيةٍ فى آخر الأمر .

« ويسيطر على هذه العوامل أنواعٌ المنطق مختلفةٌ .

وما حَدَث من عدم قدرةٍ على حَلِّ ما بين هذه الأنواع من تأثيرٍ متقابل أساء كثيرٌ من المؤرخين به إيضاحَ بعض الأدوار ، ولا سيما دَوْرُ الثورة .

« والواقع أن العنصرَ العقليَّ الذى يُذْكَرُ ، على العموم ، كوسيلةٍ للإيضاح كان أضعفَ عَمَلاً ، فهو وإن أَعَدَّ الثورةَ الفرنسية لم يَبْدُ فى غير أوائلها .

« ولسُرْعان ما توارى العامل العقلىُّ أمام عامل العنصرين : العاطفىِّ والدينىِّ .

« وهنالك أصبح شأنُ العوامل الدينية عظيماً ، فقد ألقت بذورَ التعصب فى الجيوش ونَشَرَت المعتقدَ الجديد فى العالَم .

« ولا تَجِدُ فى حياة البشر دَوْراً قَدَّم سلسلةَ تجارِبَ كهذه جُمعت فى وقتٍ بالغٍ ذلك القِصَر .

« وتُسَوِّغُ المجالسُ الثورية جميعَ ما تَعْرِفه روحُ الجماعات من سُنَن ، فالجماعاتُ إذْ تَنْدَفِعُ وتخاف فإنه يُسَيْطِرُ عليها عَدَدٌ قليل من الزعماء وتَسِيرُ ، غالباً ، على ما يخالف عزائمَ كلٍّ واحدٍ من أعضائها على انفراد .

« وكان المجلس التأسيسىُّ مَلَكيًّا فقضى على الملَكية القديمة ، وكان المجلس الاشتراعىُّ إنسانيًّا فأغضى عن وقوع مذابح سبتمبر ، وكان مسالماً فألقى فرنسة فى حروب هائلة ، ووَقَع مثلُ هذه المتناقضات فى زمن مجلس العهد ، فقد كانت أكثريته الساحقة تَرْفِض العُنْفَ ، وكانت مؤلَّفةً من فلاسفة عاطفيين يُمَجِّدون المساواةَ والإخاء والحرية ، ومع ذلك فقد أدى هؤلاء إلى استبدادٍ هائل .

« ومن النادر ، كما قال بُوسُّويه ، ألَّا يَعْمَل الفِكرُ البشرىُّ لغاياتٍ تُبَايِنُ مَقْصِدَه فضلاً عن سَبْقِها إياه .

« وعلى الرغم من تناقض الظواهر لا تكون منازعاتُ المستقبل صِراعاً بين المصالح الاقتصادية فقط ، بل مصادمة بين الأوهام النفسية أيضاً » .
(روح الثَّوْرات) .

أنواع المنطق المسيطرةُ على التاريخ

« يُوجَدُ ، خلافاً لِمَا يشتملُ عليه علمُ النفس الكلاسىُّ من معارفَ ، أنواعٌ للمنطق تختلف عن المنطق العقلىِّ اختلافاً كبيراً ، ومنها المنطق الدينىُّ والمنطقُ العاطفىُّ على الخصوص .

« وتَبْلُغُ هذه الأنواع من الاختلاف ما لا يُمْكِن معه الانتقالُ من أحدهما إلى الأخرى .

« وعلى المنطق العقلىِّ تُبْنَى جميعُ أشكال المعرفة ، ولا سيما العلومُ الصحيحة .

« وعلى المنطق العاطفىِّ والمنطق الدينىِّ تُبْنَى معتقداتُنا ، أى أهمُّ العواملِ فى سَيْرِ الأفراد والأمم .

« ويُهَيْمن المنطقُ العقلىُّ على مِنطقة الشعور حيث يُؤْتَى بتفسير أفعالنا .

« وفى مِنطقة اللاشعور ، التى تسيطر عليها المؤثِّراتُ العاطفية والدينية ، تَنْضَجُ عللُها الحقيقية .

« وتدلُّ المشاهدةُ على أن المجتمعاتِ تُقَادُ بالمنطقِ العاطفىِّ والمنطق الدينىِّ على الخصوص ، وأن المنطقَ العقلىَّ لا يؤثِّر فيها ولا يُحَوِّلها مطلقاً » .
(روح السياسة) .

الإرادةُ الشاعرة والإرادة غيرُ الشاعرة

« إن الحوادث التى تُدْرَك بالشعور هى انعكاسٌ لكِيانٍ نفسىٍّ باطنىٍّ لا نَعْرِفُه ، وفى هذا الكِيَان تَنْضَج أهمُّ بواعث السَّيْر .

وتنشأ الإرادة عن نَضْجِ البواعث هذا ، وهى تَبْدُو على شكلين : الإرادةِ الشاعرة ، وهى التى قال بها علماء النفس ، والإرادةِ غير الشاعرة .

« وتنطوى الإرادة الشاعرة على التفكير الُحرِّ وعلى النِّقَاش فى الدوافع الخارجية ، واللاشعورُ فى الإرادة اللاشاعرة هو الذى يُفَكِّر من أجلنا ، وهنالك ينتهى الحُكْمُ تامَّ التكوين إلى ميدان الشعور الذى يتقبَّلَهَ على العموم وإن كان يستطيع رَفْضَه .

« وتتجلَّى الإرادةُ اللاشاعرةُ على شكل شَهَواتٍ واندفاعاتٍ تُعَدُّ أدلاَّءَ اعتياديةً للسَّيْر ، وبما أنه ليس لدى مُعْظَم الناس دليلٌ غيرُ إراداتهم اللاشاعرة فإن هذه الإرادةَ هى التى يجب أن يؤثَّرَ فيها لتسييرهم .

« وإذا ما استقرَّت الإرادةُ غيرُ الشاعرة لدى شعبٍ بما فيه الكفاية مَنَحَتْه قوةً عظيمة ، ومما أَحْسِنَتْ ملاحظتُه كَوْنُ جميع الأمم يُقَادُ بالقُوَى الغريزية التى تُشْتَقُّ من عِرْقِها .

« فبإحداثِ عزائمَ غيرِ شاعرةٍ فى روح الجماعات يُوَجِّهُ قادةُ الناسِ الجُمُوعَ كما يشاءون » ، (معارفُ نفسية عن الحرب) .

شأنُ اللاشعور فى حياة الأمم

« يُعَدُّ اللاشعورُ فى مُعْظَمه بقيةً موروثةً عن الأجداد ، وتقُوم قوتُه على كونه يُمَثِّل تُرَاثاً لسلسلةٍ طويلةٍ من الأجيال يُضِيفُ كلٌّ واحدٍ منها شيئاً إليه .

« ويكون اللاشعور دليلاً لنا فى مُعْظَم أفعال حياتنا اليومية ، وتقوم

التربيةُ على تَرْويض اللاشعور خاصةً ، ومنه يتألف رأسُ مالٍ نفسيٍّ حقيقيٍّ .

« وعن اللاشعور تَصْدُرُ المعاينة التى هى أصلُ الإلهامات العبقرية » ، (الآراء والمعتقدات) .

صفاتُ الجماعاتِ الأساسيةُ

« يجب أن يُذْكَرَ بين صفات الجماعاتِ سرعةُ تصديقها الذى لاحَدَّ له ، وحَسَّاسيتُها البالغة وعدمُ تبَصُّرِها وعجزُها عن التأثُّر بالبرهان ، ويتألف من التوكيد والعَدْوَى والتكرار والنفوذ وسائلُ وحيدةٌ لإقناعها تقريباً ، ويُمْكِن أن تُحْمَلَ الجماعةُ على تصديق كلِّ شىء ، فليس لديها شىءٌ مستحيل .

« والإنسانُ فى الجماعة يَهْبِطُ كثيراً فى سُلَّم الحضارة ، فهو يصير من البرابرة ، ويُظْهِرُ ما يتصفون به من عيوبٍ ومحاسنَ ، أى يُبْدِى عُنفاً خاطفاً كما يُبْدِى حماسةً وبطولة .

« والجماعةُ فى الحقلِ العقلىِّ تكون دون الإنسان وهو منفردٌ دائماً ، والجماعةُ فى الحقلِ الأدبىِّ والعاطفىِّ قد تكون أعلى منه .

« والجماعةُ تأتِى عمــلاً إجرامياً بعين السهولة التى تأتى بهـــا عملاً زُهْدِيًّا .

« وتأثيرُ الجماعات عظيمٌ فى الأفراد الذين تتألف منهم ، ففيها يصبح البخيلُ مبذراً والملحدُ مؤمناً والصالحُ مجرماً والجبانُ بطلاً .

« والأمثلةُ على مثل هذه التحولات كثيرةٌ فى التاريخ ، ولا سيما فى دور الثوْرات .

« وتؤدى الروحُ الفردية والروحُ الجَماعية إلى أعمالٍ شديدةِ الاختلاف ، فالأَثَرِىُّ يُصْبِح إيثاريًّا باندماجه فى جماعةٍ ، فيُضَحِّى بحياته فى سبيل قضيةٍ اعتنقتها الجماعة التى يكون جزءاً منها .

« والجماعاتُ لا تتمثَّل الحكوماتِ إلاَّ على شكلٍ استبدادىّ ، وفى هذا سِرُّ هُتافها للطُّغاة دائماً .

« ثم إن الحكومة الشعبية لا تَعْنِى حكومةً يقوم بها الشعب ، بل حكومة يَقُوم بها زعماؤه .

« وتَبْعُدُ الحكوماتُ الحاضرة فى معظم البلدان من أن تكون شعبيةً حقًّا ، فهى تُمَثِّلُ حكومةً من الزعماء فقط .

« والدولةُ العصرية ، مهما يكن رئيسُها ، وَرِثَتْ فى نظر الجماعات وزعمائها ما كان يُعْزَى إلى قدماء الملوك من سلطانٍ دينىّ ، وذلك عندما كانت الإرادةُ الالهٰية مُتَجَسِّدةً فيهم .

« وليس الشعبُ وحدَه هو المُشْبَعَ من الاعتماد على قدرة الحكومة ، فجميع مشترعينا مشبَعون منه أيضاً .

« ولم ينتهِ سياسيُّونا إلى إدراكهم أن النُّظُمَ ، إذ كانت معلولاتٍ ، لا عِلَلاً ، لا تَنْطَوِى على فضيلةٍ فى ذاتها » ، (روح الثورات) .

استعمالُ الأسلحة النفسية

« تشتمل الأسلحة النفسية على قدرةٍ أرفَع من المدافع فى الغالب ، غير أن استعمالَها صعبٌ .

« ولا يمكن استعمالُ مِفتاحِ العوامل النفسية إلاَّ بكثيرٍ من المهارة .

« وما كان من عجز الألمان فى الحرب الأخيرة عن استعمال الأسلحة النفسية أدى إلى قيام أعظم الأمم ضِدَّهم ، وفى مقدمتها إنكلترة التى كان من السَّهل ضمانُ حيادها ، ثم إيطالية والولايات المتحدة .

« ومن أفظع الأغاليط النفسية التى اقترفها الألمان هو اعتقادُهم أن جميع الناس يَخْضَعون لعواملَ واحدةٍ ، ولم يكن لِماَ تتألَّف منه أسلحتهم النفسية المهمة ، من تهديدٍ وهَوْلٍ ورشوة ، نتيجةٌ غيرُ تَدَفُّق ثلاثة ملايين متطوعٍ من الأرض الإنكليزية وغيرُ نَسْفِ حِياد الولايات المتحدة الذى كان على ألمانية أن تَعمَل على حِفْظِهِ بأىِّ ثمنٍ كان » ، (روح الأزمنة الحديثة) .

تأثير الماضى فى حياة الأمم

« لتغيير النُّظُمِ السياسيةِ تأثيرٌ ضعيفٌ إلى الغاية فى حياة الأمم ، فمزاجُ الناس النفسىُّ ، لا نُظُمُهم ، هو الذى يُعَيِّن تاريخهم .

« وبما أن الحال الحاضرةَ لأىٍّ موجودٍ كان مُعَيَّنةٌ بتراث أحواله الماضية فإن ما يُمكِن تحقيقُه من تحوُّلٍ فى كلِّ جيلٍ ضئيلٌ فى كلِّ وقت .

« وليست التغيُّراتُ المطلقةُ التى تَحلُم بها الأحزابُ السياسية أمراً يُمْـكِنِ تحقيقُه » ، (تَقَلُّبات الساعة الحاضرة) .

ثباتُ المركَّباتِ النفسيةِ التى تتألف الأخلاقُ منها وتَحوُّلُ هذه المُرَكبات

« يُمْـكِنِ المركَّباتِ التى تتألف الأخلاق منها أن تكون شديدةَ الارتباط أو ضعيفةَ المِلَاط .

« ويُطابقُ المُرَكَّباتِ المتينةَ أقوياء الأفراد الذين يَثْبُتُون على الرغم من تقلبات الأحوال ، كالإنكليز مثلاً .

« ويطابقُ المُرَكَّباتِ السيِّئةَ المِلَاطِ ذوو الأمزجة النفسية الرَّخْوة المترددة المتقلبة كالصقالبة مثلاً .

« حتى إنها تتغير فى كلِّ ساعةٍ بفعل أخفِّ العوامل إذا لم تُوَجِّهْها بعضُ مقتضيات الحياة اليومية كما تُقَنِّى ضِفَافُ النهر مجراه .

« والذاتيةُ بلا صَلاَبةٍ تكون بلا ثبات ، والذاتيةُ بلا لَيَانٍ تَعْجِزُ عن ملاءمة تحولات البيئة الناشئةِ عن تقدم الحضارة .

« وفَرْطُ اللَّيَانِ فى الروح القومية يَحْفِزُ الأمةَ إلى ثَوْراتٍ متصلة ، وفَرْطُ الصَّلاَبةِ يَحُولُ دون تقدمها ويَسُوقُها إلى الانحطاط ، وتَزُولُ الأنواعُ الحيةُ ، كما تزول العروقُ البشرية ، عندما تَثْبُتُ فى ماضٍ طويل ثباتاً عظيماً فتصبح عاجزةً عن ملاءمة شروط الحياة الجديدة .

« وقليلٌ من الأمم من استطاع إقامةَ توازنٍ مُحكَمٍ بين الصفتين المتناقضتين : الصَّلَابة واللَّيَان » .

انتشار المعتقدات
والعَدْوَى النفسية

« تتألفُ من العدوى النفسيةِ ظاهرةٌ نفسية تكونُ نتيجتُها تَقبُّلَ بعض الآراء والمعتقدات قبولاً غيرَ إرادىّ ، وبما أن اللاشعورَ مصدرُها فإنها تَتِمُّ من غير أن يشترك فيها أىُّ بُرْهانٍ كان .

« وتُلَاحَظُ العدوى لدى جميع الموجودات المترجحة بين الحيوان والإنسان ، ويسيطر عملُها الواسعُ على التاريخ ، والواقعُ أنها تُمَثِّل العنصرَ الجوهرىَّ فى انتشار الآراء والمعتقدات .

« وتكون قوتها من العِظَم فى الغالب ما تَحْمِل الإنسانَ معه على العمل ضِدَّ أكثرِ مصالحه وضوحاً .

« وهى تُحَوِّل الأشخاصَ المسالمين إلى محاربين باسلين ، وهى تُحَوِّل أبناءَ الطبقة الوسطى الهادئين إلى متمذهبين طاغين .

« وليس تماسُّ الأفراد ضروريًّا ليؤدىَ إلى العَدْوَى النفسية ، فيُمْكِنُ أن تنشأ عن الكتب والجرائد والأنباء البرقية ، وعن الشائعات وحدَها أيضاً . . .

« وتنتقل المشاعرُ الحَسَنةُ والسيئةُ بالعدوى ، وفى هذا سِرُّ أهمية القرين فى التربية .

« وتكون العدوى النفسية من القوة الكافية ما تُعَبِّدُ معه جميعَ العقول ...

« ومتى عُرِفَ نظامُها معرفةً جيدة امتُلِكَ أحدُ المفاتيح المهمة لعوامل التاريخ الأساسية » ، (الآراء والمعتقدات) .

المثلُ الأعلى والعقل
فى حياة الأمم

« تغييرُ مبدأِ سعادة الفرد أو الأمة ، أى مَثَلِهِ الأعلى ، يَعْنِي تغييرَ مبدئه فى الحياة ، ومن ثَمَّ تغيير سيرِه .

« وليس التاريخُ غيرَ قَصَصِ الجهودِ التى يَبْذُلها الإنسان لإقامة مَثَلٍ عالٍ ثم لهَدْمِه عندما يَبلُغه فيُبْصِرُ بُطْلانَه .

« ويُعَدُّ الشَّكُّ ، الممكنُ لدى بعض الأفراد ، شعوراً لاعهدَ للجماعات به ، فالجماعاتُ تحتاج إلى مثلٍ عالٍ مُبْدِعٍ للآمال .

« ويحتاج قيامُ المجتمعِ على أساسٍ متينٍ إلى حيازة مثلٍ عالٍ مشترك ، سواء أكان هذا المثلُ الأعلى دينيًّا أم عسكريًّا أم شيئاً آخر ، وهنالك ، فقط ، تُولَدُ الروح القومية ، وتَبْقَى الأمة ، حتى تكوينها ، نَقْعاً من البرابرة يستطيع أن يلتحم ، لوقتٍ ، تحت إمْرة رئيس ، ولكن من غير تماسكٍ دائم .

« ويتمُّ الانتقالُ من البربرية إلى الحضارة باعتناق مثلٍ عالٍ مشترك .

« وتَعُود الأمم إلى البربرية عند انحلال الروح القومية ، فقد هَلَكَ الرومانُ حينما زالت من قلوبهم عبادةُ رومة والنُّظُمُ التى عَيَّنَتْ عظمتَها .

« وفى أيامنا أضاعت المُثُلُ العليا القديمةُ سلطانَها ، فقد استُبْدِل بها حِقْدُ حَسَدٍ على جميع الأفضليات ، وبالتدريج تُمَثِّلُ الأمانى الشعبيةُ صِراعاً ضِدَّ تفاوت الذكاء والثرَاء .

« وفى كلِّ وقتٍ كان شأنُ العقلِ فى حياة الأمم دون شأن المثل الأعلى ، وفى كلِّ وقتٍ جُعِلَت هذه الخاصِّيَّةُ خادمةً لأقلِّ ما يُدَافَعُ عنه من الاندفاعات العاطفية والدينية .

« ولم تَقُم الآراء والمعتقدات التى تألَّف منها مثلٌ عالٍ ضِدِّ العقل ، بل قامت مستقلةً عن كلِّ عقل » ، (الآراء والمعتقدات) .

العوامل الحديثة فى تطور الأمم

« مميِّزاتُ الزمنِ الحاضرِ الحقيقيةُ هى : أولاً إقامةُ سلطانِ العواملِ الاقتصادية مقام سلطان الملوك والقوانين ، ثانياً اشتباكُ المصالح بين الأمم التى كانت منفصلةً فلم يكن عند بعضها ما تستعيره من بعض .

« ويُصْبِحُ تأثيرُ الحكومات ، العظيمُ فى الماضى ، أكثرَ ضَعْفاً فى كلِّ يومٍ أمام العوامل الاقتصادية التى تزيد أهميةً ، والآن تَخْضَع الحكوماتُ للضرورات الحاضرة وعادت لا تَقُود .

« ووُلِدَ مع تقدم العلم والصِّناعة والصِّلات الأُممية سادةٌ بالغو القدرة يجب على الأمم وملوكها أن يطيعوهم » ، (روح السياسة) .

مقتضياتُ العَدد

« لا تَعْرِف الأمزجةُ النفسيةُ الابتدائيةُ جَوْراً ولا باطلاً ولا مستحيلاً ، وبما أن الأكثرية تتألَّف منها فإن الإنسان يُلزَم بمعاناة أهوائها التى يُفسِّرُها عبيد العَدد » ، (روح السياسة) .

نزاعٌ حديث بين الجماعة والصَّفْوة

« لم يُمْكِن الاغتناء فى الزمن القديم إلاَّ بإفقار الأمم الأخرى ، كما صَنَع الرومان .

« ومن الصعب فى الوقت الحاضر أن يَغتَنِىَ الإنسانُ من غير أن يَزِيدَ الرخاءَ العامَّ فى الوقت نفسه ، وهذا الاغتناء الجَماعىُّ مَدِينٌ لنفوذ الصَّفْوة ، فما كانت الحضاراتُ الحديثة التى أوجَدَها خيارُ الناس لتعيش وتَنْمو بغيرهم .

« وما كان هؤلاء الأخيارُ ألزمَ فى زمنٍ لزومَهم فى الوقت الحاضر ، ومع ذلك فإنهم لم يُحتَمَلُوا بصعوبةٍ احتمالَهم فى الوقت الحاضر .

« ومن المشاكل الحاضرة أن يُنْتَهَى فى وقتٍ واحدٍ إلى إعاشة الأخيار الذين لا يستطيع بلدٌ أن يَبْقَى بغيرهم ، مع أن عدداً كبيراً من العمال يَوَدُّ لو يَسْحَقُ هؤلاء الخيارَ بصَوْلةٍ كالتى أبداها البرابرة لتخريب رومة فيما مضى ...

« ويزول الخلافُ يومَ تَشْعُر الجماعاتُ بمصالحها الحقيقية فتُبْصِرُ أن تَوَارِىَ الخِيَارِ أو ضعفَهم يؤدى بسرعةٍ إلى فقرها أولاً ثم إلى هلاكها ثانياً » ، (روح السياسة) .

شأنُ الرأى العامّ فى حياة الأمم

« سَيْطَرَ الرأىُ العامّ على العالَمَ دائماً ، ولكنه لم يُسَيْطِر عليه فى زمنٍ كما فى الوقت الحاضر .

« وكان نابليونُ قد أبصر تأثيرَ الرأى العامِّ العظيمَ ، وعنده أن للرأى العامِّ سلطاناً لا يُقْهَر ولا يقاوَم كما لسلطان الدين .

« ومن يُصْبِحْ سيداً للرأى العامِّ يُمْكِنْه أن يسوقَ أمةً إلى أكثر الأعمال بُطولةً ، كما يُمْكِنُه أن يَسُوقَها إلى أكثر المغامرات مخالفةً للصواب .

« وعَرَف أعاظمُ أقطاب السياسة فى كلِّ وقتٍ أن يُوَجِّهوا الرأىَ العامَّ ، ويقتصر محترفو السياسة الوُضَعاء على اتباعه » ، (روح الأزمنة الحديثة) .

تأثيرُ الروح الشعبية فى الحكومات

« اليومَ يُتَمَلَّقُ الشعبُ ذو السيادة كما كان يُتَمَلَّقُ أسوأُ المستبدين ، وتَجِدُ شَهَواتُه الصاخبةُ ورَغَباتُه الطائشةُ مُعْجبَين وعابدين .

« وعند محترِفى السياسة ، الخادمين للعوامِّ ، لا وُجودَ للوقائع ، ولا قيمةَ للحقائق ، فيجب على الطبيعة أن تَخْضَع لأهواء العَدد » ، (روح السياسة) .

الروح الجَذْرية والروح اليعقوبية

« الروح الجَذْرية الحديثة قريبةٌ تماماً من الروح اليعقوبية فى زمن الثورة الفرنسية ، فاليعقوبىُّ ليس عقلياً فى الحقيقة ، بل مُؤْمنٌ ، ويَبْعُد اليعقوبىُّ من إقامة معتقده على العقل فيَسْكُب براهينَه العقليةَ فى معتقده ، ولا يتأثَّرُ اليعقوبىُّ بالمعقول مطلقاً مهما كان هذا المعقول صائباً .

« وبما أن نظره إلى الأمور قصير إلى الغاية دائماً فإنه لا يُبِيحُ له مقاومةَ ما يُسَيِّرُه من الاندفاعات العاطفية القوية .

« والواقعُ أن اليعقوبىَّ متدينٌ أقام آلهتَه الجُدُد مقامَ آلهته المُسِنِّين ، وإذ أن اليعقوبىَّ مشبع من قدرة الكلمات والصِّيَغ فإنه يَعْزُو إليهما سلطاناً دينياً ، وهو لا يتقهقر ، مطلقاً ، أمام أعنف التدابير خِدْمةً لهؤلاء الآلهة الكثيرى الاطِّلاب » ، (روح الثورات) .

تطور المبادئ الثورية الكبرى

تقدمُ الاستبداد الحديثُ

« لم يَدْخُل الإنسانُ فى دورٍ من الحرية ولا الإخاء ، وبما أن الحرية نُبِذَتْ من قِبَل الاشتراكيين وأنصار الحكومية فإنها عادت لا تمَثِّلُ غيرَ رمزٍ حائر ، وبما أن الحرية دُحِرَتْ من قِبَلِ جميعِ المدافعين عن نزاع الطبقات فإن الإخاء يَبْقَى وهماً بلا نفوذ .

« وبين الثالوث الثوريّ المنقوش على جُدُرنا دائماً تَرَى المساواةُ أن سلطانها وحدَه هو الذى يَعْظُم ، وبما أن المساواةَ أصبحت إلهَ الأزمنة الحديثة فإنها ستستمرُّ ، لا ريْبَ ، على طَرْدِ الملوك من عروشهم وطَرْدِ الآلهة من زُونهم(١) ، وذلك إلى اليوم الذى تَهْلِك فيه بدَوْرِها لعَجْزِها عن تحقيق أمانى الأمم .

« وما انفكَّ جميعُ الخطباء السياسيين ، منذ أوائل الثورة الفرنسية حتى أيامنا ، يُعلِنُون فى خُطَبهم حقدَهم على الاستبداد وحُبَّهم للحرية .

« وعلى العكس يَكْشِفُ تاريخ هذا الدور عن مقتٍ عظيم للحرية ، ولا سيما حريةُ الآخرين ، كما يكشف عن ميلٍ إلى الاستبداد .

« وتَدُور جميعُ المعارك السياسية ، حَصْراً تقريباً ، حَوْلَ مَعْرِفةِ أيّ الأحزاب سيمارِس هذا الاستبداد وأيةِ طبقاتٍ من المواطنين ستحتمله » ، (روح السياسة) .

---

(١) الزون : الموضع تجمع فيه الأصنام .

خلاصة عامة

بالشواهد السابقة ينتهى هذا الكتاب الذى حاولت أن أُثبت فيه بعضَ مناحى التاريخ العظيمة والضروراتِ التى تُوَجِّهُ مجراه .

وتَحَوَّلَ العالمَ مراتٍ كثيرةً منذ الزمن البعيد الذى لم يكن فيه للإنسان ، الغائصِ فى ظُلُمات ماقبل التاريخ ، دافعٌ للعملِ غيرُ احتياجه إلى الغِذاء والتناسل ، وبالتدريج أضيفتْ عواملُ سَيْرٍ أخرى إلى شروط الحياة الأولى التى وَجَّهت الإنسانيةَ فى فَجْرها ، والتى تَبْقَى وحدَها مُوَجِّهةً لمُعْظَمَ الناس فى كلِّ حين ، وكانت الأوهامُ النافعةُ أو الضارَّةُ أقوى هذه العوامل التى وَجَّهت الأمم بتعاقب الأجيال .

* * *

وعلى ما ألقاه كثيرٌ من الاكتشافات من نُورٍ يَبْقَى تفسيرُ الحوادث التاريخية العظيمة ناقصاً ، ويَظَلُّ مُعْظَمُ المسائل بلاجواب ، فكيف وُفِّقَ أعاظم المتهوِّسين الخالقين للأوهام لإيجاد آلهةٍ شَتَّى سيطروا على التاريخ ؟ وكيف يخْرُج الحقيقىُّ من غير الحقيقىِّ ؟ وكيف تُولَدُ العزائم الشعبية وتتحول ؟ وما السبب فى أن شأن الأغاليط الجَماعيةِ فى حياة الأمم أعلى من شأن العقل ؟

وإذا كان التاريخ مملوءاً إبهاماً وتفاسيرَ وهميةً فلأنه ليس ، فى الحقيقة ، غيرَ تعبيرٍ باطنىٍّ عن بعض الحوادث الوَجْدِية التى تتألَّفُ الحياةُ من

مجموعها ، فدراسةُ الحياة أمرٌ ضرورىٌّ لفَهْم التاريخ ، ولذلك رأينا أن نتكلَّمَ فى هذا الكتاب عن السُّنَن التى تسيطر عليه .

والتاريخُ ، الذى هو قَصَصٌ لبعض مظاهر الحياة ، يَصْدُر ، إذَنْ ، عن مِنْطقةٍ حافلةٍ بالأسرار دائماً ، وذلك لأن جميع الحادثات المترجِّحة بين تكوين خليةٍ بسيطة ونموِّ الفكر الدِّماغىِّ تَظَلُّ غيرَ مُدْرَكةٍ من هذه الناحية فيَتَعذَّر صَوْغُ فَرْضيةٍ لتفسيرها ، ويَفُوقُ إدراكُ حياةِ أحقرِ عضوٍ وسائلَ الذكاء كثيراً .

ومع ذلك فلا يجوز أن يُقْنَطَ من النفوذ ، ذاتَ يومٍ ، فى هذه المِنْطقة المستغلِقة ، فما يُدْرَك اليومَ مؤلَّفٌ من غيرِ المُدْرَك بالأمسِ .

ودراسةُ مثلِ هذا التطور تَحْتمل مرحلتين مختلفتين ، ففى الأولى تُحَقَّق الحوادثُ فقط ، وهى تُدْرَك فى الثانية ، ودرجاتُ المعرفةِ المختلفةَ هذه تلاحَظُ بسهولةٍ فى سواء الفكر الحديث ، ولا بُدَّ له من القول ببعض الإيضاحات التى لا يُمْكِنُه إدراكُها بَعْدُ ، ومن ذلك ، مثلاً ، انتشارُ فكرةِ كَوْنٍ دائمِ التحوُّل فلا يوجَدُ له أولٌ ولا حَدٌّ ولا آخر ، وتُضَافُ إلى الأبدية القائمة أمامنا ، والسهلِ إدراكُها نِسْبيًّا ، أبديةٌ قائمةٌ وراءنا فيَلُوح أن النفس مُلْزَمةٌ بقبولها ، ولكن من غير أن تتمثلَها ، وتَقُوم الهندسةُ نفسُها على تعريفاتٍ أُلْزِمَ العقلُ بقبولها من غير أن يُدْرِكها ، كما أثبتُّ ذلك منذ زمنٍ طويل .

ولا ينبغى لمن يريدُ تعَمُّقًا فى معرفة التاريخ أن يَفْصِلَ الإنسان عن بيئته ، بل يجب عليه أن يَرْبطه بسلسلةِ الموجودات الطويلة التى يُعَدُّ متمًّا لها

وبالكَوْن الذى لا يُمَثِّلُ غيرَ واحدٍ من مظاهره .

وهكذا سيُرِّنا إلى دراسة موضوعاتٍ يَلُوح بُعْدُها من التاريخ وإن كانت أُسُسَه الحقيقية .

الفهرس

الباب الثالث

إصلاحات التاريخ العلمية

صفحة

الباب الرابع

العناصر المُوجِدة للتاريخ

الباب الخامس

العناصر التى تنحلُّ بها حياة الأمم

الباب السادس

عوامل التاريخ الجديدة

تعليقات ختامية

١٩٥٤/٤٠٩٤

تصويب

ص	س	صواب
١٩	١	فهو
١٠٩	٤	يمكننا
١٢٢	١	هى
١٤٢	١	الرجعية
١٩٩	١٢	سرعة
٢٢٢	٧	وبالحرب

للأستاذ المترجم

(١)	روح الشرائع (جزءان)	لمونتسكيو
(٢)	العقد الاجتماعى	لجان جاك روسو
(٣)	أصل التفاوت	» » »
(٤)	حضارة العرب (طبعة ثانية)	لغوستاف لوبون
(٥)	حضارات الهند	» »
(٦)	روح الجماعات	» »
(٧)	السنن النفسية لتطور الأمم	» »
(٨)	فلسفة التاريخ	» »
(٩)	روح التربية	» »
(١٠)	حياة الحقائق	» »
(١١)	الآراء والمعتقدات	» »
(١٢)	روح الثورات والثورة الفرنسية (طبعة ثانية)	» »
(١٣)	روح الاشتراكية	» »
(١٤)	روح السياسة	» »
(١٥)	اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى	» »
(١٦)	النيل	لإميل لودفيغ
(١٧)	البحر المتوسط	» »
(١٨)	كليوباترة	» »
(١٩)	بسمارك	» »
(٢٠)	نابليون	» »
(٢١)	ابن الإنسان	» »
(٢٢)	الحياة والحب	» »
(٢٣)	حياة محمد (طبعة ثانية)	لإميل درمنغم
(٢٤)	تاريخ العرب العام	لسيديو
(٢٥)	الآلهة عطاش	لأناتول فرانس
(٢٦)	حديقة أبيقور	» »
(٢٧)	أصول الفقه الدستورى	لإيسمن